سلسلة تاريخ العصور الوسطى 

نشأة الجامعات
في
العصور الوسطى

دكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

إهـــداء

الى الأجيال المتعاقبة ، من باحثين ودارسين ،

بين جامعة العصر الوسيط وجامعة القرن العشرين ؟

مقدمة الطبعة الثانية

يسرني أن أقدم لقراء العربية المجلد الثالث في « سلسلة تاريخ العصور الوسطى » ، التي تصدرها دار النهضة العربية ببيروت بلبنان ، وعنوانه « نشأة الجامعات في العصور الوسطى » ، وكانت قد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧١ . وهو يشتمل على قسمين كبيرين : أولهما قمت بإعداده تحت اسم « المدخل الى جامعات العصور الوسطى » ، والثاني هو كتاب شارل هومر هاسكنز المعنون « نشأة الجامعات » الذي قمت بنقله الى العربية مع التمهيد له والتعليق عليه . والقسمان يتممان بعضهما ، فأولهما يتحدث عن الحركة العلمية والفكرية في الفترة المبكرة من العصور الوسطى ، وعلى وجه التحديد منذ بدايتها حتى نشأة الجامعات . وثانيهما يعالج بتفصيل وتدقيق ثلاث نقاط هامة هي : الجامعات المبكرة ، واستاذ العصور الوسطى ، ثم طالب العصور الوسطى . وفي اعتقادي أن كتاب هاسكنز يسد فجوة واضحة في تاريخ التعليم والمدارس والجامعات في العصور الوسطى

جوزيف نسيم يوسف

بيروت (لبنان) يناير ١٩٨١

تصدير الطبعة الأولى

الكتاب الذى بين يدى القارىء ينقسم إلى قسمين متممين لبعضها : الأول قمنا بإعداده تحت إسم « المدخل إلى جامعات العصور الوسطى » ، ويتناول تطور الحركة العلمية والفكرية فى الغرب الأوروبى منذ سقوط الدولة الرومانية القديمة وبداية العصور الوسطى حتى نشأة الجامعات . والثانى هو كتاب شارل هومر هاسكنز المعنون « نشأة الجامعات » الذى قمنا بترجمته إلى العربية مع التقديم له والتعليق عليه ، ويتحدث عن الجامعات الأوروبية المبكرة وعن كل من الأستاذ والطالب فى القرون الوسطى . والقسمان يتمم كل منهما الآخر ، فالقسم الأول هو مدخل طبيعى للثانى ، كما أن القسم الثانى امتداد طبيعى للأول . وقد رأينا أن يكون عنوان المجلد متضمنا القسمين على النحو الذى صدر به وهو « نشأة الجامعات فى العصور الوسطى » .

وبالله التوفيق ؟

الاسكندرية فى يوليو ١٩٧١ — جوزيف نسيم يوسف

القسم الأول

المدخل
إلى
جامعات العصور الوسطى

تأليف

جوزيف نسيم يوسف

مقدمة

تعالج هذه الدراسة موضوع النشاط العلمى والفكرى فى الغرب الأوروبى منذ سقوط الدولة الرومانية القديمة فى أواخر القرن الخامس الميلادى حتى نشأة الجامعات وانتشارها اعتباراً من القرن الثانى عشر . وقد رأينا أن نمهد بها لترجمتنا العربية لكتاب شارل هومر هاسكنز باعتبارها المدخل الطبيعى لقيام الجامعات فى أخريات العصور الوسطى . إذ ليس من السهل تفهم مختلف العوامل التى أدت إلى قيام الجامعات ، والتعرف على الأدوار الرئيسية التى مرت بها ، دون الرجوع عدة قرون إلى الوراء عند ما قضى الجرمان البرابرة على الإمبراطورية الرومانية ، وعلى نظمها وحضارتها وتقاليدها ،وأقاموا على أنقاضها دولا وممالك جرمانية جديدة لها أنظمة وحضارة جديدة مغايرة . وبهذا الحدث الخطير يطوى التاريخ القديم صفحته ، ويبدأ عصر جديد فى التاريخ الأوروبى هو العصر الوسيط . وقد بدأ بداية سيئة غير طبيعية فى ظل الفوضى التى أثارتها غزوات الجرمان الدامية المدمرة التى كانت تكتسح فى طريقها كل شىء ، وفى ظل انهيار الجهاز الرومانى العتيق فى العلم والفكر والفلسفة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون والدين . فقد تحطم جهاز العمل الرومانى ، وانهار من أساسه ذلك الصرح الشامخ الذى كان سائداً عند الرومان القدماء لتحل محله أنظمة مخالفة وأمم جديدة لها حضارتها وتفكيرها ومشاكلها الأدبية والمادية والاجتماعية الخاصة بها .

وغير خاف أن من أهم الآثار التى ترتبت على غزوات الجرمان فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، هى حالة الفوضى التى سادت كافة أنحاء الغرب الأوروبى ،

حتى أن مؤرخاً معروفاً مثل إدوارد جيبون يقول إنه كان فى حكم المستحيل أن تحرز الإنسانية أى تقدم فى ذلك العهد المضطرب. [١] هكذا بدأت العصور الوسطى فى جو من القلق والاضطراب الذى لم يكن لها يد فيه ؛ ولم يكن هناك مناص من أن تواجه هذا الوضع ومن أن تبدأ على هذا النحو . لقد كان العصر عصر تغير وانتقال من القديم بمثله وقيمه التى آمن بهما المجتمع الرومانى إلى الوسيط بفلسفته وأفكاره ؛ ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله ، بل كان كل شىء فى تغير دائم تدريجى مستمر . وفى مثل هذه الظروف لم يكن من السهل أن تحرز الإنسانية أى تقدم ، فى وقت كان فيه الفرد فى الغرب يعيش يومه ولايدرى تماماً ما يكنه له غده من كوارث ونكبات

بدأت العصور الوسطى ، إذن ، بداية غير طيبة ، حتى أن مؤرخاً مثل و. ب. كير[٢] أطلق على القرون الأولى منها إسم « العصور المظلمة » . ويأخذ بهذا الرأى كثير من المؤرخين المعنيين بتاريخ هذه الحقبة من الزمن. [٣] ولقد كانت تركة مثقلة بالمشا كل مليئة بالصعاب تلك التى تسلمتها العصور الوسطى المتقدمة ، وهى تركة انعدم فيها نور العلم والمعرفة ، وانطفأت فيها شعلة الحضارة الرومانية القديمة الزاهرة ، وساد بدلا من ذلك ظلام دامس لايستبين المرء منه أى شىء ، وسرت برودة شديدة تقشعر من قسوتها الأبدان . وكان على هذه العصور أن تقوم بدور هام ، وهو العمل على الخروج من هذا الظلام والقضاء على تلك

---

(١) أنظر رأى جيبون وتعليق المؤرخ جورج جوردون كولتون عليه فى كتاب كولتون (ج. ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة — ترجمة وتعليق دكتور جوزيف نسيم يوسف — ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٢) ، ص ٧ و ٦ ٤ و ٥٠ .

(٢) CF. W. P. Ker, The Dark Ages (London, 1955), p. 1 ff.

(٣) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٣٥ .

البرودة ليحل محلها بصيص من نور وقبس من دفء . وكان عليها أيضاً العمل على تحقيق نوع من الأمن والهدوء والاستقرار النسبي . ولم يكن هناك بد من ذلك لتعود الحياة إلى سيرتها الأولى ، وليسترد المجتمع الأوروبي المنهك أنفاسه اللاهثة ويأخذ طريقه نحو التقدم والرقى .

لقد تعطلت عجلة الحياة فى الغرب قروناً طويلة ، ولم يكن لها عمل سوى أن تسجل الزمن وهو يمر مراً بطيئاً رتيباً . وقد أحاط بالحياة الفكرية ، على وجه الخصوص ، ظلام كثيف ، اللهم إلا من شعاع ضئيل خافت من بقايا تراث لاتينى ذابل كان للكنيسة الرومانية دور هام فى الإبقاء عليه داخل جدرانها خدمة لأهدافها الدينية فحسب . وكان ذلك ، بحكم الظروف ، فى أضيق الحدود وفى أضيق نطاق . وعلى هذا ظل شعاعاً رفيعاً ، أو بكلمة أدق فى التعبير ، بصيصا من شعاع وسط ظلام شامل عم الغرب من أقصاه إلى أقصاه . ومع ذلك فقد خلف لنا عددا من الفلاسفة والمفكرين وغيرهم من آباء الكنيسة الأول الذين تكشف تآليفهم عن نوعية الفكر وقتذاك ، وعن سمات الثقافة التى ارتبطت أساسا بالمسيحية وفلسفتها وبالكنيسة وتعاليمها فى هذا العصر المبكر .

وهكذا تركت الظروف التى أحاطت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، والتى ارتبطت بالجرمان وغزواتهم وبالمسيحية وكنيستها ، بصماتها الواضحة على الثقافة والعلم خلال القرون الأولى من ذلك العصر ، مثلما تركت بصماتها على العقلية والفكر الوسيط ، بل وعلى كافة أوجه الحضارة والحياة فى الغرب . واستمر الحال على هذا المنوال عدة قرون . ولكن ، مع بدايات القرن الثامن ظهرت نهضة علمية مبكرة ومتواضعة ، إذا قورنت بالتدهور العام الذى ساد الغرب فى القرون السابقة . وكان مركزها إيرلندا وإنجلترا ، وارتبطت بعدد

من الشخصيات مثل بيده والكوين أكثر من ارتباطها بالعصر نفسه . فلم تكن الظروف والأوضاع مهيأة بعد لإحداث تغيير جذرى عميق ، كما لم تكن العقول والأفكار هى الأخرى معدة لتقبل كل ماهو جديد فى ميدان العلم والفكر والثقافة بعامة .

وما يقال عن القرن الثامن ونهضته ، يقال أيضا عن القرن التاسع ونهضته العلمية التى ارتبطت بالإمبراطور شارلمان فى بدايات ذلك القرن وبالملك الفريد السكسونى قرب نهايته .

كانت هذه كلها بواكير ومقدمات طيبة لنهضة أكثر شمولا واتساعا شهدها المجتمع الغربى الوسيط مع بدايات القرن الحادى عشر الذى تميز بأسطورة سنة ١٠٠٠ المعروفة التى كان لها أثرها فى إيقاظ الغرب من سبات عميق ، وفى وجود حالة من الاستقرار أخذ يستشعرها ويجنى ثمارها ويتمتع بنتاجها . إذ بدأ الظلام ينقشع تدريجيا معلنا عن صبح مشرق ، وأخذ الدفء يسرى فى الشرايين ليقضى على برودة القرون المظلمة وجمودها . وبدأ العقل الأوروبى ينطلق من عقاله محاولا الخروج من الدائرة الضيقة المغلقة التى عاش أسيرها ، ليضع حداً للجمود الفكرى الذى اكتنفه قرونا عديدة . وكانت النتائج طيبة تتلخص فى ظهور الفكر الحر والفلسفة المدرسية وانتعاش النهضة الفكرية فى القرن الحادى عشر التى هيأت بدورها الجو لنهضة القرن الثانى عشر المعروفة بالنهضة العلمية الأولى ، [1] التى

---

(١) يعتبر مؤلف هاسكنز عن نهضة القرن الثانى عشر أفضل ما كتب فى هذا الموضوع حتى الآن . أنظر C. H. Haskins, The Renaissance of the Twelfth Century (Cambridge, 1928). — والكتاب يمتاز بأهميته الكبرى فى إلقاء الضوء على الخلفية الثقافية والفكرية التى على أساسها قامت أقدم الجامعات فى المجتمع الغربى الوسيط .

دعت إلى تحرير الفكر والعودة إلى التراث الكلاسيكى القديم ، وبخاصة فلسفة أرسطو . وقد أخرجت هذه النهضة الكثير من كبار المفكرين والدعاة من أمثال الفيلسوف بطرس أبيلارد صاحب الفكر الحر والقديس برنارد أوف كليرفو صاحب الفكر الدينى القديم ، وغيرهما ممن ملأوا العالم الوسيط حركة ونشاطا بمناقشاتهم ومجادلاتهم وكتبهم وتآليفهم التى لايزال معظمها باقيا إلى اليوم يروى قصة تلك الانطلاقة الفكرية العملاقة وذلك الاحتكاك الذهنى الكبير على مسائل حيوية فى الدين والفلسفة كان لها قدرها ووزنها وقتذاك . وقد أدى هذا بالتالى إلى نشأة الجامعات التى كانت ، فى حقيقتها ، وليدة تلك الجهود العلمية السابقة الطويلة البطيئة المضنية . وقد قامت تلك الجامعات لتحتل مكانة مرموقة فى المجتمع الغربى فى القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، ولتؤدى دوراً بارزاً انتقل بالغرب ، وبصفة نهائية ، من عصر الجهل والظلمات إلى عصر العلم والنور والمعرفة، ونعنى بذلك عصر النهضة الذى مهّد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة .

الفصل الأول

حركة التعليم فى العصور المظلمة
حتى بداية حكم شارلمان

- الغزوات الجرمانية وأثرها فى القضاء على العالم الرومانى وحضارته .
- تدهور اللغة اللاتينية والتراث الكلاسيكى القديم .
- بداية عصر جمود وظلام .
- العلم والإنتاج الأدبى والشعرى فى العصر الوسيط المبكر .
- الإنتاج الفكرى ينحصر فى أعمال الآباء المسيحيين الأول .
- دور الكنيسة اللاتينية فى الحفاظ على العلم فى فترة العصور المظلمة .
- أشهر الكتاب والفلاسفة والمفكرين ، وأثرهم على العلم والثقافة : بيوثيوس ، كاسيودورس ، مارتيانوس ، جوردانيس ، البابا جريجورى الكبير .
- النهضة العلمية الإيرلندية فى القرن الثامن وآثارها : بيده ، الكوين .

شغلت العصور الوسطى قرابة عشرة قرون من الزمان ، فهى تبدأ سنة ٤٧٦م بسقوط روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية القديمة أمام جحافل المتبربرين ، وتنتهى فى سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى أيدى الأتراك العثمانيين . وقد بدأت بداية سيئة فى وقت كانت فيه الدولة الرومانية فى طور الاحتضار بسبب الأزمات العنيفة التى هدت كيانها . ولهذا نظر إليها فريق من المؤرخين على أنها عصور تأخر وانحطاط ليس فيها من نور العلم والمعرفة شىء يذكر ، وكيف لا وقد قامت غزوات الجرمان البرابرة فى التاريخ الأوروبى على أنقاض الحضارة الرومانية الزاهرة وحلت محلها (١) .

ولا شك أن غزوات البرابرة قد أوجدت حالة من الفوضى والتوتر فى شتى مرافق الحياة ومختلف أوجه النشاط فى الغرب ، إذ قضت على معالم الحضارة والمدنية الرومانية وأحلت محلها حضارة قبلية بدائية لحد ما ، لم تكن لترقى بحال إلى مستوى حضارة الرومان القدماء . ولهذا يطلق بعض المؤرخين على الفترة المبكرة من هذه العصور اسم «القرون المظلمة» ، وعلى رأس هؤلاء إدوارد جيبون و و . ب . كير . ويقول كير إن أحلك فترة فى العصور المظلمة هى التى تمتد من نهاية القرن السادس حتى حركة إحياء العلم فى عهد شارل العظيم فى أخريات

---

(١) أنظر Goff, J. le, La Civilisation de l'Occident Médiéval (Paris, 1965), p. 27 ff ; Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe (New York, 1960), pp. 69, 71, 88 ; Brinton, C. and Others, A History of Civilization, Vol. I (New Jersey, 1967), pp. 203, 295 ; Homo, L., Nouvelle Histoire Romaine (Paris, 1941), p. 525 ff. أنظر أيضا سعيد عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٥٩) ، ص ١ وما بعدها .

القرن الثامن وبدايات القرن التاسع . إذ أصبح إهمال قواعد النحو فى اللغة اللاتينية أمرا شائعا مألوفا ، بل كان موضع تشجيع في بعض الأحيان . وكان البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤ م) يستشهد أحيانا بالكتاب المقدس مستنكرا العلوم الإنسانية . وتزايد مع الزمن إهمال دراسة الكتاب الوثنيين القدامى وأعمالهم . وكثر التساؤل الذى كان يحمل بين طياته أكثر من مغزى ودلالة : « هل تنقذ قواعد اللغة اللاتينية النفس الخالدة ؟ »أو « ما الفائدة التى يمكن أن نجنيها من الكتابة عن آلهة أو فلاسفة الديانة الوثنية القديمة أو أعمال هرقل أو سقراط ؟ » (١) كذلك أصبحت الكتب نادرة الوجود . ولم يعد شعراء أو خطباء العالم القديم فى أخريات أيامه يقومون بصناعة نسخ الكتب كما كان الحال من قبل ، اللهم إلا القليل منهم . وكان تدهور هذه الدراسات أوضح ما يكون فى كل من غالة وايطاليا (٢) .

لقد أخذت الحضارة الرومانية المرتبطة بالثقافة اللاتينية تنكمش تدريجيا من دول الغرب الأوروبى ، وأغلقت المدارس القديمة أبوابها ، وعم الجهل ، وساد الظلام . وكان هذا أمراً طبيعيا متوقعا . فقد غدا المجتمع الرومانى فى نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط مجتمعا جامدا لاحياة فيه ، وانعدمت نتيجة لذلك

(١) "Quid posteritas emolumenti tulit legendo Hectorem pugnantem aut Socratem philosophantem ? "

وهذه العبارة من قول سولبيكيوس سفيروس (٤٠٠ م) Sulpicius Severus .

وكان مثل هذا النوع من النقاش سائدا زمن جريجورى الكبير وبعده بوقت غير قصير .

أنظر Ker, op. cit., p. 24 n. 1.

(٢) Ker, op. cit., pp. 24 - 5.

الأصالة فى اللغة والعلم والأدب الكلاسيكى القديم . (١) ولا جدال أن المسيحية قد أثرت على اللغة اللاتينية باستحداث ألفاظ وكلمات وتعبيرات لم تكن معروفة من قبل ، حتى تتمشى مع الآراء والأفكار الجديدة التى نادت بها تلك الديانة التى كانت بمثابة رد فعل للتاريخ القديم ووثنيته . هذا ، فضلا عن الكلمات التى هى من أصل جرمانى ، والألفاظ العامية والدارجة التى أدخلت على اللغة الفصحى . ويمكن التأكد من ذلك بالمقارنة بين اللاتينية القديمة الفصحى النقية من كل الشوائب كما كتبها أناس مثل شيشيرون وفرجيل وأوفيد وستاتيوس وسالوست وقيصر وبلينى وكاتو ، وبين اللاتينية الجديدة التى استخدمها الآباء والقديسون فى العصر المسيحى الأول . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن البلاغة التى تميز بها الأسلوب اللاتينى القديم قد انتهت ليحل محلها وضع جديد لم يهتم فيه الناس باختيار اللفظ المناسب أو العناية بانسجام العبارات واتزان الجمل . ولم يعد الكاتب فى فجر العصور الوسطى يعنى بقواعد النحو فى كتاباته كنتيجة للأوضاع التى أسلفنا إليها . مثال ذلك أن كل كلمة فى اللاتينية الكلاسيكية كان لها مكانها الخاص فى الجملة ، فالجملة تبدأ بالفاعل وتختتم بالفعل . ولكن كتاب العصر المسيحى الأول لم يراعوا هذه القواعد بالمرة ، وقد كان لهم فى ذلك عذرهم . وإن كانوا بموقفهم هذا قد أضروا اللغة اللاتينية ضررا بالغا ، حتى أنه مع بداية الحقبة الوسيطة من التاريخ كانت هناك لغة لاتينية جديدة تماما ، وتختلف فى نفس الوقت اختلافا بينا عن اللاتينية الكلاسيكية ، ونعنى

---

(١) كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ٢٤ ؛ كرامب (ج) وجاكوب (ا) : تراث العصور الوسطى — راجع الترجمة العربية محمد بدران والدكتور محمد زيادة — ج ١ (القاهرة ١٩٦٥) ص ٢٥٣ وما بعدها و ٢٧٨ . راجع أيضا Goff, op. cit., p. 147 ff ; Kitchin, G.W., A History of France, Vol. I (Oxford, 1899), p. 66.

بها اللاتينية العامية Lingua Rustica أو الدارجة Lingua Vulgaris أو الشعبية Lingua Plebea حسبما كان يطلق عليها (١) .

وكما تأثرت اللغة اللاتينية بكل من المسيحية والغزوات الجرمانية ، كذلك تدهور مستوى الخط والكتابة تدهورا واضحا بسبب تفشى الجهل فى عصر مظلم؛ وكثرت الأخطاء اللغوية والنحوية حتى غدا من المتعذر قراءة المخطوطات التى وضعت فى العصر المسيحى المبكر أو فك طلا سمها ورموزها . والخلاصة أن اللاتينية التى كانت فى وقت ماهى لغة العلم والتعليم لدى كافة الشعوب الغربية المثقفة قد دب فيها الخلل والفساد بسبب الظروف الجديدة التى استجدت على العالم الاوروبى وقتذاك (٢) .

وكان كل ماتبقى من حضارة الرومان القدماء هى بقايا ذابلة باهتة انبثقت من المؤسسات الدينية والديرية التى أخذت تنتشر بسرعة فى الغرب مع انتشار المسيحية وتأصل جذورها . وثمة صلة وثيقة بين المسيحية وفلسفتها التى جاءت كرد فعل للعصر القديم بمثله وأفكاره ومبادئه ، وبين ماأصاب التراث الكلاسيكى

---

(١) أنظر Kitchin, op. cit., I, p. 164 ; Painter, S., A History of the Middle Ages (London, 1966), p. 11 ; LaMonte, J.L., The World of the Middle Ages (New York, 1949), pp.554—556 ; Bloch, M., Feudal Society, Vol. I (London, 1967), p. 107.

أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى — ج ٢ (القاهرة ١٩٥٩) ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ؛ كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢) أنظر كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

من تدهور وانحطاط . فلم يكن قيام الدين الجديد وفلسفته لينفقان بحال مع بقايا الحضارة الرومانية التقليدية والتراث الكلاسيكي القديم . لقد كان هذا التراث في نظر المسيحية تراثا ضارا عديم الفائدة لارتباطه بالوثنية وما كانت تدعو إليه من الحرية والانطلاق وتعدد الآلهة (١).

وللمزيد من الإيضاح نقول إن فلسفة المسيحية تنادى بأن الحياة الدنيا ما هى إلا مطية زائلة إلى الدار الثانية دار الخلد والنعيم المقيم ، ولذلك وجب على الفرد أن يعد نفسه لهذه الحياة الأبدية الباقية بالصلاة والتبتل والتقرب إلى الله والعمل على مرضاته . لذا حرمت على الفرد أن يتمتع بمباهج الحياة الدنيا وملذاتها باعتبارها متعاً زائلة يجب أن ينهى نفسه عنهـا ، ونادت بأن الخلاص — أى خلاص النفس — هو الغاية النهـائية لكل كائن حى . فى حين أن الوثنية القـديمة كانت تتميز بالتحرر من كل القيود كنتيجة لتعدد النواحى . فكانت تدعو إلى التمتع بالحياة وبالطبيعة وجمالها فى شتى صورها ومظاهرها . وهكذا صبغت المسيحية الحياة فى المجتمع الغربى الوسيط بصبغة خاصة ظهر أثرها جلياً فى شتى المجالات ، وبخاصة فيما يتعلق بأمور العلم والتعليم والفكر والثقافة . فلم يكن ، مثلا ، يسمح للأديب أو المفكر أو الفنان أو الشاعر أن يعبر عن أحاسيسه وانفعالاته فى كلمة أو رأى أو لوحة أو قصيدة وما إلى ذلك مما حرمته المسيحية وفلسفتها ، تلك الفلسفة التى اعتبرت الأساس الأول للحياة والتفكير فى العصور الوسطى . كذلك لم يكن مسموحاً بتدريس علوم وآداب اليونان والرومان القدماء لما فيها من

---

(١) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ٤٨ و ٥٤ .
راجع أيضا كتاب : Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire (New York, 1960), p. 6.

عناصر وثنية لا تتفق بحال مع المسيحية وما كانت تدعو إليه . ولهذا نبذتها الكنيسة اللاتينية . وبلغ من تعنتها حيال التراث الكلاسيكي القديم أن حاربته دون رفق أو هوادة حتى أن المتبقى منه مع بدايات العصر الوسيط ، والذى حفظه لنا الزمن من الضياع ، كان ضئيلا جداً وضعيفاً فى مستواه (١) .

وهكذا صاحب القرون الأولى من العصر الوسيط تدهوراً وانهياراً فى أمور العلم والتعليم بصفة عامة وفى اللغة اللاتينية وما يتصل بها من نحو وأجرومية وبلاغة على وجه الخصوص . ولازم ذلك ظهور أدب لاتينى جديد يختلف عما كان سائداً من قبل. وقد كان لهذا الأدب الجديد الذى أرسى قواعده آباء الكنيسة الأول أثره الواضح فى تفكير العصر الوسيط المبكر . ومن بين هؤلاء الآباء ينبغى الإشارة إلى إثنين بالذات هما القديس جيروم (حوالى ٣٤٧ — ٤٢٠ م) St. Jerome والقديس أوغسطين أوف هيبو (٣٥٣ — ٤٣٠ م) St. Augustine of Hippo

كان أولهما عالماً كبيراً وكاتباً عظيماً ، له مؤلفات عديدة هامة منها ترجمته لحياة الرهبان المصريين وأنظمتهم إلى اللغة اللاتينية التى ساعدت على سرعة انتشار

---

(١) كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ٥٤ و ٥٥ وما بعدها ؛ كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١، ص ٢٦٩ وما بعدها ؛ عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٢) ص ٦ — ١٤ . أنظر أيضا المراجع الأجنبية التالية : Goff, La Civilisation de l'Occident Médiéval, pp. 147 ff., 155 f. ; Taylor, H. O., The Classical Heritage of the Middle Ages (New York, 1957), p 44 ff , 107 ff.; Cantor, N. F. (ed), The Medieval World (New York, 1963), p. 27 ff. ; Katz, op. cit., p. 130 ff.; Brinton & Others, op. cit., I, pp. 167 – 168.

الرهبنة فى الغرب . وكذلك ترجمته اللاتينية للإنجيل التى أصبحت الترجمة المعتمدة المعترف بهـا فى العالم بعد أن حلت محل النص الأصلى القديم . وقد تأثر عالم اللاهوت تأثراً واضحاً بهذه الترجمة الجديدة (١) .

أما أوغسطين فهـو يعتبر — بحق — أعظم آباء الكنيسة اللاتينية فى هـذا العصر المبكر . وكان قبل اعتناقه المسيحية مدرساً لعلم البيان فى إيطاليا . كما كان على دراية واسعة بآداب اللاتين القدامى والمناقشات الفلسفية والأدبية واللاهوتية فى عصره . وقرأ الكثير عن فلسفة الإغريق وأدبهم فى التراجم اللاتينية . وله ، هو الآخر ، مؤلفات عديدة تركت أثرها على العقلية الوسيطة . ومن أهمها ، إن لم يكن أهمها على الاطلاق ، كتابه الذى وضعه باللاتينية باسم « مدينة الله » De Civitate Dei ، الذى يعـد أعظم تآليفه الفلسفية والذى تحدث فيه عن فلسفة المسيحية.

وجدير بالذكر أنه ثار الجدل والخلاف لقرون طويلة حول المقصود بالمدينتين

---

(١) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ٥٣ ، واجع أيضا Coulton, G G., Medieval Panorama (New York, 1955), pp. 9, 11, 113, 264, 272, 666, 690, 692 ; Burgh, W. G. de, The Legacy of the Ancient World (London,1955), Vol.I, pp.310 – 311; Duroselle, J. - B., Histoire du Catholicisme (Paris, 1949), p. 21 ; Katz, op. cit., pp. 92, 120, 138 f., 146 ; Glanville, S. R. K. (ed.), The Legacy of Egypt (Oxford, 1957), pp. 302, 318, 328 ; Crump, C. G. & Jacob, E. F. (eds), The Legacy of the Middle Ages (Oxford, 1951), pp. 42, 147 — 152; LaMonte, op. cit, pp. 77 f., 85 f.

هذا ، ونجد مقتطفات من أقوال جيروم ، وبخاصة ما يتعلق بالمسيحية والتراث الكلاسيكى القديم فى كتاب Cantor, op. cit., pp. 27 –30.

اللتين وصفهما أوغسطين فى كتابه ، وهما مدينة الإنسان ومدينة الله . ولكن وجهة النظر المتفق عليها الآن أنه يعنى بمدينة الإنسان العالم الدنيوى الذى نعيش فيه ويقصد بمدينة الله السماء ، وذلك على الرغم من أن رجال الدين فى الغرب قد أصروا لفترة طويلة أثناء صراعهم مع القوى العلمانية حول المسائل الدنيوية ، أن المقصود بالمدينتين الدولة العلمانية والدولة الكنسية . ويتتبع كتاب « مدينة الله » مجرى التاريخ الرومانى منذ الكارثة التى حلت بروما على يد ألاريك Alaric الجرمانى فى بدايات القرن الخامس ، ويكشف عن الأزمات التى نزلت بها بسبب تمسكها بآلهة زائفين ثم يستطرد أوغسطين ليناقش خطة الله من أجل تخليص الانسان وعودته إلى مدينة الله الخالدة . وإن كان لهذا الكتاب من أثر ، فهو الأثر الذى تركه على الفكر الدينى فى الغرب أكثر من أى مؤلف آخر . ويكفى أن القديس أوغسطين لم يكن موضع دراسة وتقدير علماء اللاهوت فى العصر الوسيط فحسب ، وإنما تركت تعاليمه أثرها الواضح على كل من الفكر الكاثوليكى والفكر البروتستانتى فى العصر الحديث أيضاً . وللقديس أوغسطين ، إلى جانب كتاب « مدينة الله » ، مؤلفات أخرى من أهمها « اعترافاته » التى تعتبر فى الواقع أول ترجمة يدونها شخص عن نفسه فى تاريخ الأدب قاطبة (١) .

---

(١) أنظر عن ذلك LaMonte, op. cit., p. 77 f.; Mommsen, T. E., Medieval and Renaissance Studies (Ithaca, 1959), pp. 265-298 ; Duroselle, op. cit., 21; Garin, E. & others, Les Utopies à la Renaissance (Bruxelles & Paris, 1963), pp. 63, 65, 138 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 11 f., 15, 32, 34, 36, 96, 110, 122 et sqq.; Crump & Jacob, op. cit., pp. 25, 32, 39, 41 f., 48 f., 54 f., 152, 201 et sqq.; Kitchin, op. cit, I, p. 65 ; Katz, op. cit., pp 70 f , 92,133 f.; Goyau, G., Orientations Catholiques (Paris,

هذا عن وضع اللغة اللاتينية والكتابة والانتاج الأدبى اللاتينى الجديد فى العصر الوسيط المبكر الذى ارتبط أساساً بالدين ، وقد ترك أثره وطابعه على العقل والفكر وقتذاك . أما عن الشعر فقد وجد نوعان منه يختلفان تماما عن بعضهما هما : الشعر المسيحى الدينى والشعر المسيحى الدنيوى . وقد تخلى الشعر الدينى عن المقاييس الكلاسيكية القديمة المعروفة ، وأصبح يعتمد على أوزان إيقاعية مما ساعد على ذيوع الترانيم والتراتيل والأناشيد الدينية ، وبالتالى سرعة انتشار المسيحية نفسها فى الغرب . ومن شعراء العصر المسيحى المبكر الذين قرضوا هذا النوع من الشعر يجب أن نذكر القديس امبروز St. Ambrose الذى عاش فى القرن الرابع وكان أسقفا على مدينة ميلان فى عهد الامبراطور فالنتنيان الثانى (٣٧٤—٣٩٧م). وقد اشتهر بترانيمه الدينية التى وضعها باللغة اللاتينية (١) . وهناك أيضا الشاعر

= 1925), pp. 1—11.

أنظر مقال نورمان بينز المعنون : N. H. Baynes, "The Political Ideas of St. Augustine's De Civitate Dei," The Historical Association, London, 1962, pp. 3—17.

راجع أيضا كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ٤٥ — ٤٦ و ٢٦٥ — ٢٧١ .

(١) له ثلاث ترانيم مشهورة باللغة اللاتينية يحتمل أن يكون قد وضعها فى الوقت الذى عمد فيه أوغسطين ، أى فى عيد القيامة لسنة ٣٨٧ م ، وهذه الترانيم هى :

أ — تسبحة المساء ومطلعها « الله خالق الكل » «Deus creator omnium»

ب — تسبحة الصباح ومستهلها « الأزلى خالق كل شىء »
«Aeterne rerum conditor»

ج — ترنيمة عيد الميلاد وبدايتها « جاء مخلص البشر »
«Veni redemptor gentium»

أنظر كتاب Ker, op. cit., 205. راجع أيضا Piganiol, A., L'Empire :

الأسبانى برودنتيوس Prudentius (٣٤٨ — ٤٠٥م) الذى يمتاز بأشعاره الدينية المستوحاة من الكتب المقدسة ومن تعاليم المسيحية ذاتها ، والتى كانت تبعث على الأمل وتحث على التواضع والبعد عن العظمة والكبرياء [١] . وكذلك القديس باولينوس اوف نولا St. Paulinus of Nola (حوالى ٣٥٣ — حوالى ٤٣١م) بجنوب ايطاليا الذى أسهمت أشعاره فى تثبيت دعائم المسيحية فى وجه الحكام الرومان المضطهدين لها وفى وجه الوثنية القديمة [٢] .

ولكن هذا لايعنى أن الشعر الذى نظمه شعراء المسيحية الأول وقت انهيار الامبراطورية القديمة وبداية العصر الوسيط ، كان كله دينياً بحتاً . فقد وجد كثير من الشعراء المسيحيين ، وبخاصة خلال القرون الرابع والخامس والسادس الميلادية ، ظلوا وثنيين فى تفكيرهم بالرغم من اعتناقهم الدين الجديد . وكان

Chrétien : 325—395 (Paris, 1497), pp. 194, 207,227,241, 246,= 256, 262, 264, 268, 389, 391. 408 ; Cochrane, C. N., Christianity and Classical Culture (New York, 1957), pp. 347 ff., 373 f.

(١) أنظر Hillgarth, J.N. (ed.), The Conversion of Western Europe (London, 1961), p. 17 ; Crump & Jacob, op. cit., 156; Katz, op. cit., pp. 134, 141 ; LaMonte, op. cit., 84 ; Piganiol, op. cit., p. 387; Cochrane, op. cit., p. 290 .

راجع أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٢) أنظر Coulton, Medieval Panorama, p. 16 ; Crump & Jacob, op. cit., p. 51 ; Painter, op. cit., p. 85 ; LaMonte, op. cit., p. 84; Bury, J. B , History of the Later Roman Empire, Vol.I (New York 1958), p. 168 n 6 ; Hillgarth, op. cit., pp. 17, 21, 63 f. ; Piganiol, op. cit. loc. cit.

راجع أيضا سعيد عاشور : نفس المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة .

معظم هؤلاء الشعراء من الفرنجة ، ونذكر منهم الشاعرين اوزونيوس Ausonius (٣١٠ — ٣٩٥ م) الذى عاش القرن الرابع بكل أحداثه ، وسيدونيوس ابوليناريس Sidonius Apollinaris أسقف كليرمون الذى عاش فى القرن الخامس — إذ تبدو الاتجاهات والتقاليد الوثنية القديمة واضحة فى أشعارهما[1] .

وفى هذا الصدد يجب أن نشير أيضا إلى أحد شعراء العصر الميروفنجى وهو الشاعر فنانتيوس فورتوناتوس Venantius Fortunatus (٥٣٠ — ٦٠٣م) أسقف بواتييه الذى سار فى نفس الاتجاه الذى سار فيه كل من اوزونيوس وسيدونيوس من قبل . فقد تناول فى أشعاره مواضيع عديدة متنوعة تتميز بذوقها الكلاسيكى القديم أكثر من اتسامها بالسمة العامة التى كانت مألوفة فى فترة العصور المظلمة . ومن أفضل ماخلف لنا تلك الأشعار التى وجهها إلى عدد من أصدقائه والتى تبدو فيها جوانب البطولة فى قالب من السخرية . مثال ذلك القصيدة التى كتبها عن صديق له يدعى جوجو Gogo ، يقول فيها : « ماذا يفعل جوجو ؟ أيرقب شباك السالمون فى نهر الراين ؟ أم يسير وقد انتشى من الخمر ؟ أم يصطاد الجاموس من الغاب ؟ لتكن السحب والرياح رسلا بين جوجو وصديقه

---

(١) أنظر Ker, op. cit., p. 122 ff. ; Goff, op. cit., p. 151 ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 132,169; Katz, op. cit., pp. 110,134; LaMonte, op cit., pp. 74,84 ; Bury, op. cit., I, pp. 326, 331, 334 f., 337 f., 342 f. ; Piganiol, op. cit., 176, 202, 204, 221, 279, 325, 385, 393. راجع أيضا دوسن (كرستوفر) : تكوين أوربا — ترجمة ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٦٧) ، ص ١٠٢ و ١١١ و ١١٤ و ١٢١ . هذا، ونجد مقتطفات من أعمال أوزونيوس فى كتاب Cantor, op. cit., pp. 16—19.

فورتوناتوس ،، وفى نغمة أكثر جدية ووقاراً يكتب الشاعر إلى صديقه لوبوس Lupus دوق شامبانيا ، مبينا كيف أنه يحس بالراحة والطمأنينة لأفكار صديقه النبيل التى هى أشبه ما تكون بالظل الواق أو الماء الرطيب بالنسبة لإنسان أجهدته مشقة الطريق تحت وهج الشمس المحرقة ، ثم أخذ قسطاً من الراحة وهو يتذكر شاعره الذى يعرفه حق المعرفة ، وقد يكون هذا الشاعر هو هومير أو فرجيل أو أوفيد .

وعلى أية حال ، فإن المتتبع لأعمال فورتوناتوس يدرك أنه كان ينهج فى قرضه الشعر التقليد القديم . إذ كان يعتبر الشعر اللاتينى أفضل أشكال عالم الصياغة والبيان . وكان يؤثر استخدامه باعتباره من الأساليب الهامة لمعالجة أى موضوع من الموضوعات التى يتطرق إليها فى شعره ، وبخاصة الموضوعات الدينية[١] .

هذا عن الإنتاج الشعرى الدينى والدنيوى فى العصر المسيحى المبكر وأثره على الثقافة وعلى العلم والتعليم ، فى وقت اكتسح فيه الجرمان الجهاز الرومانى العتيق وانتصرت فيه المسيحية على الديانة الوثنية . وأما عن الكتابات الفكرية ، فقد برع فيها عدد قليل من الكتاب الذين تناولوا شتى الموضوعات فى تآليفهم ، ومن أبرز هؤلاء سولبيكيوس سفيروس Sulpicius Severus وجريجورى التورى Gregory of Tours نسبة إلى مدينة تورز الفرنسية .

---

(١) Cf. Ker, op. cit., pp. 119—124 ; Crump & Jacob, op. cit , pp. 132, 156 ; Kitchin, op. cit., I, p. 101 ; Katz, op cit., p. 110 ; Painter, op. cit., p. 68 ; LaMonte, op. cit., 84 f.
وللمزيد من المعلومات عن هذه الشخصيات ، أنظر سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ و ٢٢٩ .

ويعتبر سفيروس (٤٠٠ م) من الكتاب المشهورين . كان من رجال القانون، وقد تشبع بروح الرهبانية، ووضع مؤلفا عن حياة القديس مارتين التورى الذى كان من معاصريه ،وكان له أكبر الأثر فى الإسهام فى نشر الديرية فى الغرب الأوروبى إلى جانب مؤلفات غيره من أمثال القديس أوغسطين والقديس جيروم . هذا، ويلاحظ أن قواعد النحو لم تكن تراعى فى تلك الفترة المتقدمة فى الكتابة النثرية. كما كانت الأخطاء اللغوية شائعة ، وأهمل دراسة كل مايتعلق بالتراث الكلاسيكى القديم باعتباره تراثا ضارا لما فيه من عناصر وثنية حاربتها المسيحية دون رفق أو هوادة . ونلمس ذلك بما قاله سفيروس نفسه عندما تساءل : « هل تشفع أجرومية اللغة اللاتينية لخلاص الروح الخالدة؟ »، ومن تساؤله أيضا: «ما الفائدة التى نجنيها من الكتابة عن الآلهة أو الفلاسفة الوثنيين أو أعمال سقراط ؟ » ولم تكن مثل هذه التساؤلات ، فى حقيقة الأمر ، بغير مغزى أو دلالة . وكان هذا يعنى - بكلمة مختصرة - نبذ كل مايتعلق بالوثنية فى التراث الكلاسيكى القديم باعتبار أنه يتعارض مع ما كانت تنادى به المسيحية وما كانت تدعو إليه فلسفتها القائلة بأن الخلاص هو الغاية النهائية لكل كائن حى (١) .

أما المؤرخ جريجورى التورى (٥٣٨ — ٥٩٤م) فقد عاش فى القرن السادس، وكان أسقفا على مدينة تورز الفرنسية ، وهو يمثل العصور الوسطى المبكرة بمثلها وأفكارها وخصائصها وقيمها خير تمثيل . لقد خلت كتاباته من التقاليد الكلاسيكية والوثنية القديمة . ومما يذكر فى هذا الصدد أنه بدأ تاريخه الذى وضعه عن الفرنجة

---

(١) Ker, op. cit, p. 24 & n 1 ; cf. also LaMonte, op. cit., p.85 ; Bury, op. cit, I, p.307 n. 1 ; Hillgarth, op.cit.,p. 16.
أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ .

« History of the Franks» ، والذى يعتبر المصدر الأساسى عن تاريخ غالة فى ذلك العصر ، بالشكوى من تدهور العلم والتعليم وانحطاط الدراسات الدنيوية . ولكنه يستدرك فيقول إن انحطاط هذه الدراسات لايجب أن يؤدى إلى إهمال التاريخ . وكان جريجورى يستهدف تسجيل الأحداث ، وبخاصة تلك التى وقعت فى عصره . كذلك لم يعتن فى مؤلفة باللغة اللاتينية نفسها أو بإبراز نواحى الجمال فيها . ولم يتقيد بقواعد النحو وأجرومية اللغة . وإنما قصر اهتمامه على الأشخاص والأحداث فحسب وكان كل ما يعنيه أن يجد المستمع أو القارىء الذى يفهم أسلوبه ، وبنص قوله : " Philosophantem rhetorem intellegunt pauci, loquentem rusticum multi". لذلك نراه يستخدم فى تاريخه الأسلوب اللاتينى الدارج السهل ، بينما كان بوسعه أن يكتب بلاتينية أكثر نقاء وصفاء . لكنه آثر اختيار اللغة التى يفهمها عامة الناس الذين يكتب لهم فى عصر تدهورت فيه اللاتينية والثقافة المرتبطة بها (١) .

---

(١) أنظر Ker, op. cit., pp. 125—130; Crump & Jacob, op.cit., pp. 132, 152, 154; Kitchin, op. cit., I, p. 90; Katz, op. cit., pp. 110, 135; Painter, op. cit., pp. 68,444, LaMonte, op. cit., p. 88 f.

هذا ، ونجد مقتطفات من كتاب تاريخ الفرنجة لجريجورى فى مؤلف ن . ف . كانتور : Cantor, op. cit., pp. 77—81 .

ويتحدث كير عن تاريخ جريجورى فى شىء من الإفاضة والتحليل ، فيقول إنه يستمر حتى سنة ٥٩١ م ، وهو يقع فى عشرة كتب ، وتبدأ ذكرياته الخاصة بالكتاب الرابع . وتدل مذكراته على الدور الكبير الذى لعبه فى تاريخ بلاده . وكان فى نفس الوقت يوجه عناية فائقة إلى كل ما يتعلق بالمعجزات والمغامرات ، كما كان يتمتع بمقدرة هائلة على التخيل وسرد القصص ، وبصفة خاصة ما يتعلق بالفترة السابقة لعصره ، بالإضافة إلى تجاربه الخاصة . ويعتبر جريجورى التورى ، فضلا عما تقدم ، من المؤلفين القلائل الذين كان باستطاعتهم =

ولقد كان جريجورى التورى فى كتاباته يعبر — فى الواقع — عن عصر تغير وانتقال فى نواحى العلم والمعرفة وما أصاب اللاتينية والثقافة المرتبطة بها من تدهور وانحلال . ويقول المؤرخ جون لامونت إن معرفته باللاتينية تكشف إلى أى حد تدهور العلم فى الغرب الأوروبى وقتذاك ،وكيف أن اللاتينية الجديدة كانت مليئة بالأخطاء اللغوية والكلمات الدخيلة التى هى من أصل جرمانى (١).

ومع كل ما تقدم يجب ألا ينطبع فى الذهن أن العصور الوسطى المبكرة كانت خلواً تقريباً من حركة التفكير والإنتاج العلمى ، أو أن عجلة العلم قد توقفت تماماً عن الحركة ، إذا استثنينا هذه الأمثلة الفردية التى ألمعنا إليها والتى لا يجوز اتخاذها كمقياس ثابت لاتجاه معين . حقيقة لقد شمل القارة الأوروبية ، وبخاصة القسم الغربى منها، ظلام دامس كنتيجة للظروف التى نشأت عن غزوات البرابرة وتدفقهم فى أعداد هائلة فى قلب الامبراطورية الرومانية وهدم نظامها العتيق الذى كان هو الآخر فى طور الاحتضار . ولكن هذه الحال لم تدم طويلا ولم تستمر إلى ما لا نهاية فقد كانت الكنيسة ،وهى كل ما تبقى من الدولة الرومانية القديمة ومدنيتها بعد اكتساح الجرمان لها ، هى معقل التفكير ومنبع الحركات

= رسم صورة حية نابضة الموضوع الذى يكتبون عنه . ويرى كير أنه بالرغم من عدم تقيد جريجورى بقواعد النحو وأجرومية اللغة ، وبالرغم من أسلوبه اللاتينى العادى ، وبالرغم من أن الكثيرين غيره من كتاب الحوليات كانوا يستخدمون أسلوبا أفضل من ذلك الذى استخدمه جريجورى — بالرغم من كل ذلك فقد نجح جريجورى بتلك الإمكانيات الضئيلة التى كانت تحت يده والمواهب البسيطة التى كان يتمتع بها ، فى حين فشل كثيرون غيره من كبار الكتاب . ويكشف مؤلف جريجورى، الخاص بتاريخ الفرنجة عن هذه المواهب والقدرات التى كان يتمتع بها فى تلك الفترة المبكرة من التاريخ الوسيط . أنظر كير : نفس المرجع ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(١) LaMonte, op. cit., pp. 88—89.

الأدبية . كما احتفظت بطابع علمى متواضع على قدر مفهوم الناس وقتذاك. هذا، إلى جانب نشاطها فى العلوم الدينية والمعارف الدنيوية . وقد اجتذبت لخدمتها عدداً كبيراً من الناس الذين ذاع صيتهم وبرزت شهرتهم(١) .

ومن هنا اصطبغ التعليم فى هذه الفترة المبكرة بصبغة دينية واضحة . وكان هذا أمراً طبيعياً متوقعاً . فهو مرتبط شكلا وموضوعاً بالمسيحية ، وهى الديانة التى كانت قد تأصلت جذورها فى الغرب بعد القضاء على الوثنية وعبادة الامبراطور. وقد ترتب على ذلك ظهور نهضة تعليمية متواضعة فى ظل الكنيسة الجديدة التى أصبحت بحكم وجودها فى روما الوريثة الشرعية للإمبراطورية القديمة بعد انهيارها ونقل الكرسى الامبراطورى من روما إلى القسطنطينية فى طرف أوروبا الأقصى عند التقاء البسفور ببحر مرمرة . فاكتسبت بحكم هذه الظروف التى أحاطت بنشأتها ونموها وبحكم الأحوال التى ألمت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، سلطة ونفوذاً كبيرين . وأصبحت هذه الكنيسة ، وعلى رأسها البابا ، قوة عظمى تسيطر على مصائر الأفراد وعقولهم ومقدراتهم وعلى حياتهم العامة والخاصة كذلك . ونتيجة لهذا المركز الكبير الذى تمتعت به فى الشئون الدينية

---

(١) أنظر وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٢) ص ١٤٥ وما بعدها . وللمزيد من المعلومات عن التعليم الدينى فى المجتمع الغربى الوسيط ، وبخاصة فى قرونه المبكرة عند ما كان النظام السائد هو النظام الاقطاعى وعند ما كان الجهل متفشيا بين غالبية أهل الغرب وبين الفلاحين الكادحين فى الأرض بصفة خاصة ، أنظر المراجع الأجنبية التالية : Coulton, G. G., Medieval Village, Manor and Monastery (New York, 1960), ch. XIX, pp. 253—278 ; Baldwin, M.W., The Mediaeval Church (New York, 1953), p.66; Brinton & others, op cit., p. 305.

والدنيوية على السواء ، أصبح لها دور واضح فى الإبقاء على العلم فى بداية العصر الوسيط ، أو حسبما قال المؤرخ كولتون غدت الكنيسة هى المحتكرة شرعا لكل ما يتعلق بشئون العلم والتعليم[1] .

وقد قامت تلك الكنيسة بإنشاء المدارس فى الأديرة لخدمة أغراضها فحسب. فكان يوجد بكل دير مكتبة وعدد من النساخ[2] ومدرسة لتعليم النشء تعليما دينيا بحتاً . وكان هذا يعنى — بكل بساطة — دخول الغرب الأوروبى فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية وارتباطه بالثقافة اللاتينية . وأخذت المدارس الديرية تنتشر فى طول البلاد وعرضها لتعليم الصغار الذين يقع عليهم الاختيار لكى يصبحوا قساوسة ويعملوا فى سلك الكهنوت بعض المعارف والعلوم الدينية[3] .

لقد اقتصر التعليم فى هذه المدارس الديرية ، إذن ، على تلقين الطلاب

---

(١) كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ٩٩ — ١٠١ ؛ أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٢٤ — ١٢٦ ؛ كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية)، ج ١ ،ص٣٦١-٣٦٢ . راجع أيضا Goff, op. cit., pp. 149,167; Coulton, Medieval Panorama, p. 385 ; Painter, op. cit., p. 466 f. ; Poole, A. L., From Domesday Book to Magna Carta (Oxford, 1964), p. 232.

(٢) كان يطلق على مكاتب النسخ فى الأديرة باللاتينية لفظة scriptoria. أنظر عن ذلك Baldwin, Mediaeval Church, p. 27 ; Cantor, op. cit., p.109 ; Painter, op. cit , p. 81.

(٣) أنظر عن ذلك Chateaubriand, Génie du Christianisme, t. II (Paris, 1922), pp. 245-246 ; Duroselle, op. cit., 31 ; Baldwin, op. cit., p. 32.

راجع أيضا كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٢٨٩ وما بعدها .

ما يؤهلهم للعمل فى السلك الكنسى فحسب . فكان عليهم دراسة اللغة اللاتينية لإجادة قراءة الكتب الدينية والقيام بالوعظ والإرشاد. كما كان عليهم تفهم أسفار الكتاب المقدس ودراسة الموسيقى والألحان الدينية اللازمة لأداء الخدمات والطقوس الشعائرية . ومع أن هذه الدراسات قد اصطبغت بالصبغة الدينية البحتة ، إلا أنها كانت تستلزم على سبيل المثال تعليم رجل الدين تعليما دنيوياً يتخذه أساساً لثقافته الدينية . فعليه أن يدرس قواعد الحساب والرياضيات والفلك والهندسة حتى يتسنى له تحديد التواريخ والأعياد وأيام القديسين وما إلى ذلك مما يتعلق بالشئون الدينية . ويجب أن نفهم أن كل هذه المواد من دينية ودنيوية كانت مجرد أداة لتفهم الدين فحسب ، وإن كانت قد ساعدت فيما بعد وبطريق غير مباشر على تطور الفكر البشرى وانطلاقه من عقاله وتحرره من القيود التى عاش أسيرها عدة قرون عندما حانت الفرصة وتهيأت الظروف لذلك.
وقد عبر عن هذا التفكير القديس أوغسطين أوف هيبو فى القرن الرابع ، وردد صدى هذا القول فى القرن الثالث عشر القديس بونافنتورا الفرنسيسكانى St. Bonaventura (١٢٢١ — ١٢٧٤ م) ، عندما أوضح أنه ليس من المستطاع فهم الكتب المقدسة بدون دراسة مختلف العلوم دراسة علمية[١] . وقد استغرق قيام هذه الدراسات وتأصلها وقتا غير قصير . وجدير بالذكر أنها كانت مستقاة من تآليف عدد من الكتاب الذين عاصروا المرحلة الأخيرة من مراحل الحضارة الرومانية عند انهيار العالم القديم وبداية العصر الوسيط ، وهم بيوثيوس

---

(١) Cf. Crump & Jacob, op. cit., p. 256 ; Coulton, G. G., Medieval Panorama, p. 391 f. ; Goff, op. cit., p. 167.
واجع أيضا كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ .

Boethius وكاسيودورس Cassiodorus ومارتيانوس Martianus وجوردانيس Jordanis ، الذين يعتبرون فى الواقع من آخر بقايا الحضارة الرومانية والتراث الكلاسيكى القديم ، والذين اعتمد عليهم الغرب وهو يطوى صفحة قديمة ويفتتح صفحة جديدة من تاريخه (١) .

ويستحق هؤلاء الرجال الأربعة كلمة سريعة . أولهم الفيلسوف أنيكيوس مانليوس بيوثيوس Anicius Manlius Boethius (٤٧٠ — ٥٢٥ م) ، وهو أحد المفكرين الذين نهجوا نهج القديس أوغسطين أوف هيبو(٣٥٣-٤٣٠م)، ويعتبر من أشهر الأدباء ليس فى إيطاليا فحسب وإنما فى الغرب المسيحى كله ، إذ اجتمعت فيه خصائص التراث الكلاسيكى والتقاليد الوثنية القديمة مع فلسفة المسيحية ومبادئها ومثلها . وهو من أسرة رومانية عريقة ، ذهب وهو صبى صغير إلى أثينا حيث درس بها الأدب والفلسفة . وفى سنة ٥١٠ م أصبح وزيراً لثيودوريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا . ثم ألصقت به زوراً بعض التهم ومنها التآمر على حياة مليكه وممارسة أعمال السحر والشعوذة ، وزج به ظلما فى السجن دون أن تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه . وقاسى شتى ألوان العذاب فى الحبس ثم أعدم آخر الأمر . وقــد عمل بيوثيوس على إرساء أسس الديانة المسيحية ووضع قواعدها مثلما فعل آباء الكنيسة الأول . كذلك عمل جاهداً على التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة ، تلك المحاولة التى تعد فى الواقع مرحلة انتقال بين الفلسفة القديمة التى كانت قد انتهت منذ أوائل القرن السادس وبين فلسفة العصور الوسطى التى تقع فيما بين القرنين التاسع والرابع عشر أو الخامس عشر . ومن الخدمات التى قدمها بيوثيوس إلى الفكر الغربى

---

(١) أنظر سعيد عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، ص ٢ — ٣ .

ترجمته لمنطق أرسطو إلى اللغة اللاتينية ، فحفظ لنا جانبا كبيراً من تراث هذا الفيلسوف اليونانى فى كتاباته . ولكن أعظم ما خلفه هو مؤلفه المعروف باسم « سلوى بيوثيوس الفلسفية » أو « عزاء الفلسفة » De Consolatione Philosophiae الذى وضعه وهو فى السجن فى بافيا والذى ترجم فيه لنفسه . وهو لهذا يشبه اعترافات القديس أوغسطين إلى حد بعيد .

ولكتاب « سلوى الفلسفة » مكانته التى لا تنكر فى ثقافة وأدب العصر الوسيط المبكر . ويرى كير فى تقييمه للكتاب أنه يعتبر من كتب المرتبة الثانية. ويقول إنه من ذلك النوع من الكتب الذى يعوزه الخلق والإبتكار والتجديد ، أو هو من ذلك النوع الذى يعتمد فيه مؤلفه على غيره من الكتاب . وإن هذا الكتاب الذى وضع بعضه شعراً وبعضه نثراً ، عبارة عن حوار بين الفلسفة التى تبدو لبيوثيوس فى صورة إمرأة إسمها فيلوسوفيا وبين المؤلف السجين فيما تثيره الحياة فى نفسه من مسائل ومشاكل وشجون كالعذاب الذى يعانيه الشخص الصالح ، ويعنى بذلك عذابه هو داخل السجن ، ثم العناية الإلهية والخير الأعظم . وقد خلص المؤلف من ذلك كله إلى أن الحياة الدنيا التى يجتازها الإنسان لا توفر له السعادة المنشودة، بل هى مبعث شقاء بالنسبة له ، وأن الله هو الخير الأعظم الأعم ، وأن السعادة يجب أن يلتمسها البشر عنده ، وأن الآلام التى يعانيها البشر هى امتحان الصالحين وعقاب للطالحين . كما تناول بيوثيوس ، إلى جانب ذلك، موضوع القدر والإرادة الحرة والجرى وراء الشهرة. ومن أقواله المأثورة التى تتميز بقيمتها وأصالتها : « "Nam in omni adversitate fortunae infelicissimum est genus infortunii fuisse felicem » ، وترجمتها: « يتجنب الحكماء شهوة الشهرة ، بالرغم من أنها آخر مراتب الضعف والعجز. »

لقد ناقش بيوثيوس مثل تلك المسائل والقضايا على منوال الأفلاطونية . ومن هنا فإن كتابه « سلوى الفلسفة » يدور ، أساساً ، حول السؤال التالى : « كيف يلتمس بيوثيوس العزاء عند الفلسفة ولا يلتمسه عند دينه ؟ » ونجد فى الكتاب محاولة لتفسير الدين بالفلسفة وإقامة الإيمان على أساس عقلى . وقد فهم مفكرو العصر الوسيط الكتاب على هذا الوجه ، ولم يثيروا أى اعتراض عليه . ويكفى لبيان أهميته أن الشاعر الايطالى دانتى اليجييرى (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) اقتبس من عباراته عندما تعرض للمقابلة التى تمت بينه وبين فرنشسكا Francesca فى ملحمته الشعرية الرائعة « الكوميديا الإلهية » . كما أخذ عنه ، مرة ثانية ، فى العبارة الختامية لفردوسه (١) . كذلك ورد ذكره فى إحدى رسائل سير لابو ماتزى Ser Lapo Mazzei ، وهو كاتب عقود فلورنسى من أواخر القرن الرابع عشر ، عندما أشار إلى كتاب « سلوى الفلسفة » على أنه كتاب يتناول فلسفة رفيعة .

لقد كان بيوثيوس يرى ضرورة التمييز بين الفلسفة والدين ، مع الاستعانة بالأولى لتوضيح الثانى . ويظهر أثر الفلسفة جلياً فى جميع مؤلفاته اللاهوتية حيث يدخل على العقيدة الكثير من المعانى الفلسفية . ومما يذكر أنه ترك عدداً غير قليل من الكتب المؤلفة والمترجمة . كذلك نقل بعض كتب أرسطو إلى اللاتينية وله شروح وتعليقات عليها ، وله أيضاً شرح على كتاب الجدل لشيشيرون . ومن تآليفه الخاصة كتاب فى القسمة وآخر فى الجدل ، فضلا عن العديد من المؤلفات فى

---

(١) أنظر اليجييرى (دانتى) : الكوميديا الإلهية — القسم الثالث (الفردوس) — ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور حسن عثمان (القاهرة ١٩٦٩) ، ص ٥٥٥ .

اللاهوت والرياضة والموسيقى (١). والخلاصة أن إنتاج هذا الفيلسوف الذى عاش فى أخريات القرن الخامس وبدايات القرن السادس ، فى المنطق والموسيقى والرياضة وغير ذلك من الفنون ، يرتبط ارتباطاً واضحاً بشئون العلم والتعليم فى المجتمع الغربى الوسيط وقتذاك ، وقد ترك أثره عليها .

وإلى جانب بيوثيوس يوجد كاتب من طراز آخر هو ماجنوس اوروليوس كاسيودورس Magnus Aurelius Cassiodorus وزير ثيودوريك . ولد حوالى سنة ٤٨٠ م وتوفى سنة ٥٧٥ م وله من العمر قرابة ٩٥ عاما . وتكشف رسائله الرسمية التى كان يبعث بها إلى من كانت تربطه بهم صلة صداقة ومودة ، عن أحوال ايطاليا من الناحيتين السياسية والحضارية فى عهد القوط الشرقيين . وقد قام كاسيودورس نفسه بنشر تلك الرسائل باللاتينية تحت اسم «متنوعات» Variae ، وكان نشره لها بعد وفاة ثيودوريك بحوالى ١٢ سنة . كذلك وضع كتاباً عن تاريخ ايطاليا فقد ولم يصلنا ؛ ولو كان قد حفظه لنا الزمن من الضياع لربما أمدنا بمعلومات قيمة عن ايطاليا فى القرن السادس . وتنحصر قيمة كاسيودورس الحقيقية فى محاولته إثبات أهمية العلوم الدنيوية وفائدتها فى وقت بدأت فيه هذه العلوم تفقد مكانتها . كذلك كان من المهتمين بالحركة الديرية التى كانت قد بدأت فى الظهور والانتشار فى الغرب وقتذاك ، فأسس ديراً فى أواخر أيامه

(١) Ker, op. cit., pp. 103—117 ; cf. also Shorter Cambridge Medieval History, vol. I (Cambridge, 1952), pp. 75, 140 ; Goff, op. cit., p. 166 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 387, 520 ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 153, 186, 272 ; Pirenne, H., Medieval Cities (Princeton, 1918), p. 7 ; Katz, op. cit., pp. 110, 135 ; Painter, op. cit., pp. 72, 449, 466 ; Bury, op. cit., II, pp. 216-220. انظر أيضا سعيد عاشور: اوربا العصور الوسطى، ج ٢، ص ٢٢٩ـ٢٣٠.

وهبه مكتبته الخاصة . وكان من المشجعين للأديرة على المحافظة على التراث الكلاسيكى القديم ، والعمل على تأليف كتب جديدة . وكان لهذا الاتجاه — بطبيعة الحال — آثاره التى لاتنكر فى مجال التأليف والمحافظة على القديم فى ذلك العصر النائى ، وبقدر ما كانت تسمح به الظروف وقتذاك (١) .

وثالث هؤلاء هو مارتيانوس كابيلا Martianus Capella ، وهو الآخر من رجال العلم . وقد ترك عدداً من المؤلفات تعتبر من نوع الكتب العامة التى احتفظت بمكانة كبيرة باعتبارها خير ممثل للثقافة الكلاسيكية القديمة فى ظل الأوضاع الجديدة التى استجدت على العالم الأوروبى وقتذاك ، حيث حافظ على التقاليد الكلاسيكية فيما يتعلق بأمور العلم والتعليم(٢) .

وفى هذا المجال يجب الإشارة إلى المؤرخ الأسقف جوردانيس القوطى الذى حفظ لنا فى مختصره مادة كتاب كاسيودورس المفقود عن تاريخ القوط . ووضع هو نفسه كتاباً عن تاريخ العالم ، ولكن مؤلفه عن القوط هو الذى

---

(١) Ker, op. cit., pp. 117-119 ; Bury, op. cit., II, pp. 220-224 ; cf. also Goff, op. cit., pp. 151, 166 ; Coulton, Medieval Panorama, p. 263 ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 152,175,202f. ; Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History (New York, 1959), p. 20 ; Pirenne, op. cit., p. 7 ; Katz, op. cit., pp. 110,135 ; Baldwin, op. cit., pp. 26-27 ; Painter, op. cit., 72 ; LaMonte, op. cit, pp. 82,86 f.

انظر أقوال كاسيودورس حول انتقال التراث الكلاسيكى القديم إلى العصر الوسيط فى كتاب كانتور Cantor, op. cit., pp. 109-112.

(٢) Ker, op. cit., pp. 25, 33, 34 ; Goff, op. cit., pp 149, 151 ; Crump & Jacob, op. cit., p. 277 ; LaMonte, op. cit., pp. 81, 84.

أكسبه تلك الشهرة التي تمتع بها . ويلاحظ أن الشخصية الرئيسية في إنتاج جوردانيس ليست بطلا قوطيا كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، ولكن اتيلا Attila ملك الهون . وقد عرض تاريخ اتيلا الذى استقاه من بريسكوس Priscus عرضا أكثر استيفاء من الشخصيات الأخرى التي تناولها . هذا ، وقد تميز أسلوب جوردانيس اللاتيني بالضعف والركاكة والخشونة في وقت تدهورت فيه اللاتينية تدهوراً واضحاً وداخلتها ألفاظ جرمانية غريبة (١) .

لقد كانت المعلومات التي كتبها هؤلاء الرجال الأربعة في الحساب والهندسة والفلك معلومات سطحية غير عميقة بعكس الدراسات المتعلقة بالنحو والبلاغة والجدل . واشتمل النحو على فقه اللغة اللاتينية وقواعدها . وبقيت الدراسات اللاتينية الكلاسيكية هي الأساس لتعلم هذه اللغة . وظل طلاب العلم في تلك العصور يطالعون مؤلفات فرجيل Virgil وأوفيد Ovid وبليني Pliny وشيشيرون Cicero وسالوست Sallust ، وغيرهم من أعلام الشعر والنثر عند الرومان القدماء — ظل طلاب العلم يطالعون مؤلفاتهم لتعلم البلاغة وقواعد النحو اللاتيني الصحيحة ، وكان للجدل والمنطق أهمية كبرى في تلك العصور ؛ إذ سمحت الكنيسة لرجالها بالتوسع في دراستهما ليتسنى لها إقناع الخارجين عليها واكتساب الناس إلى حظيرتها ، بمعنى أنها استخدمتهما لخدمة الدين الجديد

---

(١) Ker, op. cit., p. 130 ; Cramp & Jacob, op., cit., p. 151 ; LaMonte, op. cit., p. 88.

أنظر أيضا سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى، ج ٢ ، ص ٢٣٠—٢٣١ ، وفى كتاب كانتور مقتطفات من غزوات القوط الغربيين مأخوذة من كتاب تاريخ القوط لجوردانيس . أنظر Cantor, op. cit., pp. 69-78.

وأهدافه فحسب ، وإن كان ذلك قد ساعد فيما بعد — وبطريق غير مباشر — على تحرر الفكر وانطلاقه .

وإن كنا قد تحدثنا عن بيوثيوس وكاسيودورس ومارتيانوس وجوردانيس في شيء من التفصيل ، فذلك لأنهم يعتبرون من أشهر الفلاسفة والمفكرين الذين عاصروا فترة احتضار الدولة الرومانية ومدنيتها وبداية العصر الوسيط ، فامتزج في كتاباتهم التراث الكلاسيكي القديم بالمسيحية ، واختلط الدين بالدنيا ، وتشابك العالم القديم وهو عالم الإمبراطورية الرومانية وجهازه العتيق في الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر بالعالم الجديد الذى ارتكز على البرابرة وغزواتهم والمسيحية وكنيستها .

وقد أنتج ذلك حضارة جديدة لها طابعها الخاص بها ، لا هي رومانية بحتة ولا هي جرمانية خالصة — تلك الحضارة التي ميزت العصور الوسطى المبكرة التي يطلق عليها فريق من المؤرخين إسم « العصور المظلمة » تمييزاً لها من العصور الوسطى الحقيقية (١) .

لعلنا نخلص مما سبق أنه أصاب العلم واللغة اللاتينية والتراث الكلاسيكي القديم الكثير من التدهور والانحلال في الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والسادس بسبب حالة الفوضى التي ألمت بالغرب إثر غزوات البرابرة التي قضت على المدنية الرومانية وهي تكتسح في طريقها كل شيء ، والديانة المسيحية التي حلت محل الوثنية وعبادة الامبراطور . وقد اعترف الكتاب اللاتين القدامى أمثال سفيروس وجريجوري التورى بذلك . وكان البابا جريجورى الكبير نفسه

(١) أنظر عن ذلك كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ٣٥ .
راجع أيضاً Ker, op. cit., p. 1.

من ألد أعداء الثقافة الرومانية لما فيها من عناصر وثنية نبذتها المسيحية .

ونعرف عن البابا جريجورى أنه اعتزل الحياة الدنيا واعتنق مبادىء الرهبنة . وقد اشتهر بالتقشف والتقوى والتدين والبعد عن ملذات الحياة . وقام بتأسيس عدد من الأديرة . كما كان رجلا حازما ، عالما مثقفا ، يتمتع بمقدرة سياسية وإدارية هائلة . وامتاز بنشاطه الفائق فى ميدان التبشير بالدين الجديد بين أهل الغرب الأوروبى بعامة ، وبين الأنجلوسكسون فى الجزيرة البريطانية بصفة خاصة . كل هذا لم يشغله عن التعمق فى العلم والفلسفة واللاهوت ، ودراسة مؤلفات آباء الكنيسة الأول ، والكتابة فى موضوعات كان لها خطرها وقتذاك . ومن أهم كتاباته سلسلة من المواعظ الكبرى عرفت باسم « Homilies » لها شهرتها التى لا تنكر ، وغدت مصدرا أساسيا للوعاظ ورجال الدين فى العصور التالية يستمدون منها مادتهم الوعظية . وله أيضا شروح وتعليقات على أسفار الكتاب المقدس . ومن مؤلفاته كذلك كتاب فى الأخلاقيات المسمى « Moralia » الذى تضمن تعليقات على سفر أيوب من العهد القديم . وهو يمتاز بمكانته المرموقة فى الأدب الغربى الوسيط لتأكيده الطريقة القديمة الخاصة بالتفسير المجازى . ثم أنه من نوع الكتب التى تحوى زبدة وخلاصة المصادر القديمة وتحل محلها لتصبح المصدر الأساسى الذى يرجع إليه عوضا عن تلك الأصول . وكيفما كان الأمر ، تعتبر تلك التعليقات من انتاج واحد من أكبر رجال العلم فى العالم . وله ـ بالإضافة إلى ما تقدم ـ كتاب « العناية الربانية » ، « The Pastoral Care » ، وهو عبارة عن إرشادات وتوجيهات لرجال الدين ، ويفضل بكثير تعليقات جريجورى على سفر أيوب إذا قيمناه من وجهة النظر الأدبية ، وذلك بالرغم مما يحويه من الكناية والمجاز . ويكشف أسلوبه فى هذا الكتاب عن شخصيته ، ويتناول فيه أقرب الموضوعات

إلى قلبه ونفسه . ويقال إنه عندما اشتد المرض على جريجورى وأوشك على الموت، طلب أن يقرأ له فى هذا الكتاب. واعتقد الناس أن نفسه امتلأت راحة وطمأنينة، وأنه واجه لحظة الفراق بشجاعة وهدوء . أما محادثاته « The Dialogues » فهى تتمتع بشعبية أكثر من تآليفه الأخرى ، وقد ترجمت إلى اللغتين الانجلوسكسونية والفرنسية القديمة. وهى تتضمن سلسلة من القصص والأساطير عن حياة القديسين الذين يعيشون فى الصحارى والقفار ومعجزاتهم . وقد لقيت الشيوع والرواج لأنها كانت تمثل عقلية الشعب فى المجتمع الغربى الوسيط وتتذاك خير تمثيل. وخصص المؤلف كتابا كاملا منها للقديس بندكت. بينما احتوت الكتب الأخرى على معلومات مختلفة فيها من الأهمية بقدر مافيها من المتعة والطرافة والتسلية . ولا تعتبر هذه « المحادثات » نوعا من التأمل والتفكير أو العبادة ، وإنما هى أقرب ماتكون إلى التاريخ أو تسجيل للأحداث والذكريات .

ولعل الأمر الذى يعنينا أكثر من غيره هو أن البابا جريجورى الكبير قد اشتهر بعدائه الصريح للتراث الكلاسيكى وكل مايمت إليه بصلة لما فيه من أفكار لاتتمشى مع المعارف المستحدثة والفلسفة المسيحية الجديدة . فهو يكشف فى كتابه « المحادثات » عن احتقاره الشديد للأدب اللاتينى القديم ودراسته ، وذلك فى قوله المأثور :

« Despectis itaque litterarum studiis ... sanctae conversationis habitum quaesivit .» (١) ويضع الكاتب ر . ا. ساليفان R.E. Sullivan

---

(١) Ker, op. cit., pp. 132-138 ; cf. also Goff, op. cit , pp. 159, 164 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 9, 24 ff. et sqq. ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 48,50,150,152,207 f., 218 ; Painter, op. cit., pp. 84 f., 93, 449. — وعدنا نورتون داونز بمادة قيمة فيما يتعلق بنشاط البابا جريجورى فى ميدان التبشير، أنظر Downs, op. cit., p.24ff.

جريجورى الكبير فى الميزان مبينا انه اكتسب شهرة فائقة باعتباره زعيما روحيا ، إذ كان موهوبا فى العمل على تعزيز العقيدة المسيحية بأسلوب يناسب عقلية أهل الغرب خلال تلك الحقبة من الزمن . ويستطرد قائلا إن مؤلفاته العديدةوكتاباته الملهمة تعتبر جزءا أساسيا من التراث الدينى فى الغرب الأوروبى (١) .

يتضح مما سبق أن البابا جريجورى الكبير قد اشتهر بعدائه الصريح للتراث الكلاسيكى وكل مايمت له بصلة لما فيه من أفكار لاتتمشى مع المبادىء المسيحية الجديدة (٢) . وتكشف عن ذلك مؤلفاته التى كانت معروفة فى عصره والتى كان يتدارسها الجميع فى العصور الوسطى ، ولا تزال تقرأ وتدرس فى مدارس العلوم اللاهوتية الكاثوليكية إلى يومنا هذا .

هكذا بدأ نجم اللاتينية بخاصة والتراث الكلاسيكى بعامة فى الأفول فىالغرب ، حتى إذا كانت سنة ٥٢٩ م نجد أنه قد تحددت فيها معالم شخصية العصر المسيحى وسمات العلم والثقافة فيه . ففى تلك السنة أغلق الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) مدارس أثينا الفلسفية القديمة . كما أسس القديس بندكت ديره المعروف فى مونت كاسينو . ولهذا ، بطبيعة الحال ، دلالته ومغزاه ، إذ يعنى انتهاء عصر الوثنية والتحرر والانطلاق وبداية عصر الدين والإيمان ، ومايرتبط بها من مثل وقيم ومفاهيم تركت آثارها على العلم والفكر وقتذاك ولفترة طويلة لاحقة .

ولكن على الرغم من معاداة المسيحية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية لكل مايمت إلى العلم والحضارة الرومانية والتراث القديم بصلة ، فلم يعدم ذلك العلم

---

(١) Sullivan, Heirs of the Roman Empire, pp. 48-49.

(٢) Ker, op. cit, p. 132.

وهاتيك الحضارة والتراث أن يجدوا الأنصار والمؤيدين مع قلتهم وقد ساعد ذلك — إلى حد ما — على حفظ جانب من العلم والتراث القديم من جهل البرابرة وتعنت المسيحية . إذ وجد بعض المثقفين فى المجتمع الغربى ممن عز عليهم أن يندثر هذا التراث العظيم ويصبح فى خبر كان بين يوم وليلة . فعملوا جاهدين على المحافظة عليه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه منه . وكان على رأس هؤلاء كاسيودورس الذى سبق الإشارة إليه ، والذى يمثل البقايا الذابلة للعلم والفكر الرومانى القديم وسط عصر من الجمود والظلام .

وعلى أية حال ، ظل الجمود والظلام هما السمة العامة حتى أواخر القرن السابع الميلادى فى وقت كانت فيه غالبية الناس تعيش فى جهل مطبق وتغط فى نوم عميق (١) ، عندما ظهرت نهضة عظيمة فى ايرلندا كان على رأسها الكنيسة والأديرة الإيرلندية . فقد حملت ايرلندا مصباح العلم والمعرفة فى ذلك العصر المظلم الذى ألقى بظلاله الكثيفة على دول الغرب التى كانت مرتعا خصيبا للفوضى والهزات العنيفة فى كافة مناحى الحياة ، وقد ترك هذا أثره على العقل والفكر فى القرون الأولى من العصور الوسطى . وكانت النتيجة أن حفظت ايرلندا الكثير من مظاهر الأدب الكلاسيكى من العبث والضياع . وقد أدت هجرات الإيرلنديين إلى انجلترا وباقى دول الغرب إلى ذيوع تلك النهضة العلمية وانتشارها فى القارة الأوروبية . وبلغت هذه الحركة ذروتها فى أخريات القرن السابع وخلال القرن الثامن فى شخص كل من المؤرخ المعروف بيده Bede (٦٧٥ — ٧٣٥ م) والفيلسوف الكوين

---

(١) Cf. Coulton, Medieval Village, Manor and Monastery, p. 254.

Alcuin (٧٣٥—٨٠٤ م)[1].

كان أولها، وهو بيده، من تلامذة بيسكوب. وقد تثقف على يديه وقرأ تآليفه وأشعاره العلمية والدينية التى كان قد أحضرها معه من روما إلى انجلترا. وجعلته هذه الثقافة التى تشبع بها فوق مستوى معاصرية وتفكيرهم، وأصبح يمثل بحق خلاصة النتاج الفكرى لغرب أوروبا فى الفترة الواقعة بين زوال الحضارة والتراث الرومانى القديم عقب غزوات البرابرة وبين قيام النهضة الكارولنجية بإحياء الإمبراطورية الرومانية فى مستهل القرن التاسع أيام شارلمان. قضى بيده حياته فى ديرجارو Jarrow منكبا على القراءة والدراسة والتحصيل، كما امتاز بحاسة تاريخية أصيلة لم تكن معروفة فى مثل هذا العصر المبكر حيث لم يكن من السهل التمييز بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الخيالية. وله العديد من المؤلفات من أهمها، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، كتابة المسمى «التاريخ الكنسى للأمة الانجليزية» The Church History الذى فرغ منه سنة ٧٣١ م، وتناول فيه تاريخ الجزيرة البريطانية وشعبها فى العصر الانجلوسكسونى. وكانت كتاباته الأولى فى قواعد اللغة وعلم البيان، وقد نهج فى هذا نهج كل من كاسيودوروس وايزيدور. ومن مؤلفاته التاريخية التى خلفها لنا بالإضافة إلى «التاريخ الكنسى» كتاب «حياة القديس كثبرت» Life of St. Cuthbert الذى ألف جانباً منه بالشعر وجانباً بالنثر، وكذلك «حياة رهبان ديرى ويرماوث وجارو» «Lives of the Abbots of Wearmouth and Jarrow». وله أيضاً تعليقات على الكتاب المقدس، ومجموعة

---

(١) عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج ٢، ص ٢٣٣؛ كرامب وجاكوب: تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية)، ج ١، ص ٢٩٦ وما بعدها. أنظر أيضا Goff, op. cit., pp. 158, 164 f.

من العظات الدينية التى أصبحت هى والمصادر التى استقى منها مادته ، مثل مؤلفات اوغسطين وجيروم وجريجورى الكبير ، مصدراً أساسياً للعظات الدينية التى وضعت فيما بعد (١) .

والسؤال الذى يطرح نفسه فى انتظار الإجابة عنه هو : ماهى المكانة التى يحتلها بيده فى تاريخ العلم والتعليم وقتذاك ؟ تقول الكاتبة دوروثى هوايتلوك Dorothy Whitelock إن المثقفين من أمثال بيده كانوا ينظرون بإعجاب وتقدير زائدين إلى بقايا التراث الرومانى القديم . وقد أشار بيده نفسه إلى المدن والمعابد الرومانية وإلى الجسور والطرق المعبدة التى كانت لاتزال باقية حتى أيامه (٢) . ويزيد و.ب. كير W. P. Ker الأمر وضوحاً فيقول إنه من الغبن بالنسبة للقرن السابع ألا نعتبر تآليف بيده ممثلة للعلم والمعرفة فى تلك الحقبة السحيقة من الزمن . لقد بدأ دراسته بالسيطرة على الفنون الحرة ، وأخذ فى تلقى العلم منذ نعومة أظفاره ، وعمل مدرساً فى سن مبكرة . ومن بين رجال العلم المتجولين فى ذلك الزمن ، أمضى بيده حياته كلها داخل جدران ديره فى جارو ولم ير من وجه الدنيا إلا القليل (٣) . أما أسـلوبه اللاتينى فيمتاز بسلاسته

---

(١) حول بيده وكتابه ، أنظر Whitelock, D., The Beginnings of English Society (London, 1954), p. 11 ; Ker, op. cit., pp. 141-146 ; Goff, op. cit., p. 166 ; Coulton, Medieval Panorama, pp 16, 34, 40 f., 110, 157, 607, 610 ; Crump and Jacob, op. cit., pp. 63, 72, 156, 172, 207, 210 ; Painter, op. cit., pp. 87 f., 444,449; LaMonte, op. cit., p.242; Stenton, F. M., Anglo-Saxon England (Oxford, 1965), pp. 8, 10f., 18ff., 28f., 96 ff., 160, 185 ff.

(٢) Whitelock, op. cit., 16.

(٣) Ker, op. cit., pp. 141, 142.

ووضوحه ، فضلا عن أنه كان يكتب اللاتينية فى سهولة ويسر ، وهى لغة تختلف كلية عن تلك الجمل والعبارات المتداخلة فى بعضها التى لم تراع فيها إطلاقا قواعد النحو والتى استخدمها سلفه جريجورى التورى (١) .

والأمر الذى يعنينا هنا أن كتابات بيده ، وبخاصة مؤلفه « التاريخ الكنسى » تضمنت أفكاراً وآراء كانت تعتبر جديدة وقتذاك ، فيما يتعلق بضرورة تقدم الجنس البشرى عن طريق العلم والدين . وهو يعتبر أول مفكر انجليزى حر استطاع أن يخرج من ظلمات العصور الوسطى ، وأن يتحدث إلى العالم الجديد فى موضوعات شتى متنوعة وفى دقة ووضوح كبيرين . وعلى هذا فإن أعماله تمثل — فى الواقع — تقدم العلم والفكر فى عصره أصدق تمثيل .

ولم تكد تمضى أيام على وفاة بيده حتى خرج إلى العالم شاعر يكاد يبز بيده فى شهرته ، ونعنى به الكوين الذى يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكرى والثقافة فى الجزيرة البريطانية وايرلندا من ناحية وبين دول الغرب الأوروبى بعامة وغالة بصفة خاصة من ناحية أخرى . وقد عبر عن ذلك كير بقوله إن المؤلفات التى وضعها الكوين لاترقى بحال إلى شهرته كرجل من رجالات العلم (٢) .

---

(١) Ker, op. cit., p. 146.

(٢) للمزيد من المعلومات عن الكوين وسيرته وإنتاجه ، أنظر ديفز (هـ. و.ك.): شارلمان — نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٥٩) ، ص ١٤٩ وما بعدها . أنظر أيضا Ker, op. cit., pp. 151—153 ; Coulton, Medieval Panorama, p. 393; Crump and Jacob, op. cit., pp. 43, 73, 217 f. ; Pirenne, Medieval Cities, p. 18 ; Bloch, op. cit., I, p. 42; Stenton, op. cit., pp. 90, 92 f. ; Trevelyan, G. M., A Shortened History of England (Aylesbury, 1960), pp. 59, 65 ; Maurois, A., — Histoire d'Angleterre (Paris, 1937), p. 58 f.

نخلص مما تقدم أن الغرب كان يعيش خلال القرون الأولى من العصر الوسيط في جهالة مطبقة نتيجة للظروف التي مر بها في فترة التغير والانتقال من القديم إلى الوسيط ، اللهم إلا من فئة قليلة من رجال الدين تزودت بثقافة دينية واضحة ، وتركت لنا أعمالا ومؤلفات لايزال معظمها باقياً إلى اليوم. ولهذا انحصر الانتاج الفكرى فى هذه الفترة المبكرة فى أعمال الآباء المسيحيين الأول التى اصطبغت — فى معظمها — بصبغة دينية واضحة تتلاءم ومقتضيات العصر (١) . أما النهضة العلمية الإيرلندية فى أخريات القرن السابع وخلال القرن الثامن ، فقد ارتبطت بأشخاص أمثال بيده والكوين ، أكثر من ارتباطها بالعصر نفسه ، وإن كانت قد مهدت للنهضة العلمية الكارولنجية فى القرن التاسع التى هيأت بدورها الجو لنهضة القرن الثانى عشر المعروفة بالنهضة العلمية الأولى .

= وسنتحدث فى الفصل التالى عن دور الكوين كرئيس لمدرسة القصر التى أسسها الإمبراطور شارلمان فى عاصمة ملكه اكس لا شابل .

(١) يقول المؤرخ الفرنسى جاك لى جوف ان انتاج الآباء الأول من رجالات الكنيسة كان يمثل شعاعا وسط ظلام دامس فى بدايات العصر الوسيط ، بينما يعتبرهم كاتب آخر وهو ك. راند K. Rand مؤسسى العصور الوسطى . أنظر Goff, op cit., p. 165.

الفصل الثانى

النهضة العلمية فى عصر شارلمان وخلفائه

ـ أثر النهضة الكارولنجية فى إحياء العلم والتعليم فى القرن التاسع .

ـ اهتمام شارل العظيم بأمور العلم والتعليم :

ا ـ الكوين ومدرسة البلاط .

ب ـ المدارس الأخرى التى أسسها الإمبراطور الألمانى ونوع الدراسات بها .

جـ ـ استمرار المدارس الدينية فى أداء رسالتها فى عهده .

ـ استمرار النهضة العلمية فى عهد خلفاء شارلمان ، مع ازدياد الاهتمام بالتراث الرومانى القديم .

ـ الفريد السكسونى والنهضة العلمية فى عصره وأهم آثارها .

ـ النهضة الألمانية السكسونية فى القرن العاشر ، ومواصلة الاهتمام بشئون العلم والتعليم .

ـ أشهر علماء العصر :

برونو رئيس أساقفة كولونيا ، الراهب ويدوكند ، الراهبة هرتسويث.

ـ ايطاليا وليوتبراند الكريمونى فى القرن العاشر .

ـ فرنسا فى القرن العاشر :

فلودورد الريمى ، ريتشارد الريمى .

إذا كان غرب أوروبا قد عاش — بصفة عامة — فى جهالة مطبقة خلال القرون الأولى من العصر الوسيط ، باستثناء فئة قليلة من رجال الدين ، فإن الفضل يرجع إلى الامبراطور شارلمان (٧٦٨ — ٨١٤ م) فى إحياء نهضة علمية شاملة اعتبارا من أواخر القرن الثامن الميلادى سميت باسمه ونسبت إليه ، فعرفت باسم النهضة الكارولنجية نظرا للجهود الضخمة التى قام بها فى هذا السبيل (١) . ويربط الكاتب شاتوبريان Chateaubriand بين هذه النهضة وبين الحركة الجامعية فى الغرب ، فيقول إن أولى جامعات العصور الوسطى وهى جامعة باريس إنما ترجع أصولها وجذورها إلى تلك النهضة العلمية التى تنسب إلى شارلمان (٢) .

ولقد ساعد استقرار الأحوال فى غالة بصفة خاصة وفى الغرب بوجه عام ، بعد فترة طويلة من الركود والاضطراب ، على رقى الحضارة والثقافة وظهور هذه النهضة العلمية الكبيرة وإنقاذ الأدب اللاتينى من الهوة السحيقة التى تردى فيها طوال القرون السابقة . وقد تميز عصر شارلمان بميزة خاصة وهى المزج التدريجى البطىء بين التراث الرومانى القديم وبين حضارة الجرمان المتبربرين لانتاج مدنية جديدة لها طابعها الخاص لا هى رومانية خالصة ولا هى جرمانية خالصة ، ولكنها رومانية جرمانية فى ذات الوقت . وكان لشخصه ونفوذه وطموحه وآماله العريضة أكبر الأثر فى تدعيم هذه النهضة العلمية المبكرة .

---

(١) Duroselle, Histoire du Catholicisme, p.36. وللمزيد من المعلومات عن النهضة الكارولنجية وخصائصها وأبرز أعلامها ، أنظر سعيد عاشور ومحمد أنيس : النهضات الأوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٤١ وما بعدها ؛ سعيد عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، ص ٤ وما بعدها .

(٢) Chateaubriand, Génie du Christianisme, II, p. 247.

ويقول المؤرخ جون لامونت إن النهضة العلمية الكارولنجية (١) تعتبر من أهم مظاهر عصر شارلمان . فقد قامت بفضل رعايته وتشجيعه ، ولم تنحصر فى عاصمة ملكه اكس لاشابل فحسب ، وانما امتدت لتشمل كذلك باقى أجزاء دولته الواسعة المترامية الأطراف . ويستطرد قائلا إن بلاد الفرنجة وقتذاك كانت ، فيما يتعلق بأمور العلم والتعليم والثقافة العامة ، أقل بكثير فى مستواها عن ايطاليا أو بريطانيا . ولذلك قرر شارلمان النهوض بغالة ، وسعى جاهداً على أن تبز جيرانها فى القارة الأوروبية قدر الاستطاعة . لذلك وجه عناية خاصة إلى الحركة العلمية ، وعمل على إحياء الدراسات الأدبية بالرغم من أنه لم يكن عالما أو متعلما بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة . واهتم هو شخصيا بجمع الكتب القديمة التى ظلت باقية والتى لم تعد عليها عوادى الزمن من مؤلفات اللاتين القدامى فى إيطاليا وغيرها من دول الغرب . وحتى يجعل من هذه النهضة حقيقة واقعة ، استدعى إلى عاصمته كثيراً من علماء عصره من الأدباء والفلاسفة واللاهوتيين والمفكرين . ومن بين هؤلاء ثيزدولف الأسبانى Theodulphus أرق شعراء ذلك العصر ، وبطرس

(١) يقول برنتون إن الجهود التى بذلها شارلمان فى سبيل إحياء العلم والتعليم فى عصره والتى يطلق عليها اسم « النهضة الكارولنجية » لم تكن فى الحقيقة مولدا جديدا ، وإنما كانت مرحلة من مراحل التقدم البطىء المستمر فى سبيل اقامة ثقافة وسيطة متوسطة الشأن ابتداء من أسفل السلم فى القرن السابع حتى ذروة القمة فى القرن الثالث عشر ، بمعنى أنها كانت مرحلة من مراحل مجهودات طويلة شغلت الفترة الواقعة فيما بين القرنين السابع والثالث عشر . أنظر من ذلك Brinton & Others, A History of Civilization, I, p. 204. وللمزيد من المعلومات عن النهضة العلمية الكارولنجية ودور شارلمان فيها ؛ أنظر دوسن : تكوين اوربا (الترجمة العربية) ص ٢٧٤ وما بعدها ؛ Calmette, J., Le Monde Féodal (Paris, 1937), pp. 111-112. وحول نقائص النهضة الكارولنجية وعيوبها ، أنظر ديفز : شارلمان (الترجمة العربية) ، ص ١٦٥–١٦٦ .

البيزوى Peter of Pisa المتخصص فى النحو وقواعد اللغة اللاتينية ، والمؤرخ بولس الشماس Paul the deacon الذى وجد أن صرامة الشمال الأوروبى أكثر من أن يتحملها فذهب ليستقر فى مونت كاسينو . ومن جلبهم أيضا باولينوس أوف اكويليا Paulinus of Aquileia ، وهو يعتبر ثمرة لنتاج الحضارة الايطالية اللمباردية (١) .

استدعى شارلمان هؤلاء وغيرهم من العلماء من مختلف أنحاء القارة الأوروبية ، وبخاصة من انجلترا وإيطاليا وأسبانيا ، للاشتغال بأمور العلم والتعليم فى مدرسة البلاط المشهورة التى أسسها بمدينة اكس لاشابل لتعليم أبنائه وأبناء كبار رجال حاشيته (٢) . وعهد بإدارة هذه المدرسة إلى الكوين الذى بعث فى طلبه من

(١) حول هذه الشخصيات ، أنظر Ker, The Dark Ages, pp. 122, 124, 153 ff., 163-171, 213 ; Kitchin, A History of France, I, p. 122 ; Painter, A History of The Middle Ages, p. 81 ; LaMonte, The World of the Middle Ages, p. 243 ; Calmette, Le Monde Féodal, p. 112. أنظر أيضا ديفز : شارلمان (الترجمة العربية) ص ١٤٧—١٤٨ .

(٢) يتناول كير فى مؤلفه « العصور المظلمة » الكوين وانتاجه بالدراسة والتحليل . يقول إن مؤلفاته التى وضعها لا ترقى بحال إلى مرتبة شهرته كعلم ، وإنه لم يكن يتمتع بالفكر القوى المستقل الذى كان يتمتع به بيده من قبله . كما أنه لم يتناول أى موضوع عن رغبة صادقة أو إشباعا لفضوله العلمى . ويستمر كير فى نقده قائلا إن جميع أفكاره وآرائه تكاد أن تكون سطحية غير متعمقة ، وإنه فى أشعاره متأثر إلى حد بعيد بالشاعر فورتوناتوس . وقد عالج فى أشعاره النواحى التاريخية ، نذكر من بينها « تاريخ حياة القديس ويليبرود » Life of St. Willibrod ، و « تاريخ يورك » History of York ويختتم كير تقييمه قائلا إن الكوين يشبه الشاعر فورتوناتوس فى أن قصائده التاريخية تقل فى قيمتها وأهميتها عن رسائله وحكمه التى ضمنها فى مقاطع شعرية موجزة ، وهى تلقى ضوءا على تاريخ حياة الشاعر =

يورك بانجلترا ، والذى كان يمثل — بحق — الثقافة التى كانت تشع من أديرة نورثمبريا التى احتفظت بمستوى ثقافى يفوق بكثير المستوى الذى بلغه الشمال الأوروبى وقتذاك [١]. ولقد خدمت هذه الفئة المختارة التى جلبها شارل العظيم من دول الغرب ، إلى جانب مهامها التعليمية ، باعتبارها سفراء ملكيين من قبل الإمبراطور الألمانى . فعين ثيودولف ، مثلا ، أسقفا على أورليانز وكان موضع ثقته وتقديره [٢] . وكان الكوين بمثابة كاتب الإنشاء لشارلمان ، فقد دون له العديد من المكاتبات الموجهة إلى المسئولين فى أوروبا من أمثال البابا ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦ م) والإمبراطور البيزنطى ميخائيل الأول (٨١١—٨١٣م)، والتى حفظها لنا الزمن من الضياع [٣] .

وبالرغم من أن شارلمان كان متقدما فى السن وقتذاك ، وبالرغم من كثرة أعماله ومشاغله وحروبه التى كانت تلتهم معظم وقته ، وبالرغم من أنه لم يكن عالما أو متعلما بالمعنى المفهوم — بالرغم من كل هذا فقد كان رجلا مستنيرا ، ولم يجد

= نفسه وعصره . وتعتبر قصيدته عن الشتاء والربيع من أبرز القصائد التى وضعها . أنظر Ker, op. cit., pp. 151-152.

(١) Seignobos, Ch., Histoire Sincere de la Nation Française (Paris, 1933), p. 82 f.

(٢) LaMonte, op. cit., pp.160, 242 f. ; cf. also Cantor, The Medieval World, p. 133 ff. ; Chateaubriand, op. cit., p. 247 ; Duroselle, op. cit., p.41 ; Coulton, Medieval Panorama, p. 393 ; Kitchin, op. cit., I, p. 122 f.

(٣) أنظر نماذج من خطابات الكوين فى كتاب كانتور Cantor, op. cit., P. 145 ff.

غضاضة فى أن يجلس إلى جانب صبيان القصر الإمبراطورى فى هذا المعهد الأول من نوعه فى تاريخ المجتمع الغربى الوسيط ليستزيد من نور العلم والمعرفة . وكان يناقش الأساتذة ويناقشونه مناقشة علمية ، كما كان يتلقى العلم على أيديهم مع أبنائه وأبناء حاشيته . وقد أمر شارلمان بانتقال هذه المدرسة معه أينما ذهب وحيثما حل، حتى وهو فى حملاته الحربية ، فكانت بمثابة مركز علمى متنقل من نوع فريد[1] .

لقد كانت هذه المدرسة هى المدرسة التى تدرب فيها أقدر أساتذة الجيل التالى لجيل شارلمان . وكان الامبراطور الألمانى يسهم — كما رأينا — بنصيب فيها عندما كانت الظروف تسمح له بذلك ، فيدعو الجميع إلى المثابرة على الدرس والتحصيل ، ويحث الكسالى على العمل والمذاكرة . وكان فى بعض الأحيان يشارك فى حوار روحى مع رئيس المدرسة . ومما يؤسف له أنه ليست لدينا معلومات مؤكدة تتعلق بالنظام الذى كان متبعا فيها . وهى — على أية حال — لم تكن من خلق شارلمان تماما ، إذ وجدت منذ أيام شارل مارتل . ولكنها كانت وقتها محددة الأهداف والغايات ، كما كان الالتحاق بها أيضا محدودا ، وكان غرضها الأساسى هو تدريب الأمراء الملكيين وأبناء النبلاء والأشراف على أعمال الفروسية فحسب . أما أهداف شارلمان فقد كانت أبعد من ذلك بكثير ، إذ حرص على أن يسود التمرين والتدريب الذهنى فوق أى شىء آخر . ومن هنا أخذت هذا الطابع العلمى الذى اشتهرت به فى عهده . وقد اتخذ قراراً بعدم تحديد الانتساب إليها بدائرة البلاط فقط . وكانت أعمار التلاميذ متفاوتة ، فمنهم الصبية

---

(١) كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج١، ص٤٠١؛ دوسن : تكوين أوربا (الترجمة العربية) ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨ ؛ هبنز : شارلمان (الترجمة العربية) ، ص ١٥١ و ١٥٤ — ١٥٥ .

الصغار ومنهم أيضا البالغون . ويبدو أن الكوين وغيره من الأساتذة ، الدائمين منهم والمؤقتين ، مثل بطرس البيزوى ، لم يستطيعوا تحمل نظام المدرسة الصارم الذى كان مفروضا على الدارسين . أما بالنسبة للطرق التعليمية ، فإن الطريقة المثلى التى اتبعت هى تلك التى ضمنها الكوين فى كتاباته . فكانت كلها على شكل حوار ، فيما عدا مقالته التى كتبها فى موضوع « النطق السليم » . وأما المعلومات التى يزودها بها فهى معلومات أولية مأخوذة من مؤلفات عدد من الكتاب فى عصور سابقة من أمثال دوناتيوس Donatius وايزيدور Isidore وفوكاس Phocas . وقد كتب هؤلاء بأسلوب صحيح خال من الأخطاء اللغوية . وكانت الدراسات التى تدور حول الفضائل والرذائل مقتبسة عن ايزيدور وجريجورى وكاسيان.(١)

لم تقتصر النهضة العلمية الكارولنجية على مدرسة البلاط وعلى فئة قليلة مختارة من المدرسين والدارسين بها ، بل وجه شارلمان عناية خاصة إلى التعليم والمدارس والمكتبات بصفة عامة ، وعمل جاهدا على إحياء الدراسات الدينية والأدبية والفلسفية والتاريخية فى كل مكان فى دولته . لذلك نراه يعمم المدارس فى الأديرة والكاتدرائيات والأسقفيات ،(٢) وفيها تعلم الأحداث مبادىء الحساب وقراءة اللاتينية وكتابتها ، فضلا عن الموسيقى والتراتيم الدينية . وإلى جانبها وجدت

---

(١) Laistner, M.L.W., Thought and Letters in Western Europe (London, 1957), p. 207 ; Ker, op. cit., p. 138 f. ; Painter, op. cit., 81.

أنظر أيضا ديفز : شارلمان (الترجمة العربية) ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

(٢) Duroselle, op. cit., p. 41; Kitchin, op. cit., I, p. 149 ; Painter, op. cit., pp. 81, 467 ; Calmette, Le Monde Féodal, p. 112.

مدارس عليا أتم فيها الراغبون من رجال التعليم تعليمهم. وكان شارلمان يستهدف من وراء ذلك رفع المستوى العلمى لرجال الدين من ناحية ، وتوفير طبقة من المثقفين لإدارة شئون البلاد بعد أن اتسعت رقعة دولته من ناحية أخرى . ونلمس اهتمام شارلمان الزائد بالأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية من الناحية العلمية ، وعمله على رفع المستوى الثقافى للرهبان الذين أخذوا يهملون أصول العلم والتعليم. نلمس ذلك كله من الخطابات التى بعث بها إلى عدد من رؤساء الأديرة والوعاظ وغيرهم من رجال الدين يستحثهم فيها على التزود بالثقافة الأدبية ومواصلة العلم والتعليم إلى جانب الاهتمام بالشئون الدينية والأمور الروحية . وقد نص فى هذه الخطابات على الاعتناء بالنطق السليم والكتابة الصحيحة الخالية من الأخطاء . كذلك دعا إلى تدريس الفنون الحرة بجميع الكنائس ، والعمل على تنقية الكتب المقدسة من الشوائب العالقة بها . وطالب بالإكثار من إنشاء المدارس التابعة للمؤسسات الدينية ، وأن تفتح تلك المدارس أبوابها لكل راغب فى تلقى العلم بدون استثناء ، لافرق فى ذلك بين غنى وفقير أو عبد ونبيل (١) .

كذلك أصدر شارلمان عدة قوانين كنسية تقضى بضرورة وجود مدرس أجرومية فى كل كاتدرائية ووجود أستاذ فى علم اللاهوت فى كل كاتدرائية أسقفية ، بهدف تعليم الشباب فى مختلف أرجاء دولته . ولا يعزى عدم تقدم تلك المدارس تقدما ملموسا إلى أخطاء وقع فيها هذا المشرع الكارولنجى العظيم الذى لم يعرف قط كيف يكتب إسمه وإن كان قد أولى العلم والتعليم عناية واهتماما زائدين ، وإنما

(١) Cantor, op. cit., p. 183 ff. أنظر سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٢٧-١٢٨ ؛ أنظر أيضا الملحقين الأول والثانى بآخر القسم الأول من هذا المجلد .

يعزى إلى أسباب أخرى عديدة متفاوته التأثير (١) .

وتبدو ثمار أعمال شارلمان ونتاج هذا الجيل من العلماء الذين استدعاهم الإمبراطور الألمانى من انجلترا والغرب فى الجيل التالى لعصره . فهى تبدو فى شخص رجل مثل اينهارد Einhard مؤرخ حياة شارلمان ، وفى شخص كل من سماراجدوس Smaragdus ، وهرابانوس ماوروس Hrabanus Maurus مقدم دير فولدا ،وغيرهم من العلماء والمعلمين الذين نقلوا النهضة العلمية الكارولنجية إلى بلادهم فى الغرب . (٢) وأصبحت غالة فى جيل أحفاد شارلمان وأحفاد أحفاده هى مركز النشاط العلمى والثقافى فى الغرب الأوروبى . فقد كان قادة الغرب فى الناحية العلمية هم جون سكوتوس اريوجينا John Scotus Eriugena، ولوبوس أوف فريير Lupus of Ferrieres ،وأجوبارد الليونى Agobard of Lyons (ت ٨٤٠ م) ، وسدوليوس سكوتوس Sedulius Scottus ، وهنكمار الريمى Hincmar of Rheims . (٣)

---

(١) LaMonte, op. cit., p. 160.

(٢) Ker, op. cit., pp. 139, 160, 171-174, 217, 243 ; Crump & Jacob, Legacy of the Middle Ages, p. 474 ; Painter, op. cit., pp 76, 80, 444 ; LaMonte, op. cit., p. 244 ; Calmette, Le Monde Féodal, p. 112. — أنظر أيضا دوسن : تكوين أوربا (الترجمة العربية) ، ص ٢٨١ ؛ ديفز : شارلمان (الترجمة العربية) ، ص ١٥٨ ، هذا ، ويوجد مقتطفات من كتاب اينهارد عن حياة شارلمان فى مؤلف كانتورعن العصور الوسطى Cantor, op. cit., pp. 134-145.

(٣) LaMonte, op. cit., pp. 160, 243, f., 733 ; Ker, op. cit., pp. 160-162, 216 ; Duroselle, op. cit., p. 42 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 106, 107 ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 133, 229 ff., 281, 476, 511 ; Kitchin, op, cit., I, 166 ff. ; =

وجدير بالذكر أنه على الرغم مما نعرفه عن النهضة العلمية فى عصر شارلمان وخلفائه ، فإنه تنقصنا المعلومات الدقيقة التفصيلية عن كيفية الممارسة العلمية وقتذاك (١) . وكيفما كان الأمر ، فقد كان للمدارس الكارولنجية أثرها الواضح فى تطور الحياة الفكرية فى الغرب الأوروبى ، وفى إحياء اللغة اللاتينية فى الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط بعد قرون طويلة توقفت فيها الحياة الفكرية عن الحركة بعد أن أصابها شلل وقتى نتيجة ظروف معينة .

ومما يذكر أنه بينما أرسل شارلمان إلى انجلترا فى طلب السكوين لنشر العلم فى غالة فى أوائل القرن التاسع ، أرسل ألفريد ملك وسيكس الأنجلو سكسونى (٨٧١ — ٨٩٩ م) من مقاطعة وسيكس الإنجليزية فى نهاية ذلك القرن فى طلب

Calmette, J., Le Moyen Age (Paris, 1948), pp. 102, 113 ; =
Idem, Le Monde Féodal, p. 112.

آنظر أيضا دوسن : تكوين أوربا (الترجمة العربية) ، ص ٢٧٦ و ٢٨٢ و ٣٢٣ و ٣٢٥ وما بعدها ؛ بدوى : فلسفة العصور الوسطى ص ٤٦ — ٦٠ .

هذا ، ويرى ديروزيل (نفس المرجع والصفحة) أن القرن التاسع ، وليس شارلمان، هو الذى يتميز بازدهاره فى الناحيتين الفكرية والعلمية . بمعنى أنه لا ينسب هذه النهضة إلى شارلمان نفسه، وإنما إلى عصر شارلمان . وأما المؤرخ جاك لى جوف فيعتبر النهضة الكارولنجية مرحلة من مراحل التكوين العلمى فى المجتمع الغربى الوسيط . ويزيد الأمر وضوحا فيقول إنها فى الواقع مجموعة من النهضات الصغيرة السابقة لعصر شارلمان، وقد أخذت شكل نهضة شاملة فى عهده وفى عهود خلفائه من بعده . أنظر .Goff, op. cit., p. 166 ff . ويحدد هنرى بيرين طابع هذه النهضة وماهيتها قائلا إن الإمبراطورية الكارولنجية تتميز بشخصيتها الزراعية واقتصادها الطبيعى وحضارتها الريفية فى وقت كان النظام الاقتصادى السائد فى الغرب هو النظام الاقطاعى . أنظر .Pirenne, Medieval Cities, p. 28

(١) Laistner, op. cit., p. 207.

العلماء والأدباء والمفكرين من ألمانيا وفرنسا ليستعين بهم على تثقيف نفسه وشعبه فى الجزيرة البريطانية . وكان من بين هؤلاء الأسقف آسر الغالى Asser the Welshman (ت حوالى ٩٠٨ م) الذى عاش فى القصر الملكى . وهكذا نجح الفريد فى تكوين طبقة من المثقفين عملت على نشر العلم والمعرفة فى أنحاء الجزيرة البريطانية . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن النهضة العلمية التى شهدتها غالة فى أوائل القرن التاسع قد قامت أساسا على أكتاف عدد من العلماء الإنجليز ، فى حين أن النهضة الثقافية التى تم إحياؤها فى انجلترا فى أخريات ذلك القرن قامت بدورها بفضل عدد من الأساتذة الغاليين (١) .

هكذا ارتبطت النهضة العلمية الكارولنجية فى بواكير القرن التاسع بشخص شارل العظيم نفسه ، بينما ارتبطت نهضة أخريات ذلك القرن بشخص الفريد السكسونى ولا نغالى إذا قلنا إنه لو لم يظهر كل من شارلمان والفريد فى ذلك الوقت المبكر لكان من الجائز ألا تقوم تلك النهضة المتصلة بإحياء العلم والتعليم بعد عصور طويلة من الجهل والفوضى والظلام (٢) .

ويعلق الكاتبان البرت ماليه Albert Malet وجيل ايزاك Jules Isaac على النهضة الكارولنجية قائلين إنه كانت تعوزها صفات الجمال والحرية والجرأة التى اتسمت بها الحركة الإنسانية فى عصر النهضة الأوروبية المعروفة ، إذ كانت

---

(١) LaMonte, op. cit., loc. cit. ; Kër, op. cit., pp. 177 f., 308 ff. ; Browne, R.A., British Latin Selections (Oxford, 1954), p. 25 f. — أنظر أيضا راوس (ا. ل) : التاريخ الانجليزى — نقله إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٤٦ م) ص ٣٠ .

(٢) Cantor, op. cit., p. 134. — أنظر أيضا ، ما سبق ، ص ٦٠ ج ١ من هذا الكتاب .

نهضة شارلمان العلمية بمجرد حركة للإحياء أكثر منها تجديدا وخلقا وإبداعا وابتكارا، وكان هدفها المحافظة على التراث اللاتينى القديم الذى كان قد عفا عليه الزمن . ويستطرد الكاتبان فى توضيح وجهة نظرهما قائلين إنه من وجهة نظر شارلمان وعقليته المتدينة لاينبغى أن يعدو العلم خدمة الدين والعمل على تحقيق أهدافه . ولذلك فهو لم يطلب من العلماء الذين اجتذبهم إلى بلاطه من الغرب أن يكتشفوا حقائق جديدة تستهدف تنوير العقل الإنسانى ، وانما كانت رسالة أهل العلم - فى نظره - تنحصر فى نسخ الكتب المقدسة نسخا واضحا ، وفى أن تكون الكتابة سهلة القراءة والفهم ليتسنى دراستها والتأمل فيها . ولا جناح إذا اقتضى الأمر توضيح بعض نصوصها بشروح وتفسيرات من عندهم لتقريبها إلى أذهان التلاميذ. وعلى هذا فمن الواضح أن الابتكار والخلق ليسا من سمات ذلك العصر ، لاسيما إذا عرفنا أنه لم تكن توجد وقتذاك فكرة واضحة عن العلم بالمعنى الحديث . ومن الواضح أيضا أن ذلك العصر لم يكن بحكم الضرورة والظروف فى حاجة إلى الابتكار والمبتكرين ، بل كان بحاجة إلى الرجال القادرين على استعادة مافقد من علم وتراث قديمين والعمل على استيعابها وإحيائها وصيانتها أملا فى بناء مجتمع مستنير وسط ظلام شامل . ويختتم ماليه وايزاك تقييمهما لنهضة شارلمان العلمية قائلين إنه لولا مصابيح العلم والأدب التى أضاءت عددا من بلدان الغرب بقبس من نور وقتذاك ، لما استطاع شارلمان أن يحقق شيئا يذكر من ذلك الهدف الذى كان يسعى جاهدا إلى تحقيقه . (١)

وفى هذا شىء من الحقيقة . ومع ذلك يجب ألا ننحى باللائمة على شارلمان

---

(١) Malet, A. & Isaac, J., Le Moyen - Age (Paris, 1926), p. 152 ff.

لأن نهضته لم تؤت ثمارها فى حينها بالخلق والإبداع . وليس لنا أن ننتظر من شارلمان وعصره أو حتى من خلفائه خلقا وإبداعا . فقد كان الغرب يستعد لينفض عن كاهله غبار قرون طويلة مضت بالعودة إلى القديم لاستيعابه والإفادة منه حتى يكون أساسا متينا لانطلاقة فكرية مبدعة ، هى التى شهدها فيما بعد . وعلى هذا فقد كانت تلك النهضة المبكرة لبنة من اللبنات الأولى التى هيأت الجو للانطلاقة الفكرية فى الغرب فى القرن الثانى عشر . وكان من الطبيعى أن تقوم النهضة الكارولنجية على الاستيعاب والنقل والتقليد والمحاكاة لتعقبهما مرحلة التجديد والابتكار .

هذا ، وعند التعرض للنهضة العلمية الكارولنجية ، نجد أن التاريخ قد احتل فيها مكانة مرموقة . إذ انتعشت حركة التدوين التاريخى وتقدم فن الكتابة التاريخية. فكتب بولس اللمباردى [1] Peter Lombard « تاريخ اللمبارديين » ، كما وضع اينهارد باللاتينية مؤلفه عن تاريخ حياة شارلمان Vita Karoli ، وهو يعتبر المصدر الأدبى الأساسى فى هذا الصدد . والعيب الوحيد فيه أن مؤلفه تقيد بمنهج المؤرخ الرومانى سوتونيوس [2] Suetonius (٦٩ — ١٤١ م). ووضع كاتب آخر يسمى أدلهارد [3] Adelhard مؤلفاً باللاتينية عنوانه « النظام فى البلاط

(١) Coulton, Medieval Panorama, pp. 414, 421, 431, 633, 683, 7 0 ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 57, 279, 345 ; Painter, op. cit., pp. 138, 263 f., 302 f., 474.

(٢) Coulton, Medieval Panorama, p. 438 n. ; Crump & Jacob, op. cit., p. 201 ; LaMonte, op. cit , pp. 5, 243, 558.

(٣) Kitchin, op. cit., I, p. 164. راجع أيضا درسن : تكوين أوربا (الترجمة العربية) ، ص ٣٢٥ .

الإمبراطورى » De ordine palati فقد ولم يصلنا . ولكن من حسن الحظ أن أحد رؤساء أساقفة ريمز فى القرن التاسع، ويدعى هنكمار الريمى احتفظ بالمادة الأساسية للكتاب المفقود فى رسالة لاتزال باقية إلى اليوم . ولم تهمل أيضا سير القديسين والآباء الأول فى ذلك العصر . فضلا عن الكتب التاريخية التى تناولت أخبار الحروب ، مثل الكتاب الذى وضعه نيثارد [1] Nithard فى القرن التاسع تحت اسم « تاريخ الحروب الأهلية » .

وظهر فى ذلك الحين نوع جديد من التدوين التاريخى ، ونعنى به نظام الحوليات Annals الذى ظل قائما حتى نهاية العصر الوسيط . ولم تكن تلك الحوليات تتضمن مجرد وقائع وأحداث فحسب ، وإنما تضمنت سردا لأهم أحداث السنوات المتعاقبة ، كل سنة على حدة . ونعرف أن هذا النوع من الكتابة التاريخية ظهر لأول مرة فى نورثمبرلاند Northumburland بانجلترا عندما كانت الأديرة تقوم بتدوين الحوادث أولا بأول . ويحتمل أن يكون الكوين هو الذى نقل تلك الطريقة فى التدوين التاريخى إلى غالة ، وإن كانت ليس هناك أدلة ثابتة تقطع بذلك . وعندما أدرك شارلمان أهميتها ، أمر الأديرة التى تدخل فى نطاق إمبراطوريته باتباعها عند تسجيل الأحداث . وكان لهذه الحوليات الديرية شأنها فى تدوين كثير من الأحداث والوقائع التاريخية الهامة ، التى كان من الجائز ألا تصلنا لولا

---

(١) حول نيثارد، أنظر كتاب كير .Ker, op. cit., pp. 174, 348 ويقول لامونت ان النهضة السكارولنجية تركت أثرها الهام على كتابة التاريخ . فبالاضافة الى تواريخ بولس الشماس وإينهارد ، أنتجت مدرسة القصر فى اكس لاشابل المؤرخ نيثارد ، وهو حفيد غير شرعى للامبراطور شارلمان ، وهو أيضا الذى دون تاريخ عصر لويس التقى والحروب الأهلية التى نشبت بين أبنائه . أنظر عن ذلك كتاب جون لامونت :
LaMonte, op. cit., p. 243.

محافظة تلك الأديرة عليها . وإلى جانب تلك الحوليات الديرية ، وجد نوع آخر هو الحوليات الملكية التى تناولت تاريخ الكارولنجيين ،وكانت تدون تحت إشراف رجال البلاط (١) .

وهكذا امتد تأثير النهضة الكارولنجية الجديدة إلى شتى نواحى العلم والمعرفة ، ليشمل أيضا حركة تحسين الخطوط . إذ أن الخط اللاتينى الذى كان قد أصابه الفساد الذى أصاب اللغة نفسها عقب غزوات البرابرة ، قد تطور فى هذا العصر تطورا واضحا . وإن ماوصلت إليه الحضارة الكارولنجية فى العلوم والآداب يعتبر فى الواقع خطوة أولى إلى الأمام وفى سبيل التقدم بعد قرون طويلة من الظلام والفوضى والخمول منذ سقوط الدولة الرومانية القديمة وانهيار الحضارة الرومانية واندثار التراث الكلاسيكى .

هذا عن فن التدوين التاريخى وحركة تحسين الخطوط فى العصر الكارولنجى . وإذا انتقلنا إلى الشعر نجد أنه قد فاق النثر كما لا كيفا . ذلك أن الاتجاه السائد كان يميل إلى استخدام الشعر فى مختلف شئون الحياة . ولذلك كان معظم الأدباء والمعلمين أمثال بولس الشماس والكوين وثيودولف ممن يقرضون الشعر . ومن مآثر ذلك العصر أنه خلف عددا كبيرا من القطع الشعرية من أغانى المآثر (٢)

---

(١) حول فن التدوين التاريخى فى ذلك العصر من حيث كتابة سير القديسين والقادة والحكام ، إلى جانب الحوليات الديرية والملكية ، أنظر : Painter, op. cit., p. 448 راجع أيضا سعيد عاشور: اوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٣٤–٢٣٥ . LaMonte, op. cit., p. 243 f.

(٢) Crump & Jacob, op. cit., p. 151 ; Baldwin, Medieval Church, p. 71 ; Bloch, Feudal Society, I, pp. 105, 106 ; Calmette, J., Le Moyen Age, p. 631. أنظر أيضا سعيد عاشور: نفس المراجع والجزء ، ص ٢٣٥ .

المعروفة باسم Chansons de Geste ، وهى قصائد تتناول سير البطولة ، وقد كتبت من عشرة مقاطع ، وكان الشعراء وطلاب العلم المتجولين الذين عرفوا باسم « تروفير » Trouveres أو « جونجلير » Jongleurs ، ينشدونها داخل القلاع وفى الأماكن العامة . وتنقسم هذه الأغانى إلى ثلاث مجموعات من القطع الشعرية تدور حول الشخصيات التاريخية . والمجموعة الأولى تتناول أعمال شارلمان وأهم الأحداث التى تمت فى عصره ، ومن أهمها أغنية « حج شارلمان » Pelerinage de Charlemagne وأنشودة رولان Chanson de Roland[1]. والمجموعة الثانية تتناول عصر جويوم دورانج Guillaume d'Orange ، أما المجموعة الثالثة والأخيرة فتدور حول عصر رينوه دى منتوبان Renaud de Montauban .

وإن امتازت هذه الملاحم بشىء ، فإنما تمتاز بأهميتها الفائقة لكل من المؤرخ والأديب واللغوى . فقد انعكست فيها صورة حية للمجتمع الغربى الإقطاعى ، كما أنها تلقى الأضواء على فارس العصور الوسطى ووسائل اللهو والتسلية التى كان يقضى فيها أوقات فراغه ، وكذلك الحياة الدينية والفكرية وقتذاك ، فضلا عن النواحى الإدارية والعسكرية . وكان شارلمان هو الشخصية الرئيسية التى اتخذتها تلك الملاحم موضوعا لها . لقد احتل مكانة بارزة فى أغانى المآثر التى كتبت

(١) للمزيد من التفاصيل عن كل من الأغنية والأنشودة ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية — مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية — العدد ١٦ (السنة ٦٢/١٩٦٣) — الاسكندرية ١٩٦٣ ، ص ١٨٥—١٨٨ والحواشى؛ جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى — ط. ثانية — الاسكندرية ١٩٦٧ — ص ٥١ و ٥٢ والحواشى . أنظر أيضا ديفز : شارلمان (الترجمة العربية) ، ص ٢٨٧ وما بعدها .

باللغة الوطنية بدلا من لاتينية العصور الوسطى ، وقد ذاعت ذيوعا كبيرا فيما بعد فى عصر التوسع الصليبى ضد العالم العربى لما كانت تحض عليه من الاستبسال فى القتال حتى الموت . وتعتبر أنشودة رولان — بلا شك — من أهم الملاحم الشعرية التى عرفها العصر الوسيط ، وتدور حوادثها الأصلية فى عصر شارلمان نفسه . إذ تغنى مؤلفها المجهول الاسم ببطولة شارلمان ورجاله وعلى رأسهم رولان فى حروبهم ضد العرب فى اسبانيا فى كثير من المبالغة والتهويل . ولكنها تحولت زمن الحروب الصليبية إلى أسطورة شعبية لعب فيها الخيال دورا كبيرا ، بحيث أصبح هدفها إثارة روح الحرب والقتال لدى أهل الغرب اللاتينى وإيقاظ النعرة الدينية بينهم للاشتراك فى تلك الحروب التى تعرض لها العالم العربى . وما يقال عن أنشودة رولان يقال أيضا عن قصيدة حج شارلمان إلى الأراضى المقدسة وغيرها من الأغانى والأناشيد التى كان هدفها حث الناس فى الغرب على الاشتراك فى الحروب الصليبية أو تشجيعهم على زيارة الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين وروما . ويبدو أن جانبا كبيرا من هذا التراث كتبه رجال الدين أنفسهم ، واستغلته الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية كنوع من أنواع الدعاية الدينية فى ذلك الزمن السحيق الذى كانت فيه العقيدة تسبق العقل والايمان يتقدم على الفكر ، والذى كان فيه لكنيسة روما سطوتها وهيبتها وقد سيتها . وقد اتخذت هذه الأشعار شكل ملاحم غنائية الأمر الذى ساعد على سرعة انتشارها وشيوعها بين الناس(١) .

---

(١) تعتبر طبعة جوزيف بدييه من أنفضل طبعات أنشودة رولان ، فهى تتضمن الأصل الفرنسى القديم عن نسخة أكسفورد الخطية وإبائه الترجمة الفرنسية الحديثة مع التقديم لها . أنظر Bédier, J., La Chanson de Roland (Paris, 1937), pp. I—XIV ; cf. also Vodoz, J., Roland (Paris, 1920), pp. 9—61 ; Pernot, M., La Chanson de Roland (Paris, 1950), pp. 3— ٤٥

وإن نظرة فاحصة على الشعر الكارولنجى تبين أنه كان يغلب عليه الطابع الدينى لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة ، فضلا عن أن معظم شعراء ذلك العصر استوحوا قصائدهم من شعراء المسيحية الأسبقين أمثال برودنتيوس وفورتوناتوس .

وعلى أية حال ، فمن أبرز شعراء العصر الكارولنجى شاعران هما الراهب والافريد سترابو Walafrid Strabo (٨٠٩— ٨٤٩ م) الذى عاش فى النصف الأول من القرن التاسع ، والراهب الايرلندى سيدوليوس سكوتوس Sedulius Scottus (٨٤٨— ٨٧٤ م) .

كان والافريد راهبا فى دير ريخناو Reichenau ،وقد واصل منهاج الكوين العلمى ، كما تشبه به فى قصائده التاريخية وغيرها . وله كذلك أشعار تدور حول الحكمة ، وقصائد غنائية ورسائل دينية . وتعتبر قصيدته المساة « هورتولوس » Hortulus ، أفضل إنتاجه على الاطلاق ، وهى تتألف من سلسلة من المقاطع الشعرية السداسية الوزن يصف فيها نباتات حديقة ديره .(١)

أما سيدوليوس سكوتوس فهو الشاعر اللاتينى الرئيسى فى أواسط القرن التاسع . وهو عالم ايرلندى متجول استقر به المطاف آخر الأمر بمدينة لييج

---

13 ; Paris G., Mediaeval French Literature (London, 1903), pp.= 32, 38 ff. ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 63, 183, 193 ; Calmette, op. cit., pp. 92, 163 ; Cordier, A., La Chanson de Roland (Paris, 1935), pp. 5—16 ; Perier, A., La Chanson de Roland (Paris, N. D.), pp. 2—9.

(١) Ker, op. cit., p. 159 f.; Crump & Jacob, op. cit., p. 42.
أنظر أيضا دوسن : تكوين أوربا (الترجمة العربية) ، ص ٢٨١ .

بفرنسا وقد ألف مجموعة من الأغانى امتازت بدقة نظمها . ولم ينس موطنه الأصلى وانتصارات الايرلنديين على الشماليين التى قام بتسجيلها فى عدد من قصائده . ولعل أهم ماقام به هو صياغة بعض الأجزاء من الكتاب المقدس فى قالب شعرى[١] .

وعلى الرغم من وفرة الشعر الكارولنجى فى النواحى الدينية والدنيوية على السواء ، فإن أهم ما يؤخذ عليه أنه لم يتعرض للحياة العامة وحياة الشعب وآلامه وعقائده . ويرجع السبب فى ذلك إلى الأساس الاقتصادى والشكل الاجتماعى والسياسى للغرب الأوروبى وقتذاك . فقد كان الإقطاع هو النظام السائد هناك ، وهو عبارة عن علاقة بين سيد ومسود قوامها الأرض وما تغله من خيرات ، واقتصاده اقتصادا طبيعيا يرتبط بالأرض ، وحضارته حضارة ريفية زراعية قروية بحتة . وعلى أساسه انقسم المجتمع أفقيا إلى طبقات تتسع تدريجيا كلما نزلنا إلى أسفل ، فى أعلى القمة مجموعة من السادة الأشراف ينعمون بنعماء الترف ، وفى القاعدة غالبية ساحقة من العبيد والأقنان والفلاحين على مختلف فئاتهم ومستوياتهم يكدحون فى الأرض .[٢] وفى ظل هذا المجتمع الذى كانت فيه السلطة للقوى صاحب الأرض ومن عليها ، كان الإنتاج الأدبى ، والشعر بخاصة ، يدور حول تمجيد السادة الإقطاعيين من رجال الدنيا والدين على السواء ، أوحول للموضوعات

---

(١) Ker, op. cit., pp. 160, 216. أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) المزيد من التفاصيل ، أنظر هارتمان (ل . م) وباراكلاف (ج) : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى — ترجمة وتقديم الدكتور جوزيف نسيم يوسف — ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٧٠) ، ص ١٠٧ — ١٢٢ .

الدينية بسبب ارتباط الغرب بالكنيسة اللاتينية وتعاليمها ، تلك الكنيسة التى سيطرت على مقدراته وحياته وأفكاره . ولهذا السبب لم يحظ عامة الشعب من هذا الإنتاج الشعرى إلا بنصيب ضئيل جداً يكاد لا يذكر . ولهذا السبب أيضا عاش غالبية الناس فى فقر مدقع وجهالة مطبقة . وغير خاف أنه كان للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى سادت الغرب أثرها فى ذلك . ولعل هذا يكشف عن التناقض العجيب والهوة الشاسعة بين المثل والواقع الملموس وبين النظرية والتطبيق فى كل ناحية من نواحى الحياة فى مجتمع العصور الوسطى بعامة، وفيما يتعلق بأمور العلم والتعليم على وجه أخص .(١)

وإذا تركنا النثر والشعر فى العصر الكارولنجى جانبا ، نجد أن أبرز مايميز القرن التاسع هو العناية بالتراث الرومانى القديم بصفة عامة والأدب الكلاسيكى بصفة خاصة . ويكفى أن ما نسخ فى ذلك القرن من المخطوطات الكلاسيكية القديمة يبلغ أضعاف ما نسخ من تلك المخطوطات خلال القرنين العاشر والحادى عشر . ويرجع الفضل الأول فى ذلك إلى الكوين رئيس مدرسة البلاط بمدينة إكس لاشابل فى عصر شارلمان . وكان أهم ما قام به فى هذا الصدد مراجعته الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس . وإلى جانب الكوين وجد شخص آخر هو سرفاتوس لوبوس Servatus Lupus مقدم دير فريير الذى كان من كبار المعنيين بالآداب الكلاسيكية فى القرن التاسع .(٢)

---

(١) أنظر فى ذلك كتاب Coulton, Medieval Village, Manor and Monastery. p. 254.

(٢) Bloch, op. cit., I, p. 191. راجع أيضا دوسن : تكوين أوربا (الترجمة العربية)، ص ٢٨١ ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج٢ ، ص٢٣٧.

ولا يعنى ما تقدم أن الأدب الجرمانى كان كما مهملا . فقد وجه شارلمان ، وهو الجرمانى الأصل ، عنايته إليه . فحاول أن يجمع قواعد اللغة الجرمانية ، واحتفظ بمجموعة من الأغانى والأشعار الجرمانية . وكانت تلك الأغانى تتناول موضوعات فى الحب والحرب . ولما كانت تحويه من عناصر وثنية ، فقد نبذتها الكنيسة اللاتينية حتى أحرقها خليفة شارلمان وهو إبنه لويس الصالح (٨١٤ — ٨٤٠ م) . ولو كانت هذه الأغانى وغيرها من أدب الجرمان قد بقيت ، لربما أمكن الكشف عن بعض غوامضه وعن اللغة الجرمانية وقواعدها(١) .

ومهما يكن من أمر ، فإذا دققنا النظر فى النهضة العلمية الكارولنجية فى القرن التاسع ، سوف نجد أنها — فى الواقع — قد اقتصرت على فرنسا وجانب من ألمانيا ، حيث توجد امبراطورية الفرنجة . وفيما عدا ذلك ، فقد أصاب العلم والدراسات الأدبية قدرا كبيرا من التدهور . فبعد موت شارلمان أخذت امبراطوريته فى التصدع بسبب تقسيم الملك بين أبنائه والأساس الاقتصادى الذى قامت عليه وهو أساس زراعى إقطاعى بحت ، إلى أن انتهى الأمر بمعاهدة فردان Treaty of Verdun سنة ٨٤٣ م التى انقسمت الإمبراطورية بمقتضاها إلى ثلاثة أقسام : القسم الغربى ويشمل فرنسا ، والشرقى ويشمل ألمانيا ، والقسم الثالث عبارة عن ممر طويل بينهما يشمل مقاطعات فريزيا ولوثارنجيا وبرجنديا وبروفانس ولمبارديا وبقية ايطاليا من بحر الشمال الى البحر المتوسط ، ويحمل الحاكم على هذا القسم الأخير وهو لوثير لقب الإمبراطور . وظلت الأمور غير

---

(١) Painter, op. cit., p. 448 f. راجع أيضا كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٠٩ وما بعدها ؛ سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

مستقرة فترة من الوقت الى أن قامت أسرة السكسون بألمانيا (٩١٩ — ١٠٥٦م)، وبقيامها بعثت الفكرة الإمبراطورية من جديد أيام الإمبراطور أوتو الكبير فى القرن العاشر الميلادى.[١]

وأعظم ملوك هذه الأسرة هو أوتو الأول (٩٣٦ — ٩٧٣ م) ابن هنرى الصياد الذى نهج نهج شارلمان فى الاهتمام بشئون العلم والتعليم[٢]. وكان نجاحه فى فتوحاته وتجديد الإمبراطورية فى عهده مدعاة لدعمها بالعمل على إحياء العلم والتعليم وتشجيع العاملين فى ميدانه بكافة الطرق والوسائل. ومن كبار علماء عصره برونو[٣] Bruno رئيس أساقفة كولونيا الذى كان مهتما بالعلوم القديمة، حتى أنه تعلم اللغة اليونانية وكان مشجعا للعلم والمتعلمين. وإلى جانب برونو أسفرت النهضة الألمانية السكسونية[٤] عن ظهور عدد من العلماء، اذكر منهم ويدوكند Widukind الراهب بدير كوربى Corbey، وكذلك هرتسويث Hrotswith الراهبة فى دير جاندرشايم Gandersheim. ويشبه ويدوكند السكسونى فى تاريخه الذى وضعه عن السكسون، المؤلف بولس

---

(١) حول هذه الأحداث أنظر المراجع التالية LaMonte, op. cit., p. 162 ff. ; Sullivan, Heirs of the Roman Empire, p. 141 f. ; Shorter Cambridge Medieval History, I, p. 342 ff.

(٢) Cf. Calmette, Le Monde Féodal, p. 127.

(٣) Crump & Jacob, op. cit., p. 28 ; Baldwin, op. cit., p. 42 ; Painter, op. cit., pp. 141—142 ; LaMonte, op. cit., p. 405 ; Calmette, Le Monde Féodal, p. 127.

(٤) بخصوص النهضة الألمانية السكسونية، أنظر سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج ٢، ص ٢٣٨.

الشماس فى منهاجه وطريقته . فهو يكتب عن قومه فحسب ، كما أنه مولع بالقصص والأغانى الشعبية والتعلم التاريخى . وقد أهدى تاريخه بعد الفراغ منه الى ماتيلدا إبنة أوتو العظيم . وأما الشخصية البارزة فى مؤلفه فهى شخصية الإمبراطور السكسونى نفسه . وقد فرغ ويدوكند من كتابته سنة ٩٦٨ م ، وأضيفت إليه زيادات طفيفة بعد وفاة أوتو سنة ٩٧٣ م . وتعرض فى بدايته لعادات وتقاليد السكسون القدامى . ويمكن للقارىء أن يلمس فى ثناياه بساطة الجرمان القدماء التى احتفظ بها السكسون باعتبارهم أحد العناصر الجرمانية . كذلك احتوى الكتاب على شذرات من أدب الملاحم السكسونى ؛ وليس من الصعب العثور فيه على آثار من القصص والروايات الشعبية . ومما يذكر أن هذا الكتاب يوضح أن ويدوكند كان يتمتع بموهبة تدوين المذكرات memoirs . وقد أثبت مقدرة كبيرة فى الكشف عن أعمال الإمبراطور أوتو الكبير وفى إلقاء الأضواء على شخصيته ، وذلك عندما تناول أوتو وشخصيته وحياته بالدراسة والتحليل فى مؤلفه (١) .

وأما الراهبة هروتسويث (ت قبل ٩٨٤ م) فقد دونت مجموعة من الأشعار باللغة اللاتينية منها « أعمال الإمبراطور اوتو الأول « De Gestis Oddonis I. Imperatoris » ، تحدثت فيها عن أعماله وسيرته حتى تتويجه إمبراطورا سنة ٩٦٢ م . ووضعت كذلك عددا من القصص الدينية شعرا ، منها قصيدتها عن كل من القديس جنجولفوس St. Gingulphus وثيوفيلوس Theophilus ، وغيرهما من الشخصيات . وقد لقيت قصة ثيوفيلوس الشيوع والرواج ، وكانت متداولة

---

(١) Ker, op cit., p. 186 f. ; cf. also LaMonte, op. cit., p. 245 ; Bloch. op. cit., vol. I, p. XX.

بجميع اللغات (١) .

ومن الشخصيات البارزة فى ايطاليا فى القرن العاشر التى يجدر الإشارة إليها فى هذا المقام ليوتبراند أسقف كريمونا Liutprand of Cremona الذى كان يجيد اللغة اليونانية إجادة تامة ، حتى لقد اختاره الإمبراطور أوتو الأول مبعوثا من قبله إلى القسطنطينية . وكان يعمل قبل ذلك فى السلك الدبلوماسى ، كما زار العاصمة البيزنطية بوصفه مبعوثا من قبل الملك هيوج Hugh . ولم يمض وقت طويل على وفاة والده (حوالى سنة ٩٢٧ م) حتى أرسل وهو لايزال صبيا إلى بلاط بافيا لتلقى العلم . وكان ليوتبراند لايزال مقيما فى البلاط بعد سقوط هيوج واعتلاء برنجار Berengar العرش . وفى سنة ٩٤٩ م أرسله برنجار فى مهمة إلى الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفيروجنتيوس ,ConstantineVII Porphyrogentius (٩٤٤ — ٩٥٩ م) ، ولكنه تعرض بعد عودته لاضطهاد برنجار وزوجته ويلا Willa ، ولجأ إلى أوتو الكبير الذى احتضنه وضمه إلى بطانته . وفى سنة ٩٦١ م أصبح أسقفا على كريمونا ، وكان له دور بارز فى الاتصالات التى تمت بين أوتو والرومانيين . وتولى ترجمة خطبة الإمبراطور الألمانى التى ألقاها فى روما سنة ٩٦٣ م بعد تتويجه امبراطورا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة الغربية المجددة وفى السنة التالية قام بكتابة تاريخ رحلة اوتو إلى ايطاليا . وفى سنة ٩٦٨ م ذهب ثانية إلى القسطنطينية للاتفاق مع الإمبراطور البيزنطى نقفور الثانى فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) من الأسرة المقدونية على موضوع زواج المصاهرة بين إبنة الإمبراطور المسماه ثيوفانو

---

(١) Ker, op. cit., p. 179 f. ; Cf. also LaMonte, op. cit., p. 247; Crump & Jacob, op., cit., pp. 167 f., 267 ; Cantor, op. cit, pp. 164–166 ; Calmette, Le Monde Féodal, p. 129.

وبين اوتو الصغير . وبعد حياة حافلة بالأعمال الضخمة توفى ليوتبراند سنة ٩٧١ أو ٩٧٢ م. (١)

لقد عاش ليوتبراند حياة حافلة بالمهام الكبيرة التى كلف بها والتى أداها على خير وجه . إذ شاهد الأحداث بنفسه ، وعاش فيها وتفاعل معها . وكان على صلة بكبار رجال عصره ، وموضع ثقة الكثيرين منهم . وأبدى مقدرة وكفاءة فى المسائل السياسية التى كلف بها والمهام الدبلوماسية التى ترسل فيها . وسجل ذلك كله فى كتب وأبحاث لاتزال باقية إلى اليوم . ومع كل هذا لاتخلو كتاباته من القدح والدعابات الفكاهية الساخرة . ونجد مثلا لأهاجيه عندما تعرض لبرنجار فى كتابه المسمى « Antapodoses » الذى تناول فيه تاريخ ايطاليا والإمبراطورية الغربية فى الفترة من سنة ٨٨٧ م إلى سنة ٩٥٠ م . وأما عن دعاباته وتعليقاته اللاذعة فنجد مثلا لها عندما تعرض لأباطرة بيزنطة ، وبخاصة ليو بن بازيل (١) . ويقول المؤرخ لامونت إن ليوتبراند كان رجلا مثقفا ثقافة طيبة ، يجيد اللاتينية واليونانية ، وكان يستخدم فى كتابته أسلوبا روائيا اطيفا جعله محببا للقراءة فى كل وقت . وقد دون أوصافه عن الناس الذين التقى بهم فى سخرية لاذعة . ومن خلال مؤلفاته نجد أن خلقه الذى تميز بطابعه الدنيوى قد فرض نفسه على قصصه

---

(١) Ker, op. cit., pp.180—185 ; cf. Baldwin, op. cit., p. 96; LaMonte, op. cit., 140,146, 174, 245 f. أنظر أيضا مارتمان وباراكلاف : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ص ١٤٦ — ١٤٧ . هذا ، وحول سفارة ليوتبراند الكريمونى إلى القسطنطينية ، أنظر Cantor, op. cit., pp. 160—164.

(٢) هو ليو السادس المعروف بليو العاقل ، وقد حكم من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩١٢ م .

القصيرة والشخصيات التى أبدع قلمه تصويرها، وهذا أمر يستحق الذكر إذا قورن بمن جاءوا بعده فى عصر أكثر دنيوية وأوسع علما واستنارة .(١) .

هذا عن ايطاليا وليوتبراند الكريمونى ، أما فى فرنسا فقد لمع فى القرن العاشر اسم مؤرخين هما فلودورد الريمى Flodoard of Rheims وريتشارد الريمى Richer of Rheims، وكلاهما من ريمز، ويعتبر فلودورد (٨٩٤ — ٩٦٦م) من أشهر مؤرخى القرن العاشر . وهو صاحب تاريخ ريمز الكنسى Historia Remensis Ecclesiae ، ويشتهر بمنهاجه الواضح وأمانته ودقته فيما يكتب . وأما ريتشارد فهو راهب بدير القديس ريمى St. Remy بفرنسا ، وقد تتلمذ على يد جربرت Gerbert ، وله مؤلف باسم « التواريخ » « Histories » يقع فى أربعة كتب ، ويتميز أسلوبه اللاتينى بصعوبته لاستخدامه خليطا من الألفاظ والمصطلحات الفنية والحربية والإدارية (٢) .

وهكذا نجد أن تلك النهضات العلمية المبكرة فى غالة وانجلترا وباقى أجزاء الغرب الأوروبى خلال القرنين التاسع والعاشر قد أثمرت بخلق أجيال متتابعة من العلماء والأدباء والمؤرخين والكتاب الذين كان معظمهم ينتمى إلى هيئة رجال الدين ممن أسهموا بانتاجهم المتنوع فى خلق فئة من المتعلمين ومن المعنيين بأمور العلم والثقافة مما سيظهر أثره فى القرن التالى .

---

(١) LaMonte, op. cit., pp. 245—246.

(٢) Ker, op. cit., pp. 180, 187 ff. ; cf. also LaMonte, op. cit., pp. 229, 245 f. ; Bloch, op. cit., Vol. I, pp. 12, 28, 29, 30, 40, 191.

الفصل الثالث

ظهور الفكر الحر ونهضة القرن الثانى عشر

— تعطل الحياة الفكرية والثقافية فى الغرب منذ وفاة شارلمان وتصدع إمبراطوريته .

— التعليم فى العصر البندكتى ، واهتمام الأديرة البندكتية بالدراسات الكلاسيكية .

— أسطورة سنة ١٠٠٠ ودلالاتها .

— إرتباط نهضة القرن الحادى عشر بالمؤسسات الدينية .

— نهضة القرن الثانى عشر ثورة حقيقية فى شتى مرافق الحياة فى الغرب .

— أثر العرب فى الحضارة الأوروبية .

— إزدهار الحركة المدرسية .

— الديرية الكلونية وحركة التعليم .

— نشاط الجماعات الرهبانية الأخرى فى القرن الثانى عشر .

— أشهر المفكرين والدعاة إلى تحرير الفكر فى القرن الثانى عشر :
برنارد ، ابيلارد ، بطرس اللمباردى ، برنجار ، انسيلم ، روسللين .

— نشاط الدراسات القانونية فى ايطاليا :
ارنريوس ومدرسة بولونيا القانونية .

— النشاط الأدبى فى القرن الثانى عشر كمظهر من مظاهر التقدم العلمى :
جربرت الريمى ، فلبرت ، هيلدبرت .

عرفنا من الفصل السابق أن الغرب لم يلبث أن عاد إلى حالته الأولى من الفوضى السياسية والخمول الذهنى — بصفة عامة — بعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤م وتقسيم دولته الواسعة بين خلفائه . وقد ساد الظلام ثانية حتى أخريات القرن العاشر تقريبا حيث تعطلت الحياة الفكرية تعطلا يكاد أن يكون تاما ، وذلك باستثناء الأديرة التى ظلت تؤدى رسالتها التعليمية والثقافية كما كان الحال من قبل ، وباستثناء بعض الشخصيات التى ألمعنا إليها ، والتى لا يمكن اتخاذها كقياس عام لاتجاه الفكر والثقافة خلال تلك الفترة من الزمن . وقد سميت تلك الفترة باسم العصر البندكتى نظرا لما قامت به الأديرة البندكتية من نشاط واضح فى هذا المضمار وقتذاك .

لقد كانت هذه الأديرة من أهم المراكز التى اعتنت بالدراسات الكلاسيكية القديمة . ويرجع ذلك إلى عدة أسباب من بينها أنها كانت أقدم الأديرة التى تأسست فى الغرب [١] ، كما انتقل إليها تراث النهضة الكارولنجية . ثم أنها لم تشارك

---

(١) نسبة إلى القديس بندكت الذى بدأ حياته راهبا متوحدا بأحدا الكهوف بمنطقة سوبياكا بوسط ايطاليا . ولمس ما كان يعانيه الرهبان المتوحدون من صعاب فقام بتأسيس ديره الأول فى مونت كاسينو ، والتف حوله عدد من الرهبان الذين وضع لهم قانونه المعروف باسمه ، وهو يقوم على أربع قواعد رئيسية هى : التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء . وكان أساس قانونه انسانى وروحى فى آن واحد ، إذ جعل حياة أتباعه فى أديرته حياة اجتماعية وخفف من حدة التقشف التى كانت سائدة قبلئذ . ومما يذكر أنه وجه عناية خاصة الى التعليم ، فأوجد فى كل دير نواة لمكتبة ومكانا لنسخ الكتب تشجيعا لمن يجدون فى نفوسهم ميلا للكتابة والتأليف . وأصبحت الديرية البندكتية منبعا للعلم والمعرفة وانتشرت بسرعة فى شتى أرجاء الغرب . أنظر ; Coulton, Medieval Panorama, p. 263 ff. Cantor, Medieval World, p. 97 ff. راجع أيضا كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١٧٠ — ١٧١ .

الهيئات الديرية الجديدة فى الاهتمام بما يتعلق بالشئون الدينية فحسب ، ولكنها ظلت المكان الذى حافظ على الدراسات الكلاسيكية الرومانية من العبث والضياع . ويكفى أن نعرف أنه وجد فى كل دير من أديرتها نواة لمكتبة ومكان لنسخ المخطوطات زود بالأدوات اللازمة للكتابة والعناية بالآداب والعلوم والأبحاث، وذلك حتى يتسنى لكل من يتوسم فى نفسه ميلا نحو العلم والكتابة والتأليف أن يواصل نشاطه فى هذا الميدان . وعلى هذا يمكن القول بأن الديرية البندكتية قامت بأكبر خدمة للحضارة الفكرية والعلمية والأدبية فى المجتمع الغربى الوسيط . وقد حفظت فى مكتباتها ، بالإضافة إلى ما تقدم ، الكثير من أمهات الكتب الكلاسيكية القديمة التى كانت معرضة للفقدان والضياع أثناء غارات البرابرة على الغرب والدمار الذى حل بالمدن الرومانية ، وأثناء محاربة الكنيسة المسيحية لكل ما يمت للتراث الرومانى القديم بصلة ، باعتباره تراثا ضارا عديم الفائدة من وجهة نظر المسيحية وفلسفتها . وفى تلك الأديرة التى كانت فى ذات الوقت دورا للعلم والتعليم ، واصل النساخ والمؤلفون تحرير الكتب العلمية والتاريخية والأدبية واللاهوتية والقانونية التى مازال الكثير منها متداولا إلى اليوم (١) .

---

(١) أنظر عن ذلك المراجع التالية : Chateaubriand, Génie du Christianisme, p.248 ; Duroselle, Histoire du Catholicisme, p. 52; Coulton, Medieval Panorama, p.263 ff. ; Cantor, op. cit., p. 97 ff.

أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ ؛ سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ، ص ٧ وما بعدها ؛ ابراهيم العدوى : المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦١) ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ؛ كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ وما بعدها ؛ فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ (القاهرة ١٩٥٠) ، ص ١١١ .

ولقد نمت هذه النزعة الثقافية والأدبية فى أغلب الأديرة فى وقت كان الناس فيه فى الغرب لايزالون يغطون فى جهل عميق لايفهمون معنى العلم، وفى وقت كانت فيه الأمية شائعة بين الجميع . ويلقى التركيب الطبقى للمجتمع الغربى وقتذاك حيث ساد النظام الإقطاعى الضوء على ذلك . فهناك القاعدة العريضة فى أسفل الهرم الإقطاعى من الفلاحين على مختلف مستوياتهم من صغار المستأجرين والأرقاء والعبيد الكادحين فى الأرض الذين يمثلون الغالبية العظمى فى هذا المجتمع . وهناك الطبقة الارستقراطية الاقطاعية مالكة الأرض التى تمثل أقلية ضئيلة تتربع على قمة الهرم ، ولم يكن يعينها فى قليل أو كثير التزود بالعلم والمعرفة ، بل لم يكن هذا مما يشرفها أو يرفع من قدرها على الإطلاق ، إنما كان همها الأول والأخير تعلم الفروسية والتدرب على فنون الحرب والقتال التى تشبع فيها هوايتها التى ورثتها عن أجدادها الجرمان.(١) وأخيرا توجد طبقة رجال الدين ، وهى قليلة العدد وقد تزودأفرادها بالعلم الذى كان يستهدف أساساخدمة الدين المسيحى.(٢) وعلى هذا كانت نسبة المتعلمين قليلة جدا فى الغرب وقتذاك ، وتكاد تنحصر فى رجال الدين، أو بالأحرى فى عدد منهم ممن كانوا يلمسون فى أنفسهم القدرة على الدراسة والعلم. (٣) وبمرور الزمن تأسست المدارس فى تلك الأديرة البندكتية لتثقيف

(١) كان أبناء الأشراف يتلقون تدريبهم فى مدارس الفروسية التى كانت مقصورة عليهم . وحول هذه المدارس ، أنظر كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٣٩٩ وما بعدها .

(٢) Goff, La Civilisation de l'Occident Médiéval, p.319 f. ; Coulton, Medieval Panorama, p. 389. ويعتبر المؤرخ الفرنسى مارك بلوك من أفضل من كتبوا عن التنظيم الطبقى فى المجتمع الغربى الوسيط ، أنظر Bloch, Feudal Society, vol. II, p. 283 ff.

(٣) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١٠٠ و ١٠١ .

الناس. وأصبحت تلك المدارس الديرية مع الوقت معاهد علمية يشتغل فيها الكثير من الرهبان بالنسخ والتأليف والمحافظة على التراث القديم الذى أهملته القرون السابقة، هذا إلى جانب مهنة التعليم.

وباختصار فإن المدارس التى قدمت تعليما متقدما حتى أواخر القرن العاشر كانت مدارس ديرية، وذلك باستثناء مدرسة القصر فى عصر شارلمان. وعلى هذا يكاد أن يكون جميع الرجال المثقفين ثقافة حقيقية من فئة الرهبان أو من رجال الدين الذين تم تدريبهم كالرهبان تماماً (١). وفيما عـدا ذلك فإن طبقتى الفرسان المحاربين والعمال الكادحين فى الأرض لا شأن لهما بأمور العلم والتعليم بحكم الظروف التى أحاطت بالمجتمع الغربى الوسيط وقتذاك.

وفى أخريات القرن العاشر الميلادى، وفى ظل الأوضـــاع المشار إليها، انتشرت فى الغرب أسطورة تقول بأن العالم سينتهى بنهاية الألف الأولى، وأن المسيح سوف يظهر للمؤمنين به. ويرى الكتاب أن هذه الأسطورة كان لها أثرها فى ظهور موجة من التقشف والزهد والبعد عن ملذات الحياة الدنيا وبلهنيتها، والتقرب إلى الله والعمل على مرضاته. وهم يرون أيضاً أنها إن كانت قد تركت أى أثر فهو وجود حالة من الاستقرار فى الغرب كان متعطشاً إليها ولم يستشعر بها قبل ذلك بقرون طويلة (٢). وعلى حد قول المؤرخ جورج جوردون

(١) أنظر عن ذلك Painter, History of the Middle Ages, p. 467.

(٢) حول أسطورة سنة ١٠٠٠ وآثارها، أنظر المراجع التالية كولتون: عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية)، ص ٢١٩ — ٢٢٠؛ حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى — ط. ثانية (القاهرة ١٩٥٨)، ص ١٩ — ٢٠؛ جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، ص ١٧٣ — ١٧٤. راجع أيضا =

كولتون أنه بعد تلك السنة الحاسمة ، لم يعد ثمة غزوات بربرية ذات أهمية ، وكانت أوروبا قد استقرت تماماً وأصبح التجديد ميسوراً . فما أن بدأ العمل حتى أخذ يسير بخطوات ثابتة » . ويستطرد نفس المؤرخ قائلا : « وكانت هذه الحركة التقدمية فى سنة ١٠٠٠ نهضة حقيقية لاشك فيها ، أشبه ماتكون بالنهضة المتأخرة التى تعارف المؤرخون على تسميتها باسم عصر النهضة Renaissance» (١).
والواقع أن هذه الأسطورة وإن امتازت بشىء فإنما تمتاز بقيمتها الرمزية فحسب باعتبارها من أسباب نهضة القرن الحادى عشر فى أوروبا ، حينما بدأ الغرب يهب من سباته العميق وقد أخذ يسترد أنفاسه اللاهثة ويشق طريقه نحو التقدم والرقى ، بعد قرون من التكاسل والركود .

وهكذا ، اعتباراً من القرن الحادى عشر بدأت أوروبا تدخل فى فترة استقرار كانت أحوج ماتكون إليها فى النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وقد كان لها أثرها فى الانتعاش التدريجى الذى أصاب النهضة الفكرية بصفة خاصة . وأخذت الحياة العلمية الجديدة تستمد أصولها من النهضة الكارولنجية . فنجد ، مثلا ، أن نظم التعليم ومناهجه تنمو على نفس الأساس الذى قامت عليه المدارس الدينية أيام شارلمان . وقد كان من الممكن أن تحقق تلك النهضة المبكرة فى القرى الحادى عشر تقدماً أكثر مما حققته بالفعل لولا الأحداث السياسية والحربية الخطيرة التى كانت أوروبا مسرحاً لها وقتذاك ،

Coulton, G. G., Medieval Scene (Cambridge, 1961), p. 102 f.; = idem, Medieval Panorama, p. 394 ; Goff, op. cit., p. 82 f.

(١) كولتون : نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٠ . راجع أيضا Duroselle, op. cit., pp. 45—46.

والتى أعاقت تلك الانطلاقة عن أن تشق طريقها بسرعة نحو أهدافها التقدمية . ففى القرن الحادى عشر بدأ الصراع المعروف بين البابوية والإمبراطورية على المسائل العلمانية ، وما ترتب عليه من آثار وخيمة بالنسبة للسياسة الأوروبية بصفة عامة ، والتدهور الذى أصاب كلا من الكنيسة والمسيحية وألمانيا وايطاليا على وجه أخص . وفيه أيضاً قام النورمان بنشاطهم التوسعى المعروف فى صقلية وجنوب ايطاليا وانجلترا . وفيه أيضاً كانت الحرب دائرة على أشدها بين الممالك المسيحية فى الشمال الأسبانى وبين العرب فى الجنوب . وفى أخرياته كذلك قامت الحركة الصليبية بتوجيه من البابوية وتحت إشرافها ورعايتها بقصد الاستيلاء على الأراضى المقدسة [١] . كل هذه الأحداث وغيرها ، لم تتح للحركة الفكرية الفرصة الكاملة للإنطلاق غير المحدود ، ولم تهيء تربة خصبة للازدهار العلمى بالمعنى الواسع .

وبانتهاء القرن الحادى عشر ، وكان الغرب قد بدأ يلتقط أنفاسه وأخذت الأحوال فى الاستقرار ، بدأت النهضة العلمية الأولى التى اشتهرت فى التاريخ باسم « نهضة القرن الثانى عشر » والتى تمثل فى الحقيقة ثورة شاملة فى شتى مرافق

---

(١) أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ١٧٢ — ١٧٧ والحواشى . وراجع أيضا Halphen, L., L'Essor de l'Europe (Paris,1941), pp. 3 ff., 23 ff., 47 ff., 55 ff. ; Arnold, T. & Guillaume, A., The Legacy of Islam (London, 1952), p. 44 ff. ; Pirenne, Medieval Cities, p. 56 ff. ; Setton, K. M. (ed.), A History of the Crusades, vol. I (Philadelphia, 1958), pp. 10 ff., 20 f , 26f., 39 ; Lewis B, The Arabs in History (London, 1958), pp. 125 f , 150.

الحياة فى أوروبا ، وهى ثورة فى الحياة الديرية وفى الفنون والنواحى الدينية والفكرية والثقافية والعلمية (١) . ويقول جون لامونت إنه ليس ثمة ميدان من ميادين النشاط يتضح فيه تقدم الغرب خلال القرن الثانى عشر أكثر من ميدان النشاط الثقافى . فبينما كانت الدولة البيزنطية والعالم الإسلامى قبل ذلك التاريخ يحتفظان بمستوى رفيع فى مجال النشاط الفكرى ، كان الغرب اللاتينى متأخراً . ولكن فى القرن الثانى عشر ، الذى أصبح يطلق الآن على النهضة التى شهدها إسم « نهضة القرن الثانى عشر » ، أحرز الغرب تقدماً كبيراً فى حياته الفكرية بعد أن هدأ واستقر وبعد أن استوعب أفضل ما فى الثقافات الشرقية الإسلامية والبيزنطية ، بل وأحرز تقدماً نحو إنجازات جديدة متفوقاً بذلك على جيرانه الشرقيين من مسلمين وبيزنطيين . ويستطرد لامونت قائلا إن نهضة القرن الثانى عشر تعتبر مظهراً من مظاهر هذا النتاج الهائل للنشاط الذى عم العالم الغربى ، والذى كان من ثماره أيضاً ظهور المدن بسكانها الأحرار واقتصادها النقدى وحضارتها المدنية ، وكذلك إحياء التجارة ونمو الملكيات ؛ ومن أهم مخلفاته الملموسة الكاتدرائيات على الطراز القوطى فى كل من روما وألمانيا وانجلترا (٢) .

---

(١) Cf. Cantor, op. cit., p. 208 ; Sabine, G. H., A History of Political Theory (London, 1948), p. 215.

أنظر أيضا الدراسة القيمة التى كتبها الدكتور سعيد عاشور بعنوان « النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر » فى كتاب سعيد عاشور ومحمد أنيس : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ، ص ١١١ — ٢٣١ ، ففيها تحليل رائع للأسس التى قامت عليها هذه النهضة .

(٢) LaMonte, The World of the Middle Ages, p. 563 ff.

Cf. Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe=

وجدير بالذكر أن هذه النهضة قد تميزت بالاحتكاك الفكرى بين الغرب والحضارة العربية الإسلامية عندما تدفقت المعارف والعلوم العربية واليونانية إلى أوروبا عن طريق معابر الاشعاع الثقافى الأربعة وهى : الأندلس وصقلية وجنوب ايطاليا وبلاد الشام . وقد أفاد الغرب فائدة كبرى من الحضارة الاسلامية اليانعة . وساعد على ذلك أنه كان قد بدأ ينفض عن كاهله كابوس العصور المظلمة، ويتمتع بحالة من الأمن والهدوء بعد قرون طويلة من الفوضى والاضطراب . وكان أثر المدنية العربية الاسلامية واضحا فى الغرب فى شتى أفرع العلم والمعرفة، وبخاصة فى ميادين الأدب والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافية والفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة (١) .

وهكذا أقبل الأوروبيون يرتشفون فى نهم وشغف من هذه المعارف والعلوم حتى ضاقت بهم المدارس الدينية فى وقت ازدهرت فيه حركة الفلسفة المدرسية

= (London, 1961), pp. 26 ff.

ويضيف العالم البلجيكى هنرى بيرين قائلا إن هذه النهضة العلمية الجديدة ارتبطت بنشأة المدينة فى الغرب ونشاطها التجارى وسكانها الأحرار واقتصادها المالى وحضارتها المدنية والاتجاه العلمانى فيها . انظر : Pirenne, Medieval Cities, p. 165 ff.

(١) للمزيد من التفاصيل عن فضل العرب على الحضارة الأوروبية فى العصر الوسيط ، أنظر سعيد عاشور : المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية (القاهرة ١٩٦٣) ، وبخاصة صفحات ٤٩ وما بعدها و ٧١ وما بعدها ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٣١ وما بعدها ؛ يعقوب (ج) : أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على (القاهرة ١٩٤٦) ، ص ٢٠ وما بعدها ؛ العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية (القاهرة ١٩٦٥) ، ص ٣٤ وما بعدها . راجع أيضا Sabine, op. cit., p. 215 ; Crump & Jacob, Legacy of the Middle Ages, pp., pp. 184—185.

Scholasticism ، وأصبحت الأساس الذى انبثقت منه الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى . إذ قامت تلك الجامعات لتحتضن هذه الدراسات الجديدة وتشملها برعايتها وتشجيعها حتى غدت منارآ للعلم ومراكز إشعاع تخرج منها الشباب المثقف المستنير من العلماء ورجال الدين الذين نادوا بالفكر الحر والمناقشة الحرة (١) .

وعلى هذا يمكن القول بأن النهضة العلمية الأولى التى اشتهرت باسم « نهضة القرن الثانى عشر » بدأت أول مابدأت فى المؤسسات الدينية والمدارس التابعة لها التى كان عددها فى ازدياد مطرد. ذلك أن تلك المؤسسات كانت تجتذب لخدمتها والعمل بين جدرانها كل من تتوسم فيه الاستعداد للبحث والدراسة والتحصيل . كذلك عنيت الأديرة منذ الإصلاح البندكتى بالعلم والكتابة والأدب . فكنا نجد فى معظمها المكاتب والنساخ المهرة والكتاب المبرزين من بين هؤلاء الرهبان أنفسهم المهتمين بالشئون العلمية . وفى داخل هذه الأديرة خصصت أماكن للمعنيين بشئون الكتابة والنسخ والقراءة والتأليف . وكانت مثل هذه القاعات العلمية تحمل الإسم اللاتينى Scriptoria ، أى مكاتب النسخ فى الأديرة (٢) .

---

(١) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية)، ص ٢٢٥ وما بعدها ؛ سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى ، ص ١١ وما بعدها ؛ عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٤٣ — ٤٤ . أنظر أيضا Goff, op. cit., p. 426 f. ; LaMonte, op. cit., p. 563

(٢) أنظر Baldwin, The Mediaeval Church, p. 27 ; Cantor, op. cit., p. 109 ; Painter, op. cit., p.81. راجع ايضا ما سبق ، ص ٣٩ و ح ٢ من هذا الكتاب .

وإذا كان الإصلاح البندكتى قد اعتنى بالعلم والأدب ، فلم يغفل الإصلاح الكلونى (١) كذلك أمرهما . ولم يهمل القائمون على أمره هذه النزعة العلمية والأدبية ، وإنما شجعوها وتولوها برعايتهم . وقد ألحقت بمعظم الأديرة الكلونية المدارس لتعليم الأطفال الذين أعدهم آباؤهم للدخول فى سلك الكهنوت والتدرج فى وظائفه أو للعمل فى خدمة الحكومة والقيام بالمهام التى كانت تتطلب القراءة والكتابة مثل المحاماة والطب .(٢)

وفى تلك الأثناء واصلت الجماعات الرهبانية الأخرى التى نشأت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مثل الإخوان الفرنسيسكان والإخوان السسترشيان والإخوان الدومينيكان وغيرها تلك الجهود العلمية والأدبية التى بدأها من سبقهم ، حتى لقد أصاب الكثير من بين رجالها بسهم وافر فى الفلسفة والقانون

---

(١) نسبة إلى جماعة كلوني الديرية التى بدأت حركتها ضيقة فى أول الأمر ، ثم أخذت تتسع تدريجيا إلى أن أصبحت فى القرن العاشر الميلادى مثلا يحتذى من أمثلة الإصلاح . وكان أساس نظام كلونى الاستقلال التام عن السلطات الدينية والدنيوية ، والاتصال المباشر بالبابوية ، والقضاء على استقلال الأديرة عن بعضها ، والمناداة بإصلاح الجهاز الكنسى البابوى من المفاسد التى تغلغلت فيه . ومما يذكر أن رهبان كلونى اعتنوا أيضا بالعلوم والأعمال الأدبية ، ومن هنا كان لحركتهم آثارها البالغة الأهمية ، فأصبحت حركة دولية واسعة بعد أن امتدت حدودها خارج فرنسا نفسها . أنظر Coulton, Medieval Village, Manor and Monastery, p. 210 ; Baldwin, op. cit., pp. 34 — 36, 41 — 42.

(٢) أنظر Brinton & Others, A History of Civilization, Vol. I, p. 299 ff.

والآداب ومختلف العلوم.[1] وقامت على أكتاف هؤلاء نهضة القرن الثانى عشر ، حينما احتكت الأذهان والعقول بين العنصر الرجعى من المفكرين الذى يعبر عن الفكرة الدينية القديمة المتزمتة ويمثله القديس برنارد أوف كليرفو ، وبين العنصر المجدد من المنادين بتحرير الفكر ويتزعمه الفيلسوف بطرس ابيلارد زعيم الفكر الحر وتحرير الذهن من التقاليد العتيقة والداعى إلى فلسفة الشك والتشكك الشهيرة .

وهكذا نشأت هذه النهضة كنتيجة طبيعية ومنطقية لاحتكاك الفكر بين عنصرين متباينين من المفكرين ، تمثلها أصدق تمثيل هاتان الشخصيتان اللتان ملأتا العصر الوسيط ضجيجا وجدلا وحركة وحياة : القديس برنارد الذى قامت نظرياته على أساس الكنيسة اللاتينية وسيادتها ، فكان بحق أصدق ممثل للتفكير الدينى الوسيط . والثانى هو الفيلسوف بطرس ابيلارد زعيم حركة تحرير الفكر من التقاليد البالية فى تلك القرون الغابرة التى سيطرت فيها الكنيسة بحكم مركزها والسلطات الضخمة التى تمتعت بها ، على تفكير الفرد وعقليته ، وكان عليه أن يتقبل أوامرها وتعاليمها ونواهيها بالسمع والطاعة دون جدل أو مناقشة ، بحيث لم يكن من السهل عليه الإفلات من تلك الدائرة الضيقة المغلقة التى وضعته فيها . بل إن محاولة التفكير فى الخروج على تعاليم الكنيسة كانت تعرض صاحبها لأشد أنواع العقاب ، وما أكثر أسلحة الكنيسة التى كانت تستخدمها ضد معارضيها

---

(١) حول هذه الجماعات الرهبانية ومدى إسهامها فى حركة العلم والتعليم ، أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١٧٣ وما بعدها . راجع أيضا Baldwin, op. cit., p. 42ff. ; Coulton, Medieval Panorama, p. 266 ; Shorter Cambridge Medieval History, vol. I, p 502 ff.

والخارجين عليها من حرمان ونقمة ولعنة وقطع (١) .

ويعتبر القديس برنارد من الشخصيات البارزة التى أخرجتها جماعة الإخوان السسترشيان (٢) Cistercians . ولد سنة ١٠٩١ م وتوفى سنة ١١٥٣ م وله من العمر حوالى ٦٢ عاما . وهو يعتبر، بحق ، أكبر ممثل للتفكير الدينى القديم ، ومن المتحمسين للنظام البندكتى بعد الإصلاحات التى أدخلت عليه ، كما كان متصوفا منكرا لذاته . وقد أسس ديره المعروف فى كليرفو Clairvaux وأصبح رئيسا له وكان يتمتع بنفوذ كبير ونشاط فائق نلمسها فى مواقف عديدة له . فهو الذى حسم النزاع البابوى سنة ١١٣٠ م ، وقضى على الانقسام الكنسى بإعادة البابا انوسنت الثانى (١١٣٠ — ١١٤٣م) إلى روما . وكان البابا ايوجين الثالث (١١٤٥ — ١١٥٣ م) من تلامذته ، وإليه أيضا يرجع أمر تأسيس جماعة الفرسان الداوية التى قامت بدور خطير فى الحركة الصليبية التى تعرض لها العالم العربى . وهو الذى ساعد فى الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ م التى قام بها الغرب الأوروبى من أجل استعادة الرها التى كان قد استولى عليها عماد الدين زنكى سنة

(١) أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٦٨ ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) أسس هذه الجماعة حوالى سنة ١٠٩٨ م راهب فرنسى يدعى روبرت ، وكانت تستهدف العودة الى التعاليم البندكتية الأولى مع إدخال نوع من التصوف والتقشف فيها . وقد انقطع أتباع هذه الجماعة عن العالم إلى الجهات المقفرة ، واختصوا برعاية الأغنام وتعمير الصحارى . وانتشرت أديرتهم بسرعة فى الغرب . ومن أعظم من أخرجتهم جماعة السسترشيان القديس برنارد مؤسس ديره المشهور فى كليرفو سنة ١١١٥ م . ويطلق على هذه الجماعة أيضا اسم « البرنارديين » نسبة إلى راعيهم الرئيسى القديس برنارد . أنظر Baldwin, op. cit., pp. 42—44 ; Shorter Cambridge Medieval History, vol. I, pp. 502—504.

١١٤٤ م . ومن أهم ماينسب إليه أنه وجه عناية فائقة للدرس والكتابة والتأليف ، وترك لنا رسائل ومؤلفات تجمع بين البلاغة والتفكير والمنطق . وهو فى فلسفته وتفكيره يقوم بالدفاع عن الكنيسة والقضاء على أى بادرة تنم عن الهرطقة أو الخروج على تعاليم المسيحية . وكان هذا الحماس الزائد للأفكار والمثل الدينية القديمة المتزمتة من الأسباب الجوهرية التى أدت إلى قيام الصراع الفكرى بينه وبين زعيم من أكبر زعماء حركة تحرير الفكر الإنسانى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، إن لم يكن أكبرهم على الإطلاق ، ونعنى به الفيلسوف ابيلارد (١) .

ولد بطرس ابيلارد سنة ١٠٧٩ م وتوفى فى ١١٤٢ م عن ثلاثة وستين عاما. وهو ، فى الحقيقة ، زعيم نهضة تحرير الفكر فى القرن الثانى عشر ، ومن أشهر رجال زمانه فى علم الجدل . كما أنه صاحب فلسفة الشك والتشكك الشهيرة فى كل شىء حتى فى طبيعة المسيح نفسه ، وما إلى ذلك من المسائل الخطيرة التى كان لها شأنها وقتذاك . ونعرف أنه درس فى مستهل حياته على أئمة العلم فى عهده ، ومن بينهم وليم أستاذ المنطق فى مدرسة باريس وانسيلم اللاهوتى . وكان ابيلارد يثير عاصفة قوية من الجدل والنقاش فى أى مكان يحل به ، وكثيرا ماينتهى النقاش

---

(١) أنظر عن ذلك المراجع التالية Heer, F., The Medieval World (London, 1962), pp. 79—87 ; LaMonte, op. cit., pp. 404—406, 564—565 ; Painter, op cit., pp. 143, 147, 210, 212 ; Brinton and others, op. cit., vol. I, p. 301 ; Duroselle, op. cit., pp. 60—62 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 30 f., 104, 119, 141, 207, 220 f. et sqq. ; Crump & Jacob, op. cit , pp. 22, 43, 45, 57, 156, 161, 166, 237 ; Baldwin, op. cit., pp. 42—44 ; Lesourd, P., Histoire de l'Eglise (Paris, 1939), p. 57 f.

بتفوقه على أساتذته بعد أن يبين لهم نقط الضعف فى فلسفتهم . وقد انتهى به الأمر إلى تأسيس مدرسة خاصة به فى أحد أحياء باريس ، والتف حوله المريدون والاتباع يستمعون إليه وينهلون منه . ولكن ظروفا خاصة اضطرته إلى ترك باريس واعتناق الرهبنة بدير القديس دنيس . ومع ذلك فقد استمر فى المحاضرة والمجادلة على أساس فلسفة الشك والتشكك التى نادى بها . واضطرت الكنيسة بعد أن وجدت فيه خطرا يهددها إلى إدانته بالهرطقة سنة ١١٢٢ م وإبعاده عن ديره .

ظل ابيلارد طريدا فترة من الوقت ، ثم التجأ إلى منطقة كوينسى Quincy بمقاطعة شامبانيا فى فرنسا حيث بنى له كوخا وكنيسة صغيرة ، وأخذ يواصل محاضراته وتعليمه . ولم يمض وقت طويل حتى تبعه عدد كبير من تلامذته الأولين الذين استمروا ملتفين حوله ينصتون إليه والى تعاليمه . وازداد مع الوقت أتباعه من المشتغلين بالعلم والتعليم حتى لم تجد الكنيسة بدا من العفو عنه . وأخذ يتدرج مرة ثانية فى السلك الكنسى حتى أصبح رئيسا لدير القديس جيلداس St. Gildas بمقاطعة بريتانى الفرنسية . ولكنه وجد أن الحياة داخل هذا الدير مع عدد من الرهبان الذين يكرهون العلم والتعليم لا يمكن أن تستمر . فهرب من الدير وعاد مرة ثانية إلى باريس ليواصل الجدل الحامى والنقاش العنيف مع القديس برنارد . وكان ابيلارد فى جدله ونقاشه لا يهتم على الإطلاق بالتقاليد الدينية الشائعة فى القرون الوسطى المبكرة ، والتى كانت قد اهتزت فى زمنه بعنف بسبب الفساد الذى استشرى فى الجهاز الكنسى البابوى ، كما كان لا يخشى بالمرة المجاهرة بالشك فى التعاليم المسيحية أيا كانت . وأخذ خطره يشتد على الكنيسة ويهدد سلطانها وكيانها ، فحكم عليه البابا انوسنت الثانى (١١٣٠ —

١١٤٢ م) بالهرطقة مرة أخرى . وانزوى بقية أيام حياته بدير كلونى الرئيسى بفرانسا عاكفا على الدراسة والتحصيل والتأليف إلى أن وافته منيته (١) .

لقد دعا ابيلارد إلى استخدام العقل وتطبيقه على كل مايقع تحت يد الإنسان ، قائلا إن الإنسان يجب ألا يؤمن فى شىء قبل فهمه ، وبنص قوله : « Nothing is to be believed unless it is understood » ؛ وهكذا بعد أن كان الإيمان يسبق العقل فيما مضى وبعد أن كان الأساس هو « إنى أومن كى أفهم » ، تغير الوضع وأصبح الفهم والإدراك يسبقان العقيدة . وقد نادى ابيلارد بتطبيق هذا المبدأ على كل شىء حتى على الدين نفسه . وهكذا كانت فلسفته تقوم على الشك ؛ فنى نظره لا يتأتى الوصول إلى الحقيقة إلا عن طريق التشكك والمعارضة . وقد وجد القديس برنارد أن اعتقاد ابيلارد باستخدام العقل فى المسائل اللاهوتية أمر لا يمكن قبوله على الإطلاق ، وكان على يقين من أن ابيلارد مدان فى وجهة نظره . (٢)

---

(١) عن ابيلارد وسيرته وحياته وفلسفته، أنظر يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط (القاهرة ١٩٥٧) ، ص٩٢ — ٩٤ ؛ عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى، ص ٧٩ — ٨٤ . راجع أيضا Heer, op. cit., p. 79 ff. ; Ker, The Dark Ages, p. 210 ; Garin & Others, Les Utopies à la Renaissance, pp. 61, 63, 65 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 207, 241, 307, 394, 466, 591, 664 ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 57, 156, 237, 259, 270, 326, 513 ; Gandillac, M. de, Oeuvres Choisies d'Abélard (Paris, 1945), p. 5 ff. أنظر أيضا سيرة أبيلارد كما يرويها بنفسه فى Cantor, op. cit., pp. 220 — 228.

(٢) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٢١-٢٢٣.

ومن أهم مؤلفات ابيلارد التى خلفها لنا كتابه باللاتينية المعروف باسم « نعم ولا » Sic et Non الذى قدم له بكلمة عن تفسير الكتاب المقدس ، وضمنه فلسفته الشهيرة . وقد تناول فيه موضوعات خصبة للبحث والمناقشة ، كما جمع فيه الآيات الواردة فى الكتاب المقدس التى يبدو فيها التناقض وعدم الانسجام بقصد المقارنة ولكن دون أية محاولة من جانبه للتوفيق بينها(١) .

ولا جدال أن فلسفة ابيلارد كان لها أثرها الواضح فى دفع عجلة التقدم إلى الأمام وتحرير الفكر الانسانى من القيود القديمة البالية فى فترة بدأ فيها الغرب ينفض عن كاهله كابوس الماضى المزعج ، مما هيأ الجو لظهور عصر النهضة الذى يعتبر مرحلة تغير وانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث .

وقد يبدو مما تقدم أن الحزب الرجعى بزعامة برنارد أوف كليرفو قد أحرز انتصاراً مؤقتاً على حركة تحرير الفكر التى نادى بها ابيلارد . ومع ذلك لم يكن من السهل إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء فى وقت كان كل شىء فيه فى تغير تدريجى مستمر ، ولم يكن هناك أمر ثابت على حاله . كانت الدماء الساخنة تجرى فى العروق ، والأفكار الجديدة تتصارع مع المبادىء القديمة . وكانت المثل والقيم القديمة تحارب ، فى واقع الأمر ، فى معركة خاسرة أمام القوى التقدمية الجديدة . إذ صمدت قوة فلسفة ابيلارد فى الأجيال التالية ، وانتصر مذهبه فى نهاية الأمر فى عصر مفعم بالنشاط متعطش إلى العلم والمعرفة(٢) .

---

(١) كولتون : نفس المرجع ، ص ٢٢٤ . أنظر أيضا Goff, op. cit., p. 427 ; LaMonte, op. cit., p. 564.

(٢) كولتون : نفس المرجع ، ص ٢٢٣ .

ويكفى للدلالة على ذلك أن تلامذة ابيلارد وصلوا إلى المراكز العليا فى الكنيسة اللاتينية ، ومنهم تلميذه بطرس اللمباردى Peter Lombard الذى وصل إلى مركز أسقفية باريس ، وقام بنشر تعاليم أستاذه ومبادئه التى ضمنها فى مؤلفه المعروف باسم « كتاب الجمل » Liber Sentiae الذى غدا مصدرا رئيسيا فى دراسة علم اللاهوت فى الفترة الباقية من تاريخ القرون الوسطى.[1] ويعتبر هذا الكتاب أوفى من كتاب « نعم ولا » ، إذ حاول فيه مؤلفه التوفيق بين مختلف الآيات المتناقضة فى الكتاب المقدس ، حتى غدا الكتاب الأساسى الذى يرجع إليه فى علم اللاهوت . ويقول كولتون إن هذا الكتاب فى القرن الثالث عشر قد أغنى بالمرة عن دراسة الكتاب المقدس نفسه[2] .

وما دمنا نتحدث عن أبرز الدعاة إلى تلك الحركة الجديدة فلا بد أن نشير إلى برنجار التورى Berengar of Tours . وهو أحد المعلمين بكاتدرائية مدينة تورز بجنوب فرنسا . وقد تشكك هذا الرجل فى أمر الجسد المقدس والدم المقدس الذى يعرف اصطلاحا باسم « الأفخارستية » Eucharist ، وهى العقيدة الشائعة بين الناس القائلة بأن القربان والنبيذ ينقلبان فعلا إلى الجسد المقدس والدم المقدس؛ بمعنى أنه كان يتشكك فى حقيقة وجود المسيح فى القربان المقدس. ولما كان

---

(١) حول بطرس اللمباردى وكتابه ، أنظر Shorter Cambridge Medieval History, vol. I, pp. 626, 629 ; Monroe, P., A Text-Book in the History of Education (New York, 1914), p. 323 ; LaMonte, op. cit , pp. 564–565, 572 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 414, 421, 431, 633, 683, 700 ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 57, 279, 345 ; Painter, op. cit., pp. 138, 268, 289, 302 f., 474.

(٢) أنظر كولتون - عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٢٤—٢٢٥ .

فيما ينادى به برنجار تهديداً خطيراً للعقيدة نفسها وللمبادىء الأساسية التى تقوم عليها المسيحية ، فقد تصدى له أحد رؤساء أساقفة كانتربرى من أعضاء الحزب الدينى المحافظ ويدعى لانفرانك Lanfranc . واضطر برنجار تحت الضغط والتهديد إلى سحب اعتراضاته على العقيدة المسيحية(١) .

وثمة شخص آخر يدعى روسلين Roscelin of Compiegne (١٠٥٠ — ١١٢٠ م) الذى يعتبره بعض الكتاب رسول نهضة القرن الثانى عشر . فهو الذى افتتح أزهى عصور الفلسفة المدرسية وقتذاك . وقد أخذ هذا المفكر — شأنه شأن غيره من المفكرين الغربيين — فى تطبيق أساليب العقل والمنطق فيما يتلقاه من دراسات لاهوتية . فهاجم مبدأ الثالوث الأقدس The Holy Trinity ، وهو فكرة الإله الواحد ذى الصفات أو الأقانيم الثلاثة ، وهى الآب والابن والروح القدس . ونتيجة لذلك أدين روسلين بتهمة الهرطقة لخروجه على تعاليم المسيحية ومبادئها ، واعتبرت تعاليمه هرطقة . وقد اضطر — هو الآخر — إلى التراجع عنها ونبذها ، ولكنه كان قد ترك أثره العميق على تلميذه بطرس ابيلارد (٢) .

وقد انبرى لروسلين وآرائه القديس انسيلم St. Anselm (١٠٣٣-١١٠٩م) .

---

(١) Cf. LaMonte, op. cit., pp. 247, 301, 304 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 62 f., 124, 128, 207, 241, 322, 394, 446, 637 ; Crump & Jacob, op. cit., 368 ; Painter, op. cit., pp. 135, 148, 467.

(٢) Painter, op. cit., p. 432 ; Crump & Jacob, op. cit., p. 234 ; LaMonte, op. cit., p. 564. أنظر أيضا سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ، ص ١٤ — ١٥ .

وهو ينتمى إلى الطبقة الأرستقراطية الإيطالية ، ثم اعتنق الرهبنة ، وغدا زعيما للرهبنة النورمانية ، واختتم نشاطه الدينى بشغل منصب رئيس أساقفة كانتربرى فى انجلترا . وقد قامت فلسفته على أساس تقبل الإيمان دون جدل أو مناقشة ، أى عدم تحكيم العقل والمنطق فيما يتعلق بشئون الإيمان والعقيدة . وله عدة مقالات باللاتينية عن طبيعة الله أهمها مقالته المسماة « لماذا تجسد الله فى شخص إنسان ؟ » « Cur Deus homo? » التى أوضح فيها فلسفته المعروفة وهى أن العقيدة يجب أن تتقدم الفكر عند الإنسان Credo ut intelligum ، بمعنى أن تفهم الأشياء يتبع العقيدة . وبناء على ذلك يصبح الشك فى طبيعة الثالوث المقدس وهو ما نادى به روسلين أمرا باطلا (١) . لقد كان انسيلم من كبار المدافعين عن الواقعية وهى أحد المذاهب المدرسية الرائدة فى فلسفة العصر الوسيط ، بينما كان روسلين من الإسميين (٢) .

---

(١) أنظر بحث انسيلم المعنون « الدليل على وجود الله » وكذلك نبذة عن انسيلم نفسه فى كتاب كانتور, Cantor, op. cit., pp. 208—210. Cf. also Coulton, Medieval Panorama, pp. 62, 64, 112, 125, 128 ff., 171 f., 265, 394, 637 ; Crump and Jacob, op. cit., pp. 235, 252, 368 ; Painter, op. cit., pp. 148, 467 ; Browne, British Latin Selections, p. 36 ; Bloch, op. cit., vol. I, pp. 103,108.

وللمزيد من المعلومات عن القديس انسيلم وسيرته وحياته ومؤلفاته الفلسفية واللاهوتية ، أنظر حسن حنفى حسنين : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط (الاسكندرية ١٩٦٩) ، ص ١٠٣—١٧٧ ؛ بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) أشار شارل هومر هاسكنز إلى ذلك فى مؤلفه عن نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الذى قمنا بترجمته إلى العربية فى القسم الثانى من هذا المجلد . وللمزيد من المعلومات عن الإسمية والواقعية وعن وجهتى نظر الإسميين والواقعيين وكذلك مشكلة الكليات فى العصور =

وإلى جانب هؤلاء يوجد مفكر آخر أسهم بنصيب وافر فى نهضة القرن الثانى عشر ، وهو جون أوف ساليسبورى (حوالى ١١١٥ — ١١٨٠م) أسقف مدينة شارتر ، ومن أشهر تلامذة الفيلسوف بطرس ابيلارد . وهو من مدينة شارتر الفرنسية التى كانت مدرستها وقتذاك أعظم مركز لتدريس العلوم الإنسانية فى القرن الثانى عشر . وفيها وصلت تلك الدراسات ذروتها فى شخص ساليسبورى. وكانت ثقافته الكلاسيكية ومعرفته الواسعة بالكتاب اللاتين القدامى ، تسمح له بالرجوع إليهم والإفادة من إنتاجهم . وليس هناك من هو أحق من جون من علماء ذلك العصر بأن يحمل لقب « عالم فى الدراسات الإنسانية » . وقد اختتم حياته باعتباره أسقفا على شارتر حيث تلقى تعليمه ودراسته ، وترك عددا من البحوث والمؤلفات التى ضمنها آراءه وأفكاره (١).

والخلاصة أن هؤلاء المفكرين وغيرهم أسهموا بنصيب واضح فى الربط بين

=الوسطى ، أنظر بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٦١—٦٤ ، وكذلك
Stone, D., France in the Sixteenth Century (New Jersey, 1969), p. 15 f. ; Wallon, H., Saint Louis (Tours, 1879), p. 350.

(١) حول جون أوف ساليسبورى وسيرته وأفكاره ، أنظر المراجع التالية :
LaMonte, op cit., pp. 558 — 559, 565, 577, 733 ; Lewis, E., Medieval Political Ideas, vol. I (London, 1954), pp. 147, 169, 170 - 172, 197 f., 225, 246 f., 249, 276 f. ; Figgis, J. N., Political Thought from Gerson to Grotius (New York, 1960), p. 193 ; Heer, op cit., pp. 78—79, 90—92 ; Sabine, op. cit., pp. 216—217 ; Coulton, Medieval Panorama, p. 394 ; Crump & Jacob, op. cit., pp. 150, 164, 238, 263, 506, 515 f. ; Painter, op. cit., pp. 303, 447 f., 465, 467 ; Browne, op. cit., p. 57 f.

الأفكار والمبادىء التى أعلنوها ونادوا بها وبين النظريات المتعلقة بعلم اللاهوت . وقد ترك بطرس ابيلارد ، بصفة خاصة ، أثرا عميقــا فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية ، وبلغت الحركة المدرسية فى أيامه مرحلة الارتباط بالحركة الجامعية الناشئة . وبالرغم من أن أولى الجامعات الأوروبية لم تظهر إلا بعد مرور جيل تقريبا من وفاة ابيلارد ، فقد كان هذا الفيلسوف صاحب الفضل الأول فى بعث وإثارة موجة من النشاط الفكرى والعقلى ، وهى التى هيأت الجو — إلى جانب عوامل أخرى — لظهور جامعة باريس فيما بعد . ذلك أن ابيلارد بحث فى كتابه المعنون « نعم ولا » ، الذى أشرنا اليه من قبل ، عــددا من المسائل اللاهوتية بطريقة جدلية فلسفية . وأصبح هذا المنهج نموذجا لمن جاء بعده من اللاهوتيين والفلاسفة ، مثل بطرس اللمباردى ، فى تفنيد آراء معارضيهم ودحضها . وهكذا غدت طريقة السؤال والجواب هى الطريقة المثلى فى التدريس بالجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى . كذلك كان ابيلارد هو الرجل الذى استهل الحركة الجامعية فى أوروبا الغربية . ذلك أن المدارس الديرية بعــد أن أغلقت أبوابها فى وجه الطلاب العلمانيين بعد حركة انسيلم المعروفة ، اتجه هؤلاء الطلاب إلى المدارس الكاتدرائية ، وكانت هذه المدارس أكثر ميلا نحو الطابع العلمانى . وكانت مدرسة كاتدرائية باريس التى قام ابيلارد بالتدريس فيها هى النواة التى انبثقت منها أولى الجامعات فى الغرب ألا وهى جامعة باريس (١) .

وشاءت الظروف أن صاحب شهرة بطرس ابيلارد العلمية فى باريس ارتفاع شأن هذه المدينة فى الناحيتين السياسية والاقتصادية ، فأصبحت كعبة لطلاب العلم يحجون إليها من مختلف بلاد الغرب لفترة غير قصيرة من الزمن . واستمرت

---

(١) سنشير إلى ذلك فى شىء من التفصيل فى الفصل التالى .

تتمتع بهذا المركز العلمى الممتاز الذى أرسى أسسه ووضع لبناته الأولى ابيلارد، إلى أن ظهرت مجموعة أخرى من الجامعات الأوروبية ، وعندئذ بدأ الضغط يخف بعض الشيء عن باريس وجامعتها (١) .

هكذا ارتبطت الدراسات الفلسفية واللاهوتية والدينية بقيام جامعة باريس نتيجة لظروف خاصة أحاطت بالحركة الفكرية فى فرنسا . أما الدراسات القانونية فقد كان مسرحها — بطبيعة الحال — ايطاليا مهد الحضارة الرومانية القديمة والتعليم الرومانى القديم اللذين لم يندثرا طوال العصور المظلمة . وإذا كان التعليم فى فرنسا قد أصبح حكرا على المدارس التابعة للمؤسسات الدينية ، فإنه لم يكن كذلك فى ايطاليا . فقد وجد فى الشمال الإيطالى كثير من الأساتذة العلمانيين الذين لا يمتون إلى الدين بصلة والذين لا يخضعون للكنيسة وسلطانها ورقابتها . كما درج النبلاء هناك على تزويد أبنائهم بقسط من التعليم خروجا عن القاعدة المتبعة فى بقية أجزاء الغرب . ولهذه الأسباب كان جمهور المتعلمين فى ايطاليا من العلمانيين، بعكس الحال فى البلاد الواقعة شمال جبال الألب حيث كان العلم مقصورا على رجال الدين ، وبخاصة فى كل من فرنسا وألمانيا وانجلترا .

وكان طبيعيا كذلك أن يصحب الإختلاف والتباين الفكرى بين شمال أوروبا وجنوبها ، اختلاف وتباين فى مواد الدراسة بينهما . فبينما وجهت البلاد الواقعة شمال الألب اهتمامها إلى الجدل والمنطق والمشاكل المتعلقة بعلم اللاهوت ، اهتمت ايطاليا بالنحو والبلاغة والقانون . وكان لذلك فوائده فيما يتعلق بصياغة الوثائق والمستندات الرسمية وإعداد الفرد للعمل بالمحاماة أو كتابة الدعاوى والعرائض .

---

(١) Poole, From Domesday Book to Magna Carta, p. 232.

وقد استخدموا المنطق لخدمة الدراسات القانونية . كل هذا جعل الإيطاليين يقبلون على دراسة القانون والرجوع إلى تراثهم القديم . وترتبت على ذلك حركة بعث وإحياء للدراسات القانونية ارتبطت أول ما ارتبطت باسم المشرع ارنريوس Irnerius ومدرسة بولونيا . ولقد ظلت المدرسة الرومانية القديمة قائمة فى ايطاليا ، وبخاصة فى السهول الشمالية . ولهذا السبب ظل القانون الرومانى هو الآخر حياً لم يندثر كلية طوال العصور المظلمة إلى أن قامت نهضة القرن الثانى عشر لتعمل على إحياء هذه الدراسات وتلك المدرسة ، فى نفس الوقت الذى قامت فيه المدن فى الغرب بنشاطها التجارى والصناعى على أنقاض الإقطاع وحضارته ، تدافع عن استقلالها ضد سيادة الامبراطورية الرومانية المقدسة[١].

ولا يعنى هذا أن الناحية الروحية كانت أمراً منسياً تماماً فى ايطاليا وجنوب الألب ، فقد ظهرت واضحة تماما فى الصراع العنيف بين البابوية والإمبراطورية خلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر حول المسائل العلمانية والأمور الدنيوية ، وما ثار حوله من آراء ونظريات ومجادلات فقهية كان لها دويها وقتذاك .[٢]

---

(١) Coulton, Medieval Panorama, p. 386 ; Painter, op. cit., p. 469 ; Shorter Cambridge Medieval History, vol. I, p. 619.
أنظر أيضا سعيد عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، ص ١٩ وما بعدها ؛ هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) فيما يتعلق بالصراع العلمانى والنظريات التى قامت حوله ، أنظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية)، ص ٤٨ — ٦٢ والحواشى و ٢١٨ — ٢٢٤ ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، =

وهكذا أدت الظروف إلى وجود نهضة قانونية كبرى فى ايطاليا ارتبطت فى التاريخ باسم المشرع ارنريوس ومدرسة بولونيا للقانون (١) التى كانت قائمة بالفعل قبل عصره . وقد اشتهرت بدراساتها الأدبية والقانونية حتى لقد اجتذبت إليها من وراء جبال الألب عدداً غير قليل من طلاب العلم الذين كانت تستهويهم مثل هذه الدراسات . وأدت شهرة ارنريوس ومحاضراته فى القانون الرومانى إلى ذيوع صيت مدينة بولونيا ومدرستها فى كافة أنحاء أوروبا ، بالإضافة إلى عوامل أخرى من بينها موقع بولونيا الجغرافى الممتاز كمركز حيوى لالتقاء الطلاب الوافدين من البلاد الواقعة شمال جبال الألب وجنوبيها على السواء (٢) .

وهنا يجب أن نعرف أن مدرسة بولونيا لم تكتسب شهرتها بين يوم وليلة ، فقد مرت بعدة مراحل إلى أن أصبحت كبرى مدارس القانون فى إيطاليا . ومن ذلك الاهتمام الكبير بموسوعة جستنيان المعروفة باسم «مجموعة القوانين المدنية» (٣)

= ص ٢٦٥ وما بعدها ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، ج ١ (القاهرة ١٩٥٨)، ص ٢٥٩ وما بعدها ، و ج ٢ (القاهرة ١٩٥٩) ، ص ١٨٤ وما بعدها ؛ سعيد عاشور ومحمد أنيس : النهضات الأوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ، ص ٢٠٠ وما بعدها؛ سباين (ج) : تطور الفكر السياسى ـ ترجمة حسن جلال العروسى ـ ج٢ (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٣٢٠ وما بعدها ؛ وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ١١ وما بعدها .

(١) حول المشرع ارنريوس ومدرسة بولونيا ، أنظر Crump & Jacob, op. cit., pp. 259, 367; Kitchin, A History of France, vol. I, p.296; Painter, op. cit., p. 469 ; LaMonte, op. cit., pp. 572, 575.

(٢) أنظر سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ، ص ٢٨ .

(٣) حول هذه الموسوعة أنظر المراجع التالية : Runciman, S., Byzantine =

Corpus Juris Civilis ، ثم القيام بدراسة مصادر القانون ، ثم دراسة القانون فى حد ذاته كعلم مستقل له كيانه بعد أن اتسعت دائرته وبعد أن أصبح له أساتذته وطلابه المنقطعون له .[١] وقد كشف المؤرخ شارل هومر هاسكنز عن ذلك بوضوح فى كتابه عن نشأة الجامعات[٢] .

وإذا كان اررنيوس قد اهتم بإحياء القانون الرومانى ، فقد وجه زميلان له هما المشرعان الكنسيان جراشيان Gratian [٣] وهوجاشيو Hugaccio [٤] ،

Civilisation (London, 1948), pp. 74 – 75 ; Barker, E. (ed.), = Social and Political Thought in Byzantium (Oxford, 1957), pp. 75—76 ; Ostrogorsky, G., History of The Byzantine State (Oxford, 1956), pp. 51—52, 69—70.

راجع أيضا هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢١٩ ح ٢ .

(١) Cf. Katz, Decline of Rome, pp. 142—143.

(٢) أشار هاسكنز الى هذه التطورات عند حديثه عن بولونيا ومدرستها القانونية فى الفصل الأول من مؤلفه الذى قمنا بترجمته فى القسم الثانى من هذا المجلد .

(٣) حول الراهب جراشيان ومرسومه ، أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٠ و ٢٥٠ — ٢٥١ . راجع أيضا ;Goff, op. cit., p. 427 Coulton, Medieval Panorama, pp. 29, 272, 332 383, 615, 623 ; Crump and Jacob, op. cit., pp. 52, 57, 326, 344. 348, 351, 527 ; Kitchin, op. cit., vol. I, p. 296 ; Painter, op. cit., pp. 138, 268, 302.

(٤) وأما عن المشرع الكنسى هوجاشيو (ت ١٢١٠ م) الذى ترك أعمق الأثر على الفكر والقانون الكنسى فى زمنه ، أنظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٢١ و ح ٣ . راجع أيضا Crump & =

عنايتهما إلى إحياء القانون الكنسى . ويكتسب مرسوم جراشيان المعروف باسم Decretum الذى أصدره فى منتصف القرن الثانى عشر أهمية خاصة . فهو لم يصدر فى شكل مجموعة قانونية بالمعنى المفهوم ، وإنما فى شكل مرجع للطلاب امتاز بطابعه المدرسى . وكان هذا المرسوم — بطبيعة الحال — سنداً للبابوية فى صراعها العلمانى مع الإمبراطورية . ونجد فى مؤلف جراشيان المراسيم البابوية مرتبة حسب الموضوع ، وذلك على غرار القانون المدنى . وقد أضاف جراشيان إليها بعض التعليقات التى قصد من ورائها التنسيق بين المواد العديدة المتناقضة أو المتعارضة. وعلى الرغم من أن البابوات لم ينشروا هذا الكتاب بصفة رسمية، إلا أنه كان من أوائل الكتب التى أفادوا منها فائدة كبرى ، وبخاصة فى صراعهم ضد القوى العلمانية[١] .

وعلى هذا إذا كان لارنريوس الفضل فى الفصل بين دراسة القانون والفنون الأخرى ليجعل منه علماً مستقلا قائما بذاته ، كذلك كان لجراشيان وزميله هوجاشيو الفضل فى الفصل بين القانون الكنسى وعلم اللاهوت . ولهذا دلالته البالغة وأهميته الكبرى فى تطور النظام الجامعى فى بولونيا بعد أن تضافرت جهود أساتذتها من علمانيين وكنسيين على السواء للنهوض بمدرستها لتصبح بعد ذلك التاريخ بفترة وجيزة إحدى جامعتين رئيسيتين مع بداية الحركة الجامعية فى

Jacob, op. cit., pp. 327, 337, 352, 353, 356 ; Lewis, op. cit.,= vol. II, pp. 390, 526.

(١) كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ .
أنظر أيضا Haskins, C. H., The Renaissance of the Twelfth Century (Cambridge, 1928), p. 215 ; Rashdall, H., Univerities of Europe in the Middle Ages, (Oxford, 1936), vol. I, p. 127.

الغرب ، هما جامعة بولونيا فى ايطاليا وجامعة باريس فى فرنسا ، اللتين وضعتا أساس الحياة الجامعية والتعليم الجامعى فى الغرب الاوروبى فى أواخر العصور الوسطى .

نستخلص مما سبق أنه نشأ عن احتكاك الفكر بين عنصرين متباينين من المفكرين فى القرن الثانى عشر ، يقظة شعوب الغرب بعد سبات طويل عاشت فى كنفه ، الأمر الذى أسهم فى بعث النهضة العلمية والفكرية الهائلة التى عمت مدارس الغرب . وقد انعكست هذه النهضة على النشاط الأدبى والدراسات الأدبية التى احتلت جانبا بارزا فيها . فتم الرجوع إلى التراث الكلاسيكى القديم ، أو بالأحرى ماتبقى منه ، وبخاصة الأدب ، والعمل على إحيائه بالرغم من الضعف الذى أصابه فى القرون السابقة . وبدأت هذه الحركة فى مدينة ريمز الفرنسية على يد شخص يدعى جربرت الريمى Gerbert of Rheims الذى يعتبر الممثل الحقيقى للثقافة اللاتينية قبل عصر الفلسفة المدرسية والفكر الحر . وتكشف رسائله عن اهتمامه بالكتابة فى العديد من الموضوعات ، فضلا عن تعمقه فى الفلسفة وعلم البيان . كما أنها تلقى ضوءا كافيا على هذا العصر وأبرز سماته وخصائصه. ويتضح اهتمام جربرت بأمور العلم والتعليم من مراسلاته العديدة ، وبصفة عامة من طلب تزويده بكتب ومراجع معينة ، وكذلك من سعة اطلاعه واتساع دائرة معارفه وقراءاته (١).

وقد انتقلت هذه النهضة الأدبية من ريمز إلى مدينة شارتر الفرنسية على يد أحد تلامذة جربرت وهو الأسقف فولبرت Fulbert (١٠١٠م)، كما انتقلت إلى مدينة

---

(١) Ker, op. cit., p. 198 ; cf. also Bloch op. cit , vol. I, p. 79.

تورز على يد أسقفها هيلد برت Hildbert المتوفى سنة ١١٢٣ م ، والذى امتازت قصائده بسلامة أسلوبها وجمال تعبيرها . وهو يعتبر من أعظم شعراء عصره ، إذ كتب فى معظم فنون الشعر كالرثاء والمديح ، بالإضافة إلى الموضوعات الدينية المطروقة آنذاك (١) .

ومع ذلك فقد وجد فى القرن الثانى عشر بعض المتزمتين من رجال الدين الذين نادوا بمحاربة الأدب الكلاسيكى القديم بحجة أنه مظهر من مظاهر الوثنية التى جاءت المسيحية لكى تقضى عليها ، مقتفين فى ذلك خطى البابا جريجورى العظيم . ولكن أمثال هؤلاء كانوا قلة فى ذلك الحين ، ولم تؤثر أفكارهم الضيقة المحدودة على النهضة الجديدة التى انطلقت من عقالها نتيجة الظروف والمؤثرات التى استجدت على مسرح الأحداث وقتذاك ، فى عصر ساخط على كل ماهو قديم متعطش إلى كل ماهو جديد . وعلى هذا لم تكن هذه الفئة الرجعية خطرا على التراث الكلاسيكى الذى نادى أصحاب الفكر الحر بالرجوع إليه والإفادة منه . بل كانت دعوتهم صرخة فى واد ذهبت مع الريح دون أن يكون لها أى أثر . ذلك أنها لم تكن خطرا على المنادين بتحكيم العقل والمنطق فى كل شىء ، وبخاصة فيما يتعلق بأمور العقيدة فظهرت كتابات باللغة اللاتينية لها قيمتها ووزنها مثل رسائل الفيلسوف ابيلارد وجربرت الريمى وأشعار هيلدبرت التورى .

وإذا انتقلنا إلى ميدان البلاغة نجد أن إنشاء الرسائل قد احتل المكانة الأولى فى القرن الثانى عشر . إذ ازدهر فن تدوين الرسائل فى كل من بولونيا وفرنسا ،

---

(١) Cf. Coulton, Medieval Panorama, pp. 394, 411 et sqq. ; LaMonte, op. cit., p. 245 ; Bloch, op. cit., vol. I, pp. 65, 219, 228 ; Painter, op. cit, pp. 447 f., 467.

وقد كتبت بأسلوب نثرى لاتينى رفيع ، وبخاصة تلك التى ترجع إلى عهد الملك الفرنسى فيليب اوغسطس ، ويزيد من قيمة تلك الرسائل أنها تلقى الضوء على الأوضاع السائدة فى العصر الذى دونت فيه (١).

وأما عن الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر ، فلم يكن أقل شأناً من النثر ، إذ بلغ — هو الآخر — درجة كبيرة من الوفرة وتنوع موضوعاته وقوة أسلوبه . وقد تأثر هذا الشعر الجديد بكل من الشعر الكلاسيكى من ناحية والطابع الدينى الذى أوحت به المسيحية من ناحية أخرى. ويبدو الأثر الرومانى القديم فى أشعار هيلد برت ، بينما يتضح الطابع الدينى فى أشعار كل من ابيلارد وماربود Marbode (١٠٣٥ — ١١٢٣ م) ، وفى مئات القصائد التى تتناول الموضوعات الدينية البحتة مثل سير الرسل والقديسين والقصص المستوحاة من الكتاب المقدس (٢) .

وكانت التراتيم الدينية ، فى الواقع ، أخصب أنواع الشعر فى تلك الفترة من الزمن . إذ أن طبيعة العصر كانت تشجع مثل هذا النوع من الشعر الذى كان يدور معظمه حول القصة الخالدة المتعلقة بالله والإنسان كما وردت فى الكتب المقدسة ، والتى قامت عليها فلسفة المسيحية . وكانت مثل هذه التراتيم ترتل فى الكنائس فى أيام الآحاد والأعياد والمواسم الدينية ، وكان الناس يحفظونها عن ظهر قلب .

وإلى جانب هذا النوع من الشعر الدينى وجد أيضاً الشعر الغنائى أو الشعر الجولياردى، نسبة إلى شخصية غامضة ثار حولها الكثير من الجدل والخلاف بين

---

(١) Haskins, The Renaissance of the Twelfth Century, p. 142 ff.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

المؤرخين هى شخصية جولياس(١) . وكان هذا الشعر يدور حول تمجيد البطولة وسير الأبطال ، ويعبر عن الطبيعة وجمالها وعن مختلف العواطف والانفعالات والأحاسيس الإنسانية من الحب والبغض والغيرة والكره والأمل والألم وما إلى ذلك . وقد امتاز هذا النوع من الشعر بطابعه الدنيوى المرح الساخر الذى يدعو إلى التمتع بالحياة ومباهجها فى شتى صورها ومظاهرها . وهو يعتبر بمثابة رد فعل للمسيحية وفلسفتها التى حرمت على الفرد فى القرون المبكرة من العصر الوسيط مجرد التفكير فى الحياة الدنيا ومتعها وملذاتها . وكان من الطبيعى أن تعارض الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية مثل هذا الشعر الدنيوى لتعارضه مع روح المسيحية فحاربته حرباً لا هوادة فيها ، وأنزلت أشد أنواع العقاب بأصحابه والداعين إليه . ولكن هؤلاء الشعراء الدنيويين ، ويبدو أن معظمهم كانوا من طلبة العلم الجائلين ، لم يستكينوا ولم يسكتوا أو يستسلموا . بل اتخذوا من مفاسد الكنيسة ورجالها ، من رشوة أو سيمونية وزواج القسس وانغماس فى المسائل الدنيوية وانزلاق إلى الإقطاعية ، ومن بيع صكوك الغفران فى سوق البابوية وخروج على المثل والقيم التى تبنتها المسيحية — اتخذوا من كل هذه المفاسد وغيرها مادة خصبة لأشعارهم الغنائية الساخرة . فكانت هذه القصائد والأناشيد تعبر تعبيراً صادقاً عن روح العصر ، وعن تصميم الناس على الخروج على الكنيسة وتعاليمها بعد أن انحرفت هى نفسها عن التقاليد الأصيلة للمسيحية . وكانت تعبر ، بحق أيضاً ، عن روح السخط والاستياء التى عمت الغرب من أقصاه إلى أقصاه . ولم يسلم البابا نفسه من سخرية أولئك الشعراء وتهكمهم عليه . وكان مثل هذا

---

(١) تعرض هاسكنز فى الفصل الثالث من كتابه « نشأة الجامعات » المترجم فى القسم الثانى من هذا المجلد ، للشعر الجولياردى والشعراء الجوليارديين وشخصية جولياس فى شىء من التفصيل والإسهاب والتحليل .

الشعر الفكاهى الساخر يلقى الشيوع والرواج فى كل مكان فى الغرب ، لأنه كان يعبر عن سخط مكبوت وأمل فى التجديد . ومن أبرز شعراء هذا النوع هيوج أوف اورليانز الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . وقد درس فى باريس ثم قام بالتدريس فيها فيما بعد ، وتعمق فى الدراسات الكلاسيكية ، وكان على معرفة بأوزان الشعر اللاتينى القديم مما ساعد على نبوغه فى قرض الشعر الخفيف الذى تجلت فيه شخصيته ومواهبه ، والذى كشف بوضوح عن أوضاع عالم متغير . وأما الشاعر الجولياردى الثانى فهو مجهول الإسم وإن كان يطلق عليه «اركبويت» ، وتتجلى فى أشعاره اللاتينية الروح الدنيوية الكلاسيكية (١).

نخلص مما سبق أن نهضة القرن الثانى عشر كانت نهضة حقيقية لايمكن إغفالها أو التهوين من شأنها ، وقد شملت كافة النواحى والأنشطة والمجالات ، وعلى رأسها أمور العلم والتعليم . وقد سبقتها عوامل وظروف عديدة متعددة هيأت الجو لظهورها وأوجدت تربة خصبة لنموها وازدهارها ، ترجع جذورها إلى أواخر القرن الثامن وبدايات القرن التاسع أيام الإمبراطور شارل العظيم ، بل وقبل ذلك أيام النهضة الإيرلندية فى القرن الثامن . كما ترتبت عليها نتائج وآثار لها أهميتها البالغة فيما يتعلق بنشأة الجامعات التى تعتبر من نتاج العصور الوسطى والتى تخرج من بين جدرانها الشباب المثقف ، مما ساعد على ظهور عصر النهضة الذى يعتبر مرحلة فاصلة بين التاريخ الوسيط بفلسفته ومثله وأفكاره ومبادئه وبين العصر الحديث بمدنيته العملاقة الزاهرة .

(١) Painter, op. cit., p. 447 f.; Bloch, op. cit., vol. I, p. 104. راجع أيضا سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٥ . وقد تعرض هاسكنز لهذه الناحية فى شىء من التفصيل والتحليل فى الفصل الثالث من مؤلفه المترجم فى القسم الثانى من هذا المجلد ، والذى تناول فيه حياة الطلبة فى العصور الوسطى .

الفصل الرابع

جامعة العصور الوسطى

المراحل التى مرت بها ، ونشأتها ، وانتشارها

— الجامعة بمفهومها الحديث من نتاج العصور الوسطى .

— المراحل الرئيسية التى مرت بها الجامعة إلى أن اكتملت شخصيتها :

ا — تأسيس المدارس العامة الملحقة بالمؤسسات الدينية .

ب — قيام المعاهد العلمية .

ج — إنشاء اتحادات الطلاب .

د — الاعتراف الرسمى بالكيان الجامعى من قبل السلطات الدينية والدنيوية على السواء .

— أهم المراكز العلمية الجامعية فى القرن الثانى عشر :

ا — جامعة باريس .

ب — جامعة بولونيا .

— جامعات القرن الثالث عشر والقرون التالية له .

— الجامعة المعنوية قامت فى العصور الوسطى قبل الجامعة المادية .

لا خلاف أن تأسيس الجامعة بمعناها المعروف فى كل العصور يعتبر — حسبا أوضح كل من هاسكنز ولامونت وغيرهما من المؤرخين المعنيين بهذه الناحية — من أهم الآثار الفكرية التى أنتجتها العصور الوسطى فى دوائر العلم والتعليم . إذ ليس هناك فيما سبق فى التاريخ القديم أيام اليونان والرومان القدماء مايدل على وجود مثل هذه الفكرة الجامعية التى عرفت لأول مرة فى القرون الوسطى . بل إن التاريخ القديم بكل ماوصل إليه من التقدم والازدهار وما حققه من الرقى فى شتى نواحى الحضارة الفكرية لم يكن فيه جامعة واحدة بالمعنى الذى نفهمه (١) . وقد أصبحت تلك الجامعات مراكز علمية تفيض بالحيوية والنشاط والحركة الدائبة ، كما غدت أمراً مثيراً للدهشة والإعجاب فى ذات الوقت . إذ اجتذبت إليها الطلاب من كل مكان فى الغرب الأوروبى ، وكان من بين أساتذتها أكثر رجال العصر مقدرة وألمعية وكفاءة (٢) .

---

(١) LaMonte, The World of the Middle Ages, p. 567 ; Haskins, C. H., The Rise of Universities (New York, 1960), p. 1.
أنظر أيضا الفصل الأول من مؤلف هاسكنز سالف الذكر وعنوانه « الجامعات المبكرة » المترجم فى القسم الثانى من هذا المجلد . وهنا يجب أن نذكر أن الجامع الأزهر كان يعتبر من أقدم الجامعات التى ظهرت فى أواخر العصر الوسيط سواء فى الشرق أو الغرب ، وقد أسسه القائد جوهر الصقلى عام ٩٧٢ م ، وكان لهذا الحدث أهميته البالغة ليس فى مصر فحسب وإنما فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وقد أوقف عليه الخلفاء الفاطميون المتعاقبون وبخاصة العزيز الهبات والعطايا . وأخذ الجامع الأزهر صفته الجامعية الواضحة بعد اكتساح المغول لمدينة بغداد سنة ١٢٥٨ م بصفة خاصة . أنظر Glanville, S.R.K. (ed.), The Legacy of Egypt, p. 351. وللمزيد من المعلومات عن الأزهر كجامعة علمية ، أنظر Atiya, A. S., Crusade, Commerce and Culture (Bloomington, 1962), pp. 244-246 ; Dodge, B., Al-Azhar - A Millenium of Muslim Learning, Princeton, 1961 ; Mahmud, S.F., The Story of Islam (Karachi, 1959), p. 307.

(٢) Cf. Sabine, History of Political Theory, p. 215.

وعلى هذا يمكن القول إن الجامعات بشكلها ونظمها التى وصلت إلينـا عبر القرون الطويلة تعتبر من مخلفات العصر الوسيط ومآثره، وهى تعبر — بحق — عن روح ذلك العصر الذى نشأت فى ثناياه وترعرعت بين أحضانه . وكان يطلق عليها فى العصور الوسطى الإسم اللاتينى Studium generale (١) ، أى «المدرسة العامة » ، بمعنى أنها كانت المكان العام الذى يستقبل طلاب العلم الوافدين إليه من جميع الجهات حيث يتلقون قسطاً من الدراسات العليا فى مختلف فروع المعرفة على أيدى أساتذة مختصين أكفاء . وقد شاع لفظ « المدرسة العامة » عند مستهل القرن الثالث عشر ، وهو الذى يعبر عن الجامعة فى معناها الحديث . وهى بذلك تختلف اختلافاً واضحاً عن تلك المدارس المحلية المحدودة الضيقة التى أشرنا إليها من قبل مثل المدارس التابعة للمؤسسات الدينية بمختلف أنواعهـا ومدارس القصور والفروسية .

وغنى عن القول إن هذه الجامعات لم تكن وليدة يوم وليلة ، ولم تنشأ طفرة واحدة فى محيط العلم والتربية والتعليم ، شأنها فى ذلك شأن أى ظاهرة من ظواهر التاريخ أو أى حركة من حركاته . إنما كانت نتيجة طبيعية ومنطقية لعدة عوامل وظروف ترجع إلى قرون طـويلة سابقة ، إلى أن انتهى الأمر بغرس النواة الجامعية بمعناها المألوف . وقد بدأت هذه النواة صغيرة متواضعة فى أول الأمر يكاد لايحس بها أحد ، ولكنها أخذت تنمو نموا تدريجيا بطيئا مستمرا ، وكان من حسن حظهـا أن وجدت تربة صالحة ومنـاخا ملائمـا لنموها إلى أن شبت

(١) Crump & Jacob, Legacy of the Middle Ages, p. 259; Coulton, Medieval Panorama, p. 394 ; Baldwin, Medieval Church, pp. 68, 69 ; LaMonte, op. cit., p. 569 ; Bailly, A., Saint Louis (Paris, 1949), p. 223 ; Moreau, E. de, Histoire de l'Eglise (Paris,1931), p. 154. أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

وترعرعت ، ثم نضجت واكتملت شخصيتها بمختلف كلياتها ومناهجها وأساتذتها وطلابها ونظمها وأنظمتها .

وإذا رجعنا إلى الوراء ، وألقينا نظرة فاحصة مدققـــة إلى تطور الحركة الفكرية والعلمية التى أثمرت بنشأة الجامعات ، يمكن القول بأن الجامعات قد مرت بعدة مراحل رئيسية مميزة إلى أن وصلت إلى طور النضج والكمال(١).

تقع المرحلة الأولى من تاريـخ نشأة الجامعات فى المدارس العامة الملحقة بالمؤسسات الدينية من كنائس وأديرة وكاتدرائيات وأبروشيات .(٢) فقد كانت هذه المؤسسات هى المشعل الذى أضاء ظلمات القرون الأولى من العصور الوسطى، وارتبطت بها حركات الإصلاح الدينية العديدة التى ظهـرت فى أوروبا من وقت لآخر ، وأصبحت بحكم مركزها والظروف التى أحاطت بنشأتها المهيمنة على التعليم منذ البداية ، كما أصبحت معاهد العلم من ملحقاتها فترة غير قصيرة من الزمن.(٣) وكان من الطبيعى أن يرتبط تأسيس مثل هذه المدارس المبكرة بالدين ، فلم يكن الغرض الأصلى منها هو إعـداد أفراد الشعب لمواجهة مطالب الحيـاة الدنيا أو العمل فى الوظائف الحكومية ، وإنما كان — أولا وقبل كل شىء — وسيلة لإعداد الصغار لـكى يصبحوا قساوسة فيما بعد ويخدمون فى السلك الكنسى . ولذلك أصبح التعليم فى تلك المدارس منحصرا ، أساسا، فى تفهم الدين وتلاوة الصلوات وقراءة الكتب المقدسة والقيام بالطقوس الدينية والخدمات الشعائرية الكنسية . وكان

(١) Baldwin, op. cit., p. 70.

(٢) Crump & Jacob, op. cit., p.259; Poole, op. cit., p.252.

وللمزيد من المعلومات عن النظام الأبرشى فى المجتمع الغربى الوسيط ، أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١٠٣ وما بعدها .

(٣) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٩٩ — ١٠١ .

الأساقفة ورؤساء الأسافقة ومقدمو الأديرة بحكم مراكزهم هم نظار هذه المدارس ومديريها بل ومؤسسيها (١).

وكان من الطبيعى أيضا أن ترتبط مناهج الدراسة فى تلك المدارس بما يحتاج إليه الطالب لتفهم العلوم اللاهوتية والقيام فى النهاية بواجبه كرجل من رجال الدين . ولذلك كانت الأجرومية وقواعد اللغة اللاتينية هى أولى المواد وأهمها ، وقد اعتنى المعلمون بتدريسها لطلابهم . وتأتى بعد ذلك العلوم الكلامية والمقصود بها المنطق والجدل ، والهدف الرئيسى من تدريسها إقناع الخارجين على الدين والرد المقنع على الهراطقة والوثنيين . ثم تأتى قواعد الحساب والفلسفة لتحديد أيام الأعياد والقديسين . وكان التلميذ يتلقى أحيانا دروسا فى فن الموسيقى وقواعد الغناء حتى يتمكن من أداء التراتيم الكنسية . ويجب أن نفهم أن كل هذه المواد كانت بجرد أداة لتفهم الدين فحسب ، وإن كانت قد ساعدت فيما بعد وبطريق غير مباشر على تطور الفكر البشرى وتحرره من القيود التى عاش أسيرها والتى فرضتها الكنيسة عليه لعدة قرون .

والواقع أن هذا التفكير يرجع إلى أقدم القرون فى العصور الوسطى . إذ عبر عن ذلك فى القرن الرابع الميلادى القديس أوغسطين أوف هيبو ، وردد صدى هذا القول فى القرن الثالث عشر القديس بونافنتورا St. Bonaventura بقوله : « إنه بدون درس مختلف العلوم دراسة علمية لا يكون من المستطاع فهم الكتب المقدسة . »(٢)

---

(١) Coulton, Medieval Panorama, p. 385 ; Funck-Brentano, F., Le Moyen Age (Paris, 1922), p. 191. — أنظر أيضا كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٣٦٣ .

(٢) Cf. Crump & Jacob, op. cit., p. 256.
أنظر أيضا ماسبق ، ص ٤٠ من هذا الكتاب.

وكان من الطبيعى أن يشجع كبار رجال الدين فى الكنيسة اللاتينية وعلى رأسهم البابوات مثل هذه المدارس التى أنشئت لتثقيف الطلاب ثقافة دينية بحتة تخدم أولا وأخيرا أهداف الدين المسيحى . كذلك لقيت الكثير من عناية العلمانيين من الحكام والملوك والأباطرة منذ أيام الإمبراطور شارلمان الذى أمر بتأسيس مدرسة بكل دير ، وأباح التعليم للجميع فى تلك المدارس لمن يرغب فيه وبدون مقابل . وكان يحث رؤساء الأديرة وعامة رجال الدين فى رسائل حفظها لنا الزمن من الضياع على الاهتمام بأمور العلم والتعليم ، وعلى تثقيف أنفسهم ودراسة اللغة اللاتينية وأجروميتها حتى يمكنهم أداء الخدمات الدينية بها وتلاوة الكتب المقدسة والقيام بالوعظ بأسلوب سليم خال من الشوائب والأخطاء (١) .

كان هذا فى أوائل القرن التاسع الميلادى ، وفى أخريات ذلك القرن نهج الملك الفريد السكسونى نهج شارل العظيم مقتفيا خطاه ؛ وأرسلت مراكز الإشعاع الثقافى بأشعتها من غالة إلى الجزيرة البريطانية لتنتشر فى باقى أجزاء القارة . ومع الزمن ازدادت هذه المدارس الدينية عددا ، وازدهر بعضها ورجحت كفتها على غيرها من المدارس بسبب ظهور أساتذة مبرزين فيها مما دفع طلاب العلم على الإقبال عليها من كل مكان فى الغرب لتلقى العلم على أساتذتها والإفادة منهم . ولكن إذا كانت بعض هذه المدارس قد ذاع صيتها واتسع نطاقها وعظم شأنها ، فقد تدهورت بعض المدارس الأخرى التى لم يتيسر لها الوقوف على قدميها لأسباب متعددة

---

(١) أنظر الترجمة العربية لخطابى شارلمان إلى رؤساء الأديرة ورجال الدين فى دولته فى الملحقين الأول والثانى بآخر القسم الأول من هذا المجلد ، راجع أيضا ، ما سبق ، ص ٦٤ — ٦٥ من هذا القسم .

من بينها وجود أساتذة خاملين بها ، وانتهى الأمر بها إلى الزوال (١).

وهكذا ، أعقب تأسيس المدارس فى الأديرة وغيرها من المؤسسات التابعة للجهاز الكنسى البابوى فى الغرب ، ازدهار بعض تلك المدارس ونموها فى المرحلة الثانية حيث تحولت إلى معاهد علمية كبيرة بفضل أساتذتها الذين كانوا يحاضرون بها . فكلما ارتفعت مكانة الأساتذة من الناحية العلمية ، كلما ارتفع شأن المعهد الذى يدرسون فيه ، وكلما ازداد إقبال الطلاب عليه من كل حدب وصوب . ونجد مثلا حيا لذلك فى عهد الفيلسوف بطرس ابيلارد صاحب فلسفة الشك والتشكك الشهيرة ، حينما أخذ يحاضر ويجادل فى باريس ، وقام القديس برنارد أوف كليرفو بتفنيد آرائه وتعاليمه ومقارعته الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان والدليل بالدليل ، فأثارا جدلا علميا رائعا ، وحركة فكرية نشطة ، وهرع إليهما آلاف الطلاب من الممالك المجاورة يستمعون إليهما ويستفيدون منهما وينهجون نهجهما ، وهو أمر لم تألفه باريس من قبل . وهكذا أخذ الإقبال يتزايد على تلك المعاهد لتلقى العلم والتزود به ، واتضح ذلك بصفة خاصة خلال القرن الثانى عشر الذى ارتبط بقيام النهضة الفكرية الأولى ، والذى بدأت الجامعات الأولى تظهر فى النصف الثانى منه ظهوراً جلياً واضحا (٢) .

---

(١) Goff, La Civilisation de l'Occident Médiéval, p. 113 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 385, ff., 393 f. ; Baldwin, op. cit., p. 68 ; LaMonte, op. cit., p. 567 ; Brinton & Others, A History of Civilization, vol. I, p. 305. أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج٢ ، ص١٣١ وما بعدها ؛ كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٣٦٢ و ٣٦٦ .

(٢) Coulton, Medieval Panorama, p. 394. أنظر أيضا كرامب =

وكانت النتيجة أن عدد الطلبة أخذ يزداد فى تلك المعاهد زيادة مطردة ، حتى أنهم بلغوا الآلاف المؤلفة فى باريس وحدها التى كانوا يأتون إليها من كل مكان لتلقى العلم فى مراكزه المعروفة وقتذاك . وإزاء ذلك ، وحتى يضمنوا لأنفسهم سبل الأمن والسلامة والاستقرار فى هذه المراكز العلمية الجديدة البعيدة عن بلادهم وأوطانهم ، قرروا أن ينشئوا فيما بينهم اتحاداً unit أو نقابة guild ، على نسق ما كان جاريا فى العصور الوسطى بين طوائف التجار والعمال والصناع . والهدف أن يكون هذا الاتحاد — كما يفهم من اسمه ومدلوله — بمثابة شخصية معنوية تنظر فى مشاكلهم وترعى شئونهم ومصالحهم الخاصة والعامة ، وتستهدف أمنهم وسلامتهم وتحررهم من وسائل الضغط التى قد يتعرضون لها وهم فى مراكز إقامتهم الجديدة ، حتى يتسنى لهم مواصلة الاشتغال بالعلم والتعليم فى يسر واطمئنان لايشغل بالهم شىء ولا يعوقهم عن مواصلة دراستهم عائق . ولقد ظل هذا النظام مائعا فى بادىء الأمر . ولكن كلما لقى طلاب العلم مضايقات داخل المدينة التى يتلقون فيها العلم ، رحلوا عنها جماعة ، ولم تكن هناك عقبات تحول دون رحيلهم ، فلم تكن ثمة مبان يرتبطون بها أو تشدهم إليها (١) . والحقيقة أنه ثارت مشاكل عديدة فى وجوه اولئك الطلاب الغرباء الذين تركوا ديارهم ليلتحقوا بتلك المعاهد النائية ، من بينها تهيئة وسائل وسبل الراحة لهم من حيث المأوى والمأكل ، والحيلولة دون استغلال المدينة التى يقيمون فيها لهم فيما يتعلق بإيجارات المساكن وأسعار اللوازم والحاجيات الضرورية وما إلى ذلك . وقد

=وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٣٦٧ — أنظر خريطة « المراكز الفكرية فى الغرب الأوروبى فى القرن الثانى عشر » بآخر القسم الأول من هذا الكتاب .

(١) Crump & Jacob, op. cit., p. 259.

استدعى كل هذا إيجاد تلك الرابطة التى تجمع بينهم وتعمل على تأمينهم وحمايتهم من الاستغلال والمضايقات وتتولى شئونهم وترعاها (١) . وقد اتخذت خطوة أخرى فى هذا السبيل عندما افتتح بعض المدرسين نزلا للمأوى والمأكل لم يكن يسمح للإقامة بها سوى للطلبة المغتربين ، بينما أقيمت نزل لصالح المدقعين فى الفقر كان ينفق عليها من الإعانات الخيرية الخاصة (٢).

وجاءت بعد ذلك المرحلة الرابعة والأخيرة فى تكوين الجامعات ، وتتمثل فى الاعتراف الرسمى بشخصيتها وكيانها من جانب السلطات الدينية والدنيوية على السواء . وبذلك أصبح للجامعة من الحقوق الخاصة بها باعتبارها وحدة مستقلة لها كيانها ومقوماتها مايضمن لها سلطة تنظيم أمور العلم والتعليم فيها ، ومنح الدرجات العلمية ، وتحديد المناهج والمقررات وما إلى ذلك مما يضمن لخريجيها حق مزاولة مهنة التدريس ، إما بالدخول فى السلك الكنسى أو بالانضمام إلى

---

(١) Coulton, Medieval Panorama, p. 394 f. ; Baldwin, op. cit., p. 68 ; LaMonte, op. cit., p. 568. أنظر أيضا كتاب كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٣٦٧ وما بعدها .

(٢) Crump & Jacob, op. cit., p. 259. وجدير بالذكر أنه كان يطلق على هذه النزل اسم Colleges ، أى بيوت الطلبة ، وهى عبارة عن دور تعيش فيها مجموعة من الطلبة فى مجتمع خاص بهم ، وقد غدت الوحدة الرئيسية لمعشر الطلاب . وكان نشأة هذا النظام فى باريس ، وانتقل منها إلى أكسفورد وكامبريدج ، ولا يزال يعتبر من السمات المميزة للنظام الانجليزى . وأقدم هذه البيوتات كان يعرف باسم Dixhuit ، وقد تأسس فى باريس عام ١١٨٠ م ، وكان يحتوى على ثمانية عشر سريرا خصصت للطلبة المعوزين . وبعد ذلك سرعان ما استقل الطلبة بدار خاصة بهم تحولت فيما بعد إلى معهد علمى . أنظر عن ذلك LaMonte, op. cit., p. 571 ; Funck-Brentano, op. cit., 202 ; Wallon, H., Saint Louis (Tours, 1879), p. 349 ; Boutié, L., Paris au temps de Saint Louis (Paris, 1911), pp. 127—129.

خدمة الحكومة (١) .

نضرب مثلا لذلك بجامعة باريس التى منحها فيليب اوغسطس ملك فرنسا مرسوما سنة ١٢٠٠ م نص فى شىء من التفصيل على كافة الإجراءات التى تتخذ لحماية طلبتها فى حالة الاعتداء عليهم، والعمل على المحافظة على حياتهم إذا ماتعرضوا للخطر ، حتى يتفرغوا لمهمتهم الأصلية وهى مواصلة العلم ، إلى جانب العديد من الامتيازات الأخرى التى منحها لهم (٢) . ونجد مثلا ثانيا فى مرسوم البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١م)الذى منحه لتلك الجامعة سنة ١٢٣١م، والذى ركز فيه على ضرورة تحرى الدقة عند اختيار الأساتذة للعمل بالجامعة ، حتى لايقع الاختيار إلا على الأكفاء فحسب ، وذلك حفاظا على المستوى العلمى للجامعة . فضلا عن النص على تنظيم شئون الطلبة فيما يتعلق بالمناهج الدراسية والمحاضرات وعددها ومواعيدها ووسائل الانتظام فيها ، والأجازات والزى المميز للطلبة ، إلى جانب العديد من التشريعات التى تكفل حمايتهم من أى أذى أو سوء مع طمأنتهم على حياتهم ومستقبلهم . ومما يذكر أن البابا منح الأساتذة والطلاب فى هذا المرسوم — بصفة رسمية — حقا جديداً لم يكونوا يتمتعون به من قبل ، وإن كان تأكيداً لأوضاع فرضت نفسها وقتذاك ، ألا وهو حق التوقف عن الدراسة والامتناع عن إلقاء المحاضرات إذا لحقت إساءة بأى طالب (٣) .

---

(١) Coulton, Medieval Panorama, p. 395. أنظر أيضا ابراهيم العدوى : المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى ، ص ١٦٥ .

(٢) أنظر الترجمة العربية لمرسوم فيليب أوغسطس فى الملحق الثالث بآخر القسم الأول من هذا المجلد .

(٣) أنظر الترجمة العربية لمرسوم البابا جريجورى التاسع فى الملحق الخامس بآخر القسم الأول من هذا المجلد

وهكذا أخذ البابوات والأباطرة يصدرون المراسيم والبراءات تباعا لصالح تلك الجامعات ، والتى خولتها الكثير من الحقوق والامتيازات، وبالتالى رفعت من مكانتها وهيبتها . وبالرغم من أن مثل هذه المراسيم والبراءات كانت تستهدف أساسا تشجيع العلم والتعليم فى عصر متعطش للمعرفة وفى زمن شملت فيه النهضة الفكرية الغرب الأوروبى من أقصاه إلى أقصاه ، إلا أنها توضح فى ذات الوقت كيف أن المسئولين وأولى الأمر فى الغرب كانوا يعملون بشتى السبل والوسائل على أن تبقى هذه الأعداد الكبيرة الهائلة من الطلاب فى المراكز العلمية التى يتلقون فيها علمهم فى باريس أو بولونيا أو اكسفورد ، وما يترتب على ذلك من إنعاش الحالة الاقتصادية فى تلك المدن ، فى وقت أخذت فيه المدينة بسكانها الأحرار ونشاطها التجارى والصناعى واقتصادها النقدى تحل محل الإقطاع باقتصاده الطبيعى وحضارته الريفية الزراعية التى ترتبط بالأرض وما تغله من خيرات . وعلى هذا كان توقف طلبة أى جامعة عن الدراسة ورحيلهم عن المدينة التى يتلقون فيها العلم يعنى باختصار كساد الحالة الاقتصادية فيها ، بينما كان بقاؤهم فيها بأعداد كبيرة يؤدى إلى انتعاشها اقتصاديا . فلم يكن من الصالح العام هجرة هذه الجموع الهائلة من طلاب العلم من المدن التى كانوا يتلقون فيها علمهم مهما كانت الأسباب . بل كان أولو الأمر فى تلك المراكز العلمية يبذلون قصارى جهدهم للعمل على بقاء الطلبة فيها وعدم نزوحهم عنها بتقديم المغريات لهم فى شكل براءات ومراسيم .

وكيفما كان الأمر ، فقد وجدت فى أوروبا منذ القرن الثانى عشر أربعة مراكز علمية جامعة تمتعت بشهرة واسعة ، وتخصص كل منها فى ناحية معينة أظهر فيها تفوقا واضحا . وهذه المراكز هى جامعة باريس التى اشتهرت بالدراسات اللاهوتية ، وجامعة بولونيا التى اشتهرت بأنها مدرسة القانون ، وجامعة سالرنو التى تخصصت فى الطب ، وجامعة اكسفورد التى تعتبر واحدة من أعظم الجامعات

الانجليزية والتى تشبه جامعة باريس فى كثير من الوجوه ، وإن جاء تطورها متأخراً بعض الشيء عن الجامعات الثلاث السابقة (١) .

ولا شك أن الجامعتين المبكرتين اللتين طبقت شهرتهما الآفاق مع بداية الحياة الجامعية فى الغرب هما جامعة باريس الفرنسية وجامعة بولونيا الإيطالية . ومما لاشك فيه أيضا أنه كان لهما أثرهما الواضح فى نشأة وتطور بقية الجامعات التى عرفتها أوروبا منذ أخريات القرن الثانى عشر فصاعداً .

أما عن جامعة باريس ، فقد ثارت الروايات حول الأصول الأولى لها . فهناك من يرجع بها إلى مدرسة القصر أيام شارلمان ، أى إلى عده قرون قبل خروجها الفعلى إلى حين الواقع والأشياء الملموسة . وهناك من يربط بينها وبين المدارس التى قام الفيلسوف ابيلارد بالتدريس فيها فى القرن الثانى عشر مثل مدرسة كاتدرائية نوتردام ومدرسة القديسة جنيفييف Sainte-Geneviève ومدرسة كنيسة القديس فيكتور. ومهما يكن من شيء ، فالمعروف أن هذه الجامعة قد ولدت داخل نطاق أسقفية باريس ومدرستها . ولهذا اتخذت منذ البداية طابعا دينيا لاهوتيا فلسفيا واضحا، شأنها شأن بقية الجامعات التى وجدت فى شمال أوروبا (٢).

---

(١) Cf. Mott, G. F. & Dee, H. M , An Outline-History of the Middle Ages (New York, 1950), p. 169.

(٢) أنظر ; Duroselle, Histoire du Catholicisme, p. 68 Coulton, Medieval Panorama, p. 394 ; Painter, A History of the Middle Ages, p. 470 ; LaMonte, op. cit., p. 567 f. ويقول جون لامونت (ص ٥٦٧ — ٥٦٨) أن جامعة باريس هى ثمرة الامتزاج بين مدارس ثلاث هى : مدرسة كاتدرائية نوتردام ومدرسة دير القديسة جنيفييف ومدرسة دير القديس فيكتور . أنظر أيضا سعيد عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى، ص ٥١ — ٥٣ ، هذا، =

ولقد اكتسبت مدينة باريس نفسها شهرة واسعة منذ أيام ابيلارد ، وكانت النتيجة أن ازداد عدد الدارسين والمدرسين بها . وانتهى الأمر بقيام رابطة أو نقابة union أو جامعة guild أو universitas لتنظيم أمور الأساتذة وتحديد علاقاتهم ببعضهم البعض من جهة وعلاقاتهم بالمجتمع المحيط بهم من جهة أخرى . وكان على المدرس الذى يرغب فى التدريس أن يحصل على ترخيص أو براءة لمباشرة مهنته من أمين كاتدرائية باريس ،وهو الشخص المكلف بالإشراف على شئون العلم والتعليم داخل حدود أسقفية باريس . وغير خاف أن قيام نقابة الأساتذة وتبلورها إلى أن وصلت إلى طور النضج لم يتم بين يوم وليلة أو بطريقة فجائية ، وإنما استغرق فترة غير قصيرة من الزمن . وكانت هذه النقابة هى اللبنة الأولى فى بناء جامعة باريس نفسها . وعلى هذا فإن نشأة هذه الجامعة كانت بالتالى نتيجة لتطور تدريجى بطىء مستمر .وكان طبيعيا أن يستتبع ذلك الاعتراف بالطلبة الذين يتلقون العلم فى باريس كهيئة لها شخصيتها ومقوماتها وكيانها

---

(١) ولقد اختلفت آراء المؤرخين المحدثين المعنيين بهذا الموضوع أمثال راشدال وهاسكنز حول الروايات المتعلقة بنشأة جامعة باريس ومدى نصيبها من الصحة . وجدير بالذكر أن هذا الموضوع الهام لا يزال يحتمل الكثير من الدراسة والبحث للوصول إلى رأى حاسم قاطع بشأنه . ويرى الكاتب ديروزيل (نفس المرجع والصفحة) أن القرن الثانى عشر كان يعتبر قرن المدارس الأسقفية ، وأنه مع بدايات القرن الثالث عشر ، وحتى يحول البابوات دون قيام هرطقات جديدة تهز الجهاز الكنسى البابوى ، لقد عملوا جاهدين على حصر مصادر الثقافة والفكر وتنظيمها وتلسيقها بحيث تصبح كلها خاضعة لأحكامهم وتشريعاتهم . ولقد قامت بمساعدتهم فى هذا السبيل جماعات الإخوان الرهبان التى كان أفرادها يعيشون على التسول والإحسان . وهذا يعنى أن ديروزيل يرى أن الأصول الأولى لجامعات العصور الوسطى ، وعلى رأسها جامعة باريس ، ترجع أساسا الى خشية البابوية من ظهور هرطقات جديدة تهدد كيانها وتقوض بنيانها ؛ أى أنها قامت بتشجيع البابوية وتأييدها حتى تكون سندا لها .

وحقوقها وامتيازاتها المعترف بهـا . وجدير بالذكر أنه كان ينظر إلى هؤلاء الطلبة على أنهم من رجال الدين لأنهم كانوا مرتبطين بمدارس كنسية . ولهذا السبب تمتعوا بالحصانات التي تمتع بها باقي الأفراد المرتبطين بالـكنيسة .

وفي سنة ١٢٠٠م حدث تطور هام في تاريخ جامعة باريس . إذ حدث أن اعتدى بعض أهالي المدينة على جماعة من الطلبة ، وقام محافظ باريس بالتنكيل بالطلبة ، فقاموا بثورة يطالبون بمنح جامعتهم المزيد من الحقوق والامتيازات . والتجأ أساتذتهم إلى فيليب اوغسطس ملك فرنسا يلتمسون منه رفع الظلم الذي لحق بهم . وخشي الملك الفرنسي أن يهجر الطلاب والأساتذة مدينة باريس وماقد يترتب على ذلك من آثار من حيث الإضرار باقتصاد البلاد ، فأمر بعقاب المعتدين وحبس محافظ باريس لموقفه المتشدد من الطلبة . وفي نفس العام منح الجامعة براءة نصت على أن تتولى الكنيسة محاكمة أي طالب تقبض عليه السلطات المدنية في تهمة أو جريمة ما ، كما طالب المواطنين باحترام حقوق الطلبة ومعاملتهم بالحسنى واللين ، واشترط على محافظ المدينة الجديد احترام امتيازات الجامعيين وعدم المساس بها . ويلاحظ أن هذه البراءة ، وإن لم تنص رسميا على الاعتراف بالجامعة ، إلا انها اعترفت ضمنيا بقيام هيئة من رجال العلم والتعليم لها حقوق يجب مراعاتها وامتيازات تتمتع بها [١] .

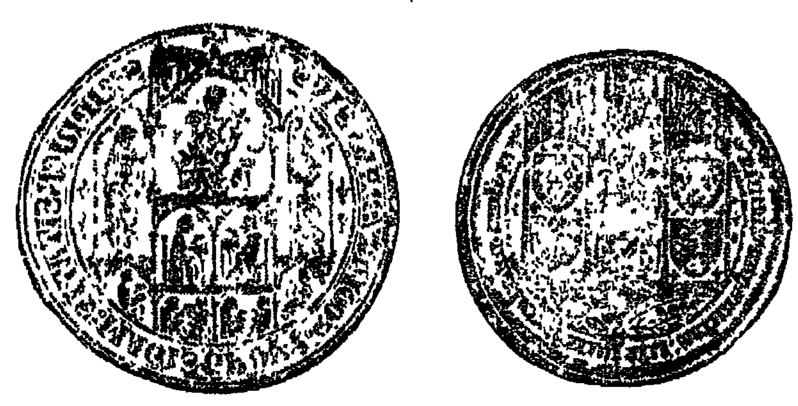
وقد مرت رابطة الأساتذة التي كانت أساس جامعة باريس بعدة خطوات إلى

---

(١) أنظر الترجمة العربية لهذه البراءة في الملحق الثالث بآخر القسم الأول من هذا المجلد. وقد أورد هاسكنز في الفصل الأول من مؤلفه المترجم في القسم الثاني من هذا الكتاب، الأسباب التي حدت بفيليب أوغسطس إلى إصدار البراءة المذكورة سنة ١٢٠٠ م لصالح الأساتذة وطلاب العلم في باريس .

أن أصبحت اتحادا معترفا به من كلا السلطتين الدينية والدنيوية على السواء .
وتمثل هذا الاعتراف فى تسجيل نظمها فى شكل لائحة وإعطائها حق تعيين الموظفين الإداريين لتصريف شئونها ، وأن يكون لها خاتم رسمى تختم به أوراقها ، وما إلى ذلك . وقد تم هذا فى أوائل القرن الثالث عشر عندما صدرت لائحة مدونة من عدة بنود لرابطة الأساتذة ، وعندما أصدر البابا انوسنت الثالث مرسوما يعترف فيه رسميا بالجامعة . وقد أدت هذه التطورات التى مرت بها نقابة الأساتذة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر إلى مولد الجامعة نفسها .

لوحة رقم (١)



(ا) إلى اليسار خاتم جامعة باريس وتبدو فيه علامة الصليب من أعلا ، ثم السيدة العذراء وهى تحمل المسيح ، وإحدى القديسات ، فأسقف باريس حاملا عصا الأسقفية . ومن أسفل يبدو الأساتذة والطلاب .

(ب) إلى اليمين خاتم يمثل الأمم الأربع فى جامعة باريس ، وكل أمة يرمز إليها شعارها .
[الخاتمان محفوظان بالمكتبة الأهلية بباريس]

ولم يكن الطريق ممهدا تماما أمام هذه الجامعة الوليدة ، فقد كان عليها أن

تتخطى العديد من العقبات ومن بينها السلطات التى كان لايزال يتمتع بها أمين كاتدرائية باريس الذى كان له حق تعيين الأساتذة أو حرمانهم من مزاولة مهنة التدريس بالجامعة ، وحق توقيع الجزاءات على رجال العلم العلمانيين . فضلا عن إصدار التنظيمات الخاصة بتنظيم شئون الأساتذة وطلاب العلم على السواء . ولم يكن هذا ليتمشى مع وجود نقابة للأساتذة هدفها حماية أعضائها من استبداد أمين الكاتدرائية والعمل على كبح جماحه والحد من نفوذه الواسع . ولذلك كان طبيعيا أن يثور التنازع بين أمين الكاتدرائية وبين أعضاء نقابة الأساتذة الذين كلما أحسوا بغبن واقع عليهم لجأوا إلى البابوية يستنجدون بها ويلتمسون مساندتها لهم . وفى أغلب الأحيان كانت البابوية تقف إلى جانبهم وتدافع عن حقوقهم ضد تعسف أمين الكاتدرائية . وكان كل امتياز جديد تحصل عليه الجامعة بمثابة لبنة جديدة تضاف إلى اللبنات السابقة فى سبيل نشأتها وقيامهاواستقلالها (١).

وهكذا مرت الجامعة بالعديد من التطورات ، وتخطت العديدمن العقبات التى كان عليها مواجهتها ، ومن بينها النزاع الذى قام بينها وبين أهالى مدينة باريس والملكية الفرنسية خلال عامى ١٢٢٨/١٢٢٩م . ووقفت البابوية ، مرة أخرى، إلى جانب الجامعة فى هذا الصراع الجديد عندما أصدر البابا جريجورى التاسع سنة ١٢٣١ م مرسوما بعد توقف الدراسة بالجامعة لمدة عامين ، حيث أعطى الجامعة الحق فى وضع اللوائح الخاصة بها وعقاب الخارجين على نظامها . كذلك حد من سلطات أمين كاتدرائية باريس وأسقفها فيما يتعلق باختيار الأساتذة ، كما أكد ضرورة عدم إفشاء أسرارهم أو المساس بقوانين الجامعة

---

(١) Cf. Duroselle, op. cit; p. 68.

وحقوقها ، إلى جانب العديد من الامتيازات التى نص عليها المرسوم للأساتذة والطلاب بالجامعة (١) .

وأمام هذه الامتيازات التى حصلت عليها جامعة باريس من البابوية والملكية الفرنسية ، أخذت سلطة أمين كاتدرائية باريس فى التقلص والانكماش التدريجى أمام مركز مدير الجامعة . وبنهاية القرن الثالث عشر كانت سلطة أمين الكاتدرائية قد زالت تماما ، واستراحت الجامعة من تعسفه ومضايقاته. ولكنها لم تكد تستقر وتأخذ أنفاسها بعمق حتى تعرضت لضغط جديد كان مصدره هذه المرة الملكية الفرنسية نفسها التى أخذت تتدخل فى شئون الجامعة واختصاصاتها بعد أن كانت فيما مضى من أشد مناصريها . واستمر هذا التدخل يأخذ أشكالا عدة حتى صدر فى أواسط القرن الخامس عشر أمر ملكى بخضوع الجامعة لأحكام برلمان باريس . وكانت الملكية تستهدف من وراء ذلك الحد من الإعفاءات والامتيازات والحقوق العديدة التى كانت الجامعة تتمتع بها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بعد أن وجدت فى ذلك خطرا يتهددها . وأخذ هذا التدخل يزداد مع الوقت حتى أواخر القرن الخامس عشر ؛ إذ قضى ملك فرنسا لويس الحادى عشر (١٤٦١ — ١٤٨٣ م) على ما تبقى لها من نفوذ عندما حرم على رجالها الاشتغال بالسياسة ، وأمر بأن يشترك مندوب ملكى فى عملية انتخاب مدير الجامعة . وفى عام ١٤٧٤ م أمر لويس الحادى عشر بأن يكون مدير الجامعة خاضعا لنفوذه خضوعا تاما . وجاء بعد ذلك لويس الثانى عشر (١٤٩٨ — ١٥١٥م) الذى حرم على الجامعة حق الإضراب ، وهو حق كان

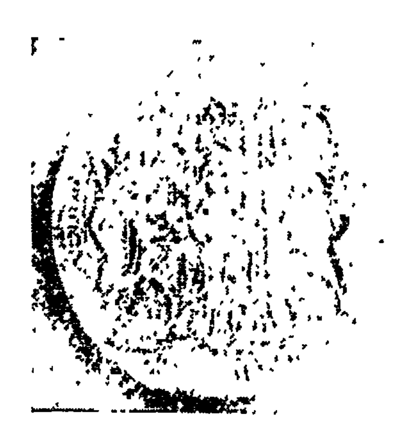
---

(١) أنظر الترجمة العربية لهذا المرسوم فى الملحق الخامس بآخر القسم الأول من هذا المجلد .

قد منحته لها البابوية فى القرن الثالث عشر .

هكذا نمت ونشأت وترعرعت جامعة باريس إلى أن نضجت واكتملت شخصيتها بعد الامتيازات والحقوق الجديدة التى تمتعت بها . ثم مالبثت أن تلقت العديد من الضربات من قبل الملكية الفرنسية إلى أن تم خضوعها تماما للتاج الفرنسى . ولم يأت القرن السادس عشر حتى كانت قد زالت آخر الامتيازات والاعفاءات التى كانت تتمتع بها من قبل . وقد تم هذا فى عصر تغير وانتقال من القرون الوسطى إلى عصر النهضة ، وفى وقت تم فيه القضاء على آخر بقايا النظام الإقطاعى فى المجتمع الغربى الوسيط ، وبدأت شخصية الفرد فى الظهور التى كانت الإقطاعية قد طمست معالمها ، وقامت المدن والممالك الوطنية الناشئة وظهرت اللغات الرومانتيسية بدلا من لاتينية العصور الوسطى ، والتفت الشعوب حول حكامها معلنة نهاية عصر بمثله وفلسفته وأفكاره ، وبداية عصر جديد له آراء ومبادىء

لوحة رقم (٢)



خاتم كلية اللاهوت بجامعة باريس ويبدو فيه السيد المسيح وهو يعظ

جديدة مغايرة (١) .

ولكن إذا كانت جامعة باريس بكلياتها الأربع وهى اللاهوت والقانون الكنسى والطب والآداب قد اتخذت طابعا دينيا منذ البداية بحكم الظروف التى أحاطت بمولدها ونشأتها (٢) ، فقد تزعمت مدرسة بولونيا فى الجنوب النهضة القانونية فى ايطاليا . وكان أول اعتراف رسمى بالأساتذة والطلاب فى مدن شمال ايطاليا سنة ١١٥٨ م عندما أصدر الإمبراطور الألمانى فريدريك بارباروسا براءة تضمنت بعض الامتيازات للأساتذة والطلاب فى المدن اللباردية بصفة عامة . ولم تنص هذه الوثيقة صراحة على قيام رابطة رسمية للطلبة أو الأساتذة ، وإنما ترجع أول إشارة فى وثائق ذلك العصر إلى قيام تلك الرابطة إلى سنة ١٢١٥ م . ولم تأت سنة ١٢١٩ م حتى كان نظام الدرجات العلمية قد اكتمل شكله فى بولونيا . ومنذ ذلك التاريخ كثرت الإشارات فى مصادر العصر التى توضح اعتراف كل من البابوية والإمبراطورية بجامعة بولونيا .

وهنا يجب أن نعرف أنه إذا كانت جامعة باريس قد اشتهرت بأنها « جامعة أساتذة » لظروف أحاطت بها ، فقد اشتهرت جامعة بولونيا بأنها « جامعة طلبة » ،

---

(١) Cf. Kitchin, A History of France, vol. I, pp. 295—299, 327, 352, 501 ; Baldwin, op. cit., pp. 68, 69; Painter, op. cit., p. 470 ff. ; Waugh, W. T., A History of Europe (London, 1932), 10, 31, 34, 35, 36 ; Wallon, op. cit., p. 348 ff.; Boutié, op. cit., p. 70 ff.; Bailly, op. cit., p. 223 ff. راجع أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٣٧ وما يليها ، والجامعات الأوربية ، ص ٥٣ وما يليها .

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذه الكليات الأربع ، أنظر Boutié, op. cit., pp. 76—121.

لأن اتحادات الطلبة بها كانت تسيطر سيطرة تامة على الجامعة وشئونها . وإن كان أساتذة بولونيا قد تحكموا فى شىء فقد تحكموا فيما يتعلق بامتحان الطلاب والترخيص لهم بالتدريس من عدمه أو الدخول فى رابطة هيئـــة التدريس . وثمة ظروف عديدة ساعدت على نشأة اتحاد الطلبة فى بولونيا وتمتعه بهذه السلطة الضخمة ، ومن أهمها ظروف البيئة التى تنحصر فى تمسك الأسر الشريفة فى ايطاليا بالتراث العلمى القديم ، واهتمام الناضجين من ذوى المكانة والثروة والجاه بالدراسات القانونية . ولذلك كان الأستاذ فى بولونيا — على عكس زميله فى باريس — مجرد محاضر استأجره عدد من السادة طلاب العلم لتلقى العلم على يديه مقابل ماينقدونه من أجر. كذلك ساعد على تطور هذا الاتحاد الوضع السياسى لهذه المدينة الإيطالية التى نشأت فيها هذه الجامعة . إذ حرمت على نزلائها المغتربين التمتع بالحقوق المدنية التى منحتها لأبنائها . ولذلك أراد طلاب العلم الوافدين على بولونيا من الخارج أن يعوضوا داخل جامعتها مايفتقدونه داخل محيط المدينة ذاتها ، فسعوا إلى بسط سيطرتهم على أساتذتهم . وساعد على ذلك أن أولئك الأساتذة كانوا فى المراحل الأولى من نشأة الجامعة من مواطنى بولونيا يتمتعون بحقوقها ويساندون السلطات الحاكمة ضد الطلبة المغتربين .

ولم تعترض السلطات الحاكمة على هذا الوضع الخاص باتحادات الطلبة لما يترتب على وجود أعداد غفيرة من الطلاب من انتعاش اقتصادى فى المدينة ، وما يسببه رحيلهم عنها من كساد للحالة الاقتصادية فيها . وأصبحت هذه الاتحادات الطلابية تتمتع بحقوق معترف بها وتخضع لقوانينها الخاصـة لا لقوانين المدينة نفسها . ولذلك أخذ الطلاب المغتربون فى بولونيا يتكتلون فى هيئة نقابات ترعى مصالحهم وشئونهم شأنها شأن غيرها من النقابات التى عرفتها أوروبـا فى العصر الوسيط ، مع ملاحظة أن الطلبة والأساتذة مـــن مواطنى بولونيا ظلوا خارج

نقابات الجامعة لا يتمتعون بصوت يعبر عن رغباتهم . ومع بدايات القرن الثالث عشر كان يوجد فى جامعة بولونيا أربعة اتحادات للطلبة الغرباء ، ولكنها اتحدت وتداخلت فى اتحادين كبيرين فى أواسط القرن الثالث عشر : الأول يضم الطلبة الوافدين من البلاد الواقعة شمال جبال الألب ، بينما يضم الثانى الطلبة القادمين من باقى الأقاليم الإيطالية .

وأخذت هذه الاتحادات تنمو تدريجيا وتزداد سلطاتها حتى أنه كان لكل من هذه الاتحادات فى القرن الثالث عشر مدير أو رئيس يوجه أموره ويرعى مصالح أعضائه ، ولم تأت المعارضة من ناحية السلطات الحاكمة ، ولكنها كانت من أساتذة القانون بالجامعة نفسها الذين طالبوا بأن يكون لهم وليس للطلبة الحق فى وضع النظم والقوانين الخاصة بالجامعة . وقد ذهبت هذه النداءات أدراج الرياح أمام قوة اتحادات الطلبة بالجامعة التى أصبحت تسيطر سيطرة تامة على أساتذتها . وكانت النتيجة الطبيعية والمتوقعة هى قيام الاحتكاك بين الطلبة والأساتذة الذين طالبوا القيام بما يقوم به الطلبة . ولم يكن من السهل على الطلبة أن يتنازلوا عن هذه السلطات التى كانوا يتمتعون بها ، وإن كان هذا لايمنع من القول بأن الطلبة فى بولونيا لم يحاولوا على الإطلاق التدخل فى توجيه النشاط العلمى بالجامعة الذى كان من صميم اختصاص الأساتذة .

وأخيرا فى القرن الرابع عشر اندمج الاتحادان الخاصان بالطلبة فى اتحاد واحد له نظمه الموحدة وله مدير واحد وخاتم واحد تدمغ به الأوراق والقرارات الرسمية . وكانت اختصاصات مدير جامعة بولونيا ، وهو رئيس اتحاد طلبتها ، مستمدة فى أول الأمر من قوانين الاتحاد . ولكنه لم يلبث أن استمد نفوذه فيما بعد من لائحة الجامعة نفسها ، وعلى أية حال ، لم تستمر هذه الوظيفة

طويلا ، إذ تلاشت فى أواخر القرن الخامس عشر لأنها لم تكن مجزية أو مغرية لمن يقبل عليها (١).

وإذا كنا قد تحدثنا فى شىء من التفصيل عن نشأة وتطور جامعتى باريس وبولونيا ، فذلك لأنها تعتبران من أقدم جامعات أوروبا فى العصور الوسطى، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق .(٢) ثم إن ماقيل عنهما يمكن أن يقال أيضا عن الجامعات الأخرى القديمة التى قامت بعدهما والأدوار التى مرت بها إلى أن اشتد ساعدها واعترفت بها السلطات الدينية والدنيوية . وعلى أية حال ، فقد أخذ عدد هذه الجامعات يزداد فى طول أوروبا وعرضها . فتكونت خلال القرن الثالث عشر سبع عشرة جامعة جديدة من بينها جامعة تولوز (سنة ١٢٢٩ م) ، وجامعة مونتبلييه فى مقاطعة لانجويدوق فى فرنسا (سنة ١٢٨٩ م) ، وجامعة سالامانكا Salamanca فى أسبانيا (٣) ، وجامعة كامبريدج التى وضع هنرى الثانى ملك

---

(١) Coulton, Medieval Panorama, p. 395 f. ; Baldwin, op. cit., pp. 47, 68, 70 ; Painter, op. cit., p. 469 f. ; LaMonte, op. cit., p. 567. أنظر أيضا سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، والجامعات الأوربية ، ص ٣٧ وما بعدها ؛ وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، ص ١٨٠ — ١٨٣ .

(٢) Cf. Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance (London, 1944), p. 125, n. 54 ; Moreau, Histoire de l'Eglise, 154 f.

(٣) ترجع أصول هذه الجامعة إلى أوائل القرن الثالث عشر ، وأخذ منذ ذلك الحين يرتفع شأنها وتتسع مساحتها لتستوعب الطلاب الذين كانوا يفدون إليها من مختلف الدول . كذلك اجتذبت إليها الطلاب من كل الطبقات ابتداء من الأثرياء الذين يحيط بهم أتباعهم حتى الفقراء والمعوزين الذين يعيشون على الصدقة والإحسان . وقد بلغت هذه الجامعة =

انجلترا أساسها سنة ١٢٢٩ م عندما عرض على الطلبة المتذمرين من الدراسة فى باريس أن ينتقلوا إلى كامبريدج ليبدأوا لأنفسهم معهداً خاصاً بهم فى تلك المدينة. ولم تبلغ هذه الجامعة ، فى الواقع ، مرتبة الجامعات الأخرى إلا خلال القرن الخامس عشر عندما ساءت الحال فى جامعة اكسفورد بسبب الانقسامات الدينية فى كلياتها ، فنزح كثير من طلبتها إلى كامبريدج (١) . أما فى القرن الخامس عشر فقد تأسست فى الغرب الأوروبى خمس وثلاثون جامعة جديدة (٢). وعلى هذا النمط أخذت الجامعات تنتشر ويزداد عددها فى الغرب حتى أنها بلغت قرابة ٨٠ جامعة فى أخريات العصر الوسيط (٣) .

= ذروتها فى أواسط القرن السادس عشر . هذا وفيما يتعلق بجامعة سالمانكا والجامعات الأسبانية الأخرى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أنظر Davies, R.T., The Golden Century of Spain (London, 1964), pp. 25 f., 280 f.

(١) حول كل من جامعتى اكسفورد وكامبريدج ، أنظر Coulton, Medieval Panorama, p. 397; McKisack, The Fourteenth Century (Oxford, 1959), p. 501 ff.; Painter, op. cit., p. 471 ; Poole, A. L., From Domesday Book to Magna Carta (Oxford, 1964), pp. 236—240 ; Powicke, M., The Thirteenth Century (Oxford, 1962), pp. 56, 57 70, 701 ; Jacob, E. F., The Fifteenth Century (Oxford, 1961), pp. 420 ff.

(٢) Mott & Dee, op. cit., p. 169 ; Duroselle, op. cit., pp. 68—69.

(٣) Painter, op. cit., p. 472 ; LaMonte, op. cit., p. 568; Rashdall, Universities of Europe, vol. III, p. 335. أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، ج ٢، ص ١٤٦ ؛ وهيب ابراهيم سمعان: الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، ص ١٨٣ — ١٨٤ و ١٨٨ و ٢٠٢ .

وجدير بالذكر أن التعليم كله فى تلك الجامعات كان باللغة اللاتينية وهى اللغة الرسمية للغرب الأوروبى من أقصاه إلى أقصاه، ولغة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وهى أيضا لغة الموضوعات الخطيرة كاللاهوت والفلسفة ، كما كانت معظم الوثائق الرسمية تدون بها (١) . وقد ارتبطت ثقافة الغرب وحضارته بهذه اللغة ارتباطا وثيقا . ولهذا كان من الميسور على كافة طلاب العلم من أية أمة فى الغرب أن يتلقوا تعاليمهم على أيدى من يريدون من كبار الأساتذة فى أى جامعة وبأى دولة . ولا نغالى إذا قلنا إن وحدة اللغة فى جامعات ومعاهد أوروبا فى العصور الوسطى قد ساعدت ، إلى حد بعيد ، على وحدة الفكر فى المجتمع الغربى فى وقت بدأ فيه هذا المجتمع ينفض عن كاهله غبار القرون الماضية ليضع اللبنات الأولى فى تقدمة الحضارى (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فقد أصبحت الجامعات الأوروبية تضم طلابا من مختلف الأمم من انجليز وفرنسيين وايطاليين والمان وغيرهم . وأدت الظروف بهم إلى أن يقسموا أنفسهم إلى « طوائف » أو « أمم » nations (٣) كما هو معروف فى العصور الوسطى . ففى باريس ، مثلا ، كان هناك أربع « طوائف » رئيسية

---

(١) Painter, op. cit., p 447.

(٢) Katz, The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, pp. 146, 148. راجع أيضا سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية ، ص ٧٦ وما بعدها ؛ كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

(٣) Coulton, Medieval Panorama, p. 401 ff. ; Kitchin, op. cit., vol. I, p. 297 ; Baldwin, op. cit., p. 68 f. ; LaMonte, op. cit., pp. 570, 571.

هى : طائفة الفرنسيين ، وطائفة النورمان ، وطائفة البيكارديين ،وطائفةالانجليز. وقد أدى وجود هذه الطوائف ذات المشارب والأهواء والأجناس المختلفة إلى قيام المشاحنات فيما بينها التى كثيرا ما كانت تتطور إلى معارك دامية لازمها ما اتصفت به القرون الوسطى بصفة عامة من عنف وفوضى . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الكاتب جاك دى فيترى ، من كتاب النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (١)

ومع مرور الزمن ، ومع النهضة الشاملة التى عمت أوروبا اعتبارا من القرن الثانى عشر فصاعدا ، ازدحمت الجامعات بجماهير الطلبة الذين قدموا من مختلف أرجاء الغرب لتلقى العلم على أساتذة طبقت شهرتهم الآفاق . ويكفى أن بلغ عددهم فى باريس (٢) خلال النصف الأخير من القرن الخامس عشر حوالى ٢٥ ألفا حتى فاضت جموعهم من جزيرةفرنسا وهى الجزيرة الواقعة وسط نهر السين، والتى قامت على ساحلها الجنوبى كاتدرائية نوتردام الشهيرة ، فاضت جموع الطلبة من هذه الجزيرة إلى الضفة اليسرى من هذا النهر التى تواجه الكنيسة المذكورة

---

(١) أنظر الترجمة العربية لنص جاك دى فيترى عن حياة الطلبة فى جامعة باريس فى الملحق الرابع بآخر القسم الأول من هذا المجلد . وفيما يتعلق بالقواعد الخاصة بتنظيم حياة الطلبة وبرنامجهم اليومى ومستوى معيشتهم ووسائل اللهو والتسلية التى كانوا يمارسونها، ومصاعب حياتهم ومشاكلهم، أنظر سعيد عاشور: الجامعات الأوربية، ص ١٧٣ وما بعدها و ١٨٩ وما بعدها . وللمزيد من المعلومات عن جاك دى فيترى (ت ١٢٤٠ م) أنظر Crump & Jacob, op. cit., pp. 402 ; Runciman, S., A History of the Crusades, vol. II, (Cambridge, 1954), p. 477, III (Cambridge, 1955), pp. 146-7, 161—2, 483, 489.

(٢) أنظر خريطة « باريس فى العصور الوسطى » بآخر القسم الأول من هذا الكتاب .

وجدير بالذكر أن هذه الضفة وما قام عليها من معاهد ومبان ومساكن لإيواء الطلبة الغرباء هي التي عرفت بإسم حي الجامعة أوالحي اللاتيني Cartier Latin ، ولا تزال تعرف بهذا الإسم حتى اليوم. والواقع أن هناك أكثر من عامل أدى إلى قيام الجامعة وازدهارها على هذا الجانب من النهر ، منها مواجهتها لكنيسة نوتردام ، فضلا عن أن تلك المنطقة كانت تقع على الطريق المؤدية إلى روما ، وهي الطريق التي كان الحجاج يسلكونها لزيارة مقابر القديسين هنـــاك والتبرك بها .

ولم تكن هذه الزيادة في عدد الطلاب قاصرة على جامعة باريس وحدها ، فقد بلغ عدد طلبة جامعة اكسفورد في حكم ملكها هنري الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢م) حوالي ٣٠ ألفا ، بينما وصل عدد طلاب جامعة بولونيا في القرن الثالث عشر قرابة عشرة آلاف، وهكذا(١). وقد يكون في هذه الأرقام شيء من المبالغة كما هو الحال في البيانات الإحصائية والرقمية الخاصة بأعداد الجيوش في المعارك والحروب وأعداد الأسرى والجرحى والقتلى ، أو تعداد سكان المدن وما إلى ذلك من إحصائيات زودتنا بها وثائق العصور الوسطى وسجلاتها — قد يكون في هذه الأرقام شيء من المبالغة ، ولكنها على أية حال تدل دلالة واضحة على ماهية هذه الإنطلاقة الفكرية الكبرى التي شملت الغرب من ناحية ، وعلى ماكانت تتمتع به تلك المعاهد والجامعات من مكانة بارزة مرموقة في تلك القرون الغابرة من ناحية ثانية ، الأمر الذي حدا بالآلاف المؤلفة من الطلاب إلى الالتحاق بها ، لكي يرتشفوا العلم من منابعه .

---

(١) LaMonte, op. cit., p. 568. — راجع أيضا سعيد عاشور: الجامعات الأوربية ، ص ١٦٩ وما بعدها ؛ وهيب سمعان : الثقافة والتربية ، ص ١٨٩ .

وثمة مسألة جديرة بالملاحظة ، وهى أن كل جامعة من تلك الجامعات تميزت بنوع خاص من الدراسات التى تتفق مع الظروف والأوضاع والتقاليد المحيطة بالمنطقة التى نشأت بها ، ومع تخصصات العلماء الذين حاضروا بها . فمثلا تفوقت باريس على غيرها فى العلوم الفلسفية ، بينما تفوقت كل من مونتبلييه وسالرنو فى الدراسات الطبية ، وبرزت بولونيا فى القانون الرومانى بحكم مكانها فى ايطاليا مقر القياصرة الرومان القدماء وموطن التراث والحضارة الرومانية المعروفة وعلى رأسها القانون . كذلك اشتهرت كل من تولوز واورليانز بدراسة القانون المدنى الذى لم يكن يدرس فى جامعة باريس ، وهكذا [١] .

وكانت الجامعة تتكون عادة من أربع كليات أو معاهد هى كليات الآداب واللاهوت والقانون والطب . وكان عمل كل كلية من الكليات الثلاث الأخيرة مرتبطا أشد الارتباط بكلية الآداب التى اقتصرت على الدراسات التحضيرية التجهيزية لتوجيه الطلبة بعد ذلك إلى التخصص فى المعاهد الأخرى كل حسب ميله ورغبته [٢] .

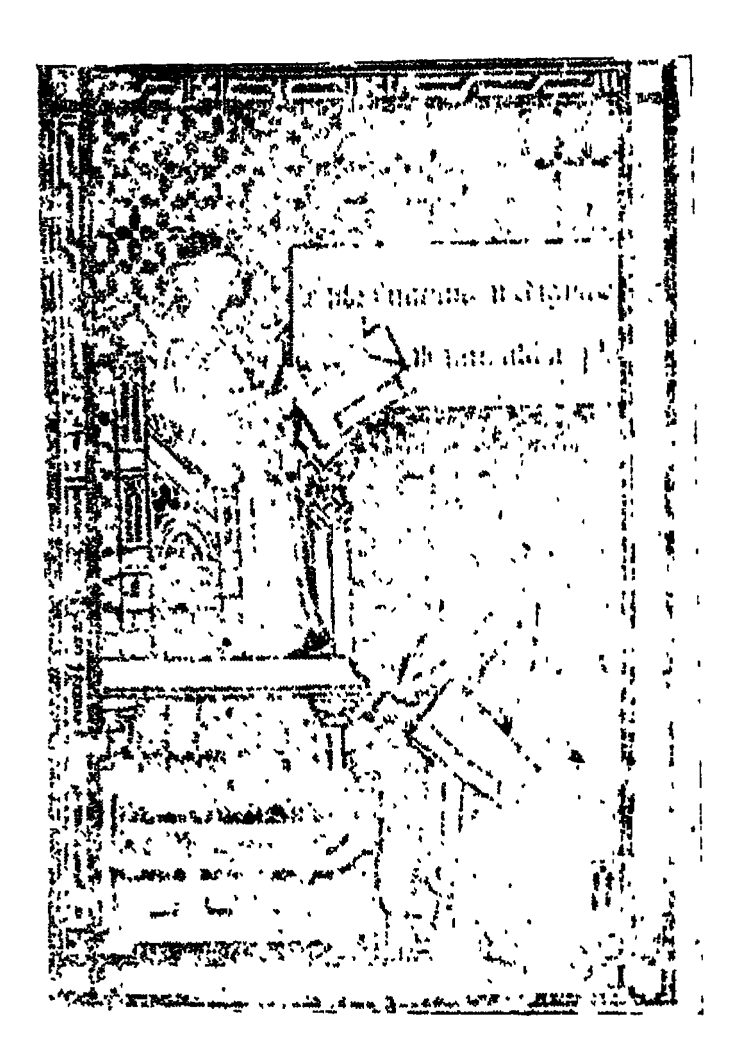
وكانت مواد الدراسة فى كلية الآداب بعد أن نضجت وتبلورت تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين هما : المجموعة الثلاثية وتعرف باللاتينية بإسم Trivium ، والمجموعة الرباعية التى عرفت بإسم Quadrivium . وتشمل المجموعة الأولى

---

(١) Baldwin, Mediaeval Church, p. 69. أنظر أيضا سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٢) LaMonte, op. cit., p. 570. — راجع أيضا كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

لوحة رقم (٣)



أستاذ بجامعة باريس يبدأ الدرس

ويبدو في الصورة وهو يعلن على طلبته أنه سوف يتحدث عن النباتات الطبية

[من مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس]

الثلاثية على قواعد اللغة اللاتينية وأصولها والمنطق والبلاغة . أما المجموعة الثانية الرباعية فكانت تتكون من الموسيقى والحساب والهندسة والفلك [١] .
ولم يكن الهدف الرئيسى من دراسة هذه العلوم الدنيوية مجرد تثقيف الطالب تثقيفا عاما ، بل كانت تستهدف إعداد الطالب لدراسة العلوم اللاهوتية المتعلقة بشئون الكنيسة اللاتينية . مثال ذلك اللغة اللاتينية التى كان يقصد من تدريسها تمكين الطالب من قراءة الكتب الدينية ، والهدف من دراسة أجرومية اللغة هو تمكينه من قراءة الكتاب المقدس وحياة وسير القديسين والآباء الأول ومختلف الصلوات والقداسات فى الكنائس قراءة صحيحة لاتشوبها شائبة . وكان المقصود من تدريس الموسيقى هو تعليم الطالب مايلزمه من أجل الاشتراك فى التراتيم والتراتيل الكنسية وأداء الألحان أداء سليما . والغرض من الحساب والهندسة والفلك تحديد أيام القديسين وغيرها من الأعياد الدينية . أما المنطق والبلاغة فكان الهدف منهما تقويم لسان الطالب حتى يتمكن من القيام بالوعظ والإرشاد والرد على الخارجين على تعاليم الكنيسة واجتذاب غير المسيحيين إلى حظيرتها .

وأما عن المحاضرات ونظام الامتحان والدرجات والرسائل العلمية فقدتحدث هاسكنز عنها فى شىء من الإفاضة . وعلى أية حال ، كانت المحاضرات تلقى على الطلبة باللغة اللاتينية . وكانت المحاضرة الواحدة تستغرق أحياناً ساعتين أو أكثر دون مبالاة براحة الطالب البدنية أو الذهنية الذى كان يستمع إليها وهو جالس القرفصاء على أرضية الحجرة المفروشة بالقش . ونظراً لأن الطباعة لم تكن معروفة وقتذاك ، ونظراً لأن الكتب والمراجع كانت بالتالى كلها مخطوطة

---

(١) حول الفنون السبعة الحرة ، أنظر : Painter, op. cit., p. 466 ; Poole, op. cit, p. 232 ; Funck-Brentano, op. cit., p 191.
وقد وردت الإشارة إليها أكثر من مرة فى ثنايا هذا الكتاب .

لوحة رقم (٤)



طلبة القانون يستمعون إلى درس يلقيه عليهم الأستاذ
ويلاحظ أنهم لا يكتبون ، وإنما يستمعون إليه ويتناقشون معه .
[نحت بارز من كاتدرائية بيستويا بإيطاليا]

ونادرة ومرتفعة الثمن مما أعجز غالبية الطلاب عن اقتنائها ، فقد اتبع الأساتذة خطة إملاء النصوص التى يكتبها الطلبة وسط الصفحات ، ثم يضيفون بعد ذلك بين السطور مذكراتهم وعلى هوامشها العريضة ماتيسر من الشروح والتعليقات التى تلقى عليهم من أستاذ آخر ، وهكذا .

وكان نظام الامتحان قائماً على المناقشة العلنية فى رسالة يكتبها الطالب باللغة اللاتينية . وكانت الدرجات العلمية التى تمنحها الجامعة للطالب هى الإجازة التى تعرف بإسم الليسانس التى تتيح لحاملها حق ممارسة التدريس فى المدارس . وهناك أيضاً الإجازات العالية التى تعطى لحاملها الحق فى المحاضرة بالكلية ، وأولى الشهادات العالية هى درجة الماجستير والثانية هى درجة الدكتوراه فى الآداب أو القانون أو اللاهوت . وكانت مثل هذه الدرجة الأخيرة تعطى للحاصل عليها الحق فى أن يصبح أستاذاً بالجامعة . كذلك كانت موضوعات الرسائل المقدمة

فى العصر الوسيط لها طابعها الخاص . فهى تمتاز ، بصفة عامة ، بالروح الدينية الجدلية الاستقرائية وليست الروح الاستنباطية الاجتهادية (١) .

وخلاصة القول إن جامعة العصور الوسطى لم تظهر من العدم إلى الوجود طفرة واحدة ، ولم تكن بنت يوم وليلة ، إنما كانت هناك عوامل مهدت لها ترجع إلى قرون طويلة قبل نشأتها . وقد بدأت حياتها متواضعة بسيطة، وأخذت فى النمو نموا تدريجيا ثابتا بطيئا إلى أن كبرت ونضجت وبرزت شهرتها بفضل أساتذة كبار حاضروا بها إلى جانب آلاف مؤلفة من الطلبة اجتمعوا لكى ينهلوا على أيدى أولئك الأساتذة مختلف المعارف والعلوم . ومع الزمن توطدت أركانها ، واعترفت بها السلطات الدينية والدنيوية فى الغرب وعلى رأسها البابوات والأباطرة والملوك . فصدرت البراءات والمراسيم والإعفاءات تتضمن العديد من الحقوق والامتيازات للجامعة ولأساتذتها وطلابها ، وأوقفت عليها الهبات والعطايا من محبى العلم ومريديه مما ضمن لها حياة مستقرة هادئة ، وهيأ لرجالها أماكن مناسبة يزاولون فيها نشاطهم التعليمى .

وعلى هذا يمكن القول بأن الجامعة المعنوية وجدت فى المجتمع الغربى فى أواخر العصر الوسيط قبل أن توجد الجامعة المادية . بمعنى أن إسم الجامعة لم يكن مقرونا فى بداية الأمر بالمبانى الرحبة الفخمة ذات القباب والأبراج العالية ، كما أنه لم يكن مقرونا بما احتوته من فاخر الأثاث والرياش ، بل كان كيانها يتوقف أولا

---

(١) Coulton, Medieval Panorama, pp. 397, 400, 407ff ; LaMonte, op. cit., pp. 568—574 ; Brinton & Others, op. cit., vol. I, pp. 305—307 ; Boutié, op. cit., p. 131 ff. أنظر أيضا سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ، ص ١٣٧ وما بعدها و١٥٢ وما بعدها و١٥٧ وما بعدها و١٦٦ وما بعدها ؛ وهيب سمعان : الثقافة والتربية ، ص ١٩١ — ١٩٢ .

وأخيرا على سعة علم الأساتذة الذين يدرسون بها وقيمة محاضراتهم وأهميتها التى كثيراً ما كانت تلقى فى الخلاء المكشوف أو فى أفنية الكنائس أو فى سراديبها [١]. ولقد أثارت هذه الجامعات اهتمامات واسعة فى أوروبا من أقصاها إلى أقصاها . كما كان لدى الطلبة رغبة أكيدة جامحة للتزود بالثقافة والعلم ، وفى سبيل ذلك قاسوا الكثير من المخاطر والصعاب ليتسنى لهم مواصلة دراستهم وتعليمهم .

« لقد كان طالب العصور الوسطى يعرف كل شىء عن سياق »
« دروسه داخل محيطه الجامعى المحدود ... أما طالب العصر »
« الحديث، فهو يتنصل من أداء الواجب الأكاديمى متعللا بأية »
« حجة خارج نطاق دروسه ومناهجه .. وكان طالب النظام »
« القديم يملك الطاحونة دون الحبوب؛ أما طالب العصر الحديث »
« فقد ورث حصاداً من المعارف والعلوم ، ولكنه ليس مجهزاً »
« تجهيزاً حسناً طيباً بمطحنة يصقل بها هذا الحصاد [٢] . »

---

(١) LaMonte, op. cit., p. 572. أنظر أيضا كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(٢) Mott & Dee, op. cit., p. 171 ; cf. also Show, Trends of Civilization and Culture (1932), pp. 243—244.

الملاحق

الملاحق الستة التالية لها صلة وثيقة ومباشرة بموضوع هذا الكتاب ، فضلا عن أهميتها من الناحية التاريخية . وقد تم اختيارها بعناية فائقة . فهى ، أولا ، تتضمن مراسلات ووثائق ومراسيم أصلية وأصيلة ، صادرة عن أشخاص مسئولين فى الغرب من ملوك وأباطرة وبابوات وكتاب وشعراء لهم شهرتهم ومكانتهم . ثم هى ، ثانيا ، تسلط الأضواء على موضوع التعليم والمدارس والجامعات فى العصور الوسطى ، وتكشف عن مختلف الامتيازات والإعفاءات والحريات والبراءات التى حصل عليها الأساتذة والطلاب فى جامعة العصور الوسطى وفى غيرها من مختلف المعاهد والمدارس والكليات .

يتناول الملحقان الأول والثانى موضوع إحياء العلم والتعليم فى عهد الإمبراطور شارلمان فى أخريات القرن الثامن وبدايات القرن التاسع الميلادى ، فى عصر كانت فيه اوروبا لا تزال تعيش فى جهالة وظلام ولم تكن قد أفاقت بعد من غزوات البرابرة المدمرة وما أحدثته فى الغرب من فوضى واضطراب . والمعروف أن شارل العظيم قد وجه عناية خاصة إلى أمور العلم والتعليم ليس فى عاصمته فحسب وإنما فى كافة أرجاء إمبراطوريته الواسعة . فأحضر إلى بلاطه الكثير من العلماء المبرزين فى شتى فروع المعرفة من مختلف أنحاء القارة الأوروبية بعامة ومن انجلترا بصفة خاصة ، وذلك لتثقيف غالة والعمل على إحياء نهضة علمية شاملة بها تعتبر — فى الحقيقة — من أبرز مظاهر عصره ، وترتبط إلى حد بعيد بإسمه وشخصه ، وإن كانت قد هيأت الجو بدورها للنهضات الفكرية التالية لها . وهكذا استدعى من نورثمبريا فى انجلترا الكوين وجعله رئيسا لمدرسة البلاط التى أنشأها فى عاصمة ملكه آخن (إكس لاشابل) ويتضمن الملحقان نبذا ومقتطفات من خطابين موجهين من شارلمان إلى رجال الدين ومقدمى الأديرة فى دولته المترامية

الأطراف . وهما يكشفان عن مدى اهتمامه بأمور العلم والتعليم على الرغم من أنه لم يكن عالما أو متعلما بالمعنى المفهوم ، ويؤكدان أن هذا الاهتمام لم يقتصر على العاصمة فحسب وإنما امتد إلى كافة أرجاء إمبراطوريته . كما يوضحان ، فى ذات الوقت ، أن اهتمام شارلمان بالشئون الثقافية لم يكن يقل بحال عن اهتمامه بالأمور الروحية البحتة (١) .

وإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص نقول إن الملحق الأول يحتوى على رسالة موجهة من شارلمان إلى أحد رؤساء الأديرة بألمانيا ، يدعى باوجولف ، يحث فيها الرهبان على البحث والدراسة والأخذ بأسباب العلم والاستزادة من المعرفة ، بعد أن لاحظ كثرة الأخطاء اللغوية والتعبيرات الشاذة غير السليمة التى كانت تمتلىء بها خطاباتهم الموجهة إليه . ثم يبين أهمية العلم مؤكدا أنه لا يقل بأية حال عن الخلق القويم والمسلك المستقيم ، إن لم يفضلها . وفى ختام رسالته يطالب الرهبان بالمثابرة والاجتهاد فى تحصيل العلم ، بما يعينهم على تفهم ما جاء فى الكتب المقدسة (٢) . أما الملحق الثانى فيتضمن رسالة من الإمبراطور الألمانى إلى الوعاظ الدينيين يدعوهم فيها إلى تدريس الفنون الحرة فى جميع الكنائس ، مع العمل على تصحيح الكتب الدينية والكتاب المقدس من العبارات الخاطئة

---

(١) Downs, Basic Documents in Medieval History, p. 32; LaMonte, The World of the Middle Ages, p. 160.

وللمزيد من المعلومات عن النهضة العلمية الكارولنجية المرتبطة بشارلمان وعصره ، أنظر ما سبق ص ٩٥ وما يليها من القسم الأول من هذا المجلد .

(٢) للمزيد من المعلومات ، أنظر ديفز : شارلمان (الترجمة العربية) ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

والألفاظ الشاذة الواردة بها (١) .

والملحق الثالث عبارة عن مرسوم أصدره الملك الفرنسى فيليب اوغسطس جد لويس التاسع لصالح جامعة باريس ، وتاريخه سنة ١٢٠٠ م . وهو أول مرسوم حفظه لنا الزمن يهبه لتلك الجامعة أحد ملوك الغرب . (٢) وفيه يمنح طلبة جامعة باريس العديد من الامتيازات إثر المصادمات العنيفة التى وقعت بينهم وبين سكان المدينة ، والتى ناصر فيها محافظ المدينة الأهالى ضد الطلبة مما أثار سخطهم وحفيظتهم . وتتلخص هذه الامتيازات فى العمل على حماية الطلبة من أى اعتداء قد يقع عليهم مستقبلا ، مع توفير أسباب الأمن وسبل السلامة لهم باتخاذ كافة الإجراءات التى تكفل سلامتهم وعدم الإساءة إليهم أو إلحاق الأذى بهم ، مما يشغلهم عن مواصلة واجبهم العلمى . كذلك ينص المرسوم على توفير الضمانات الكافية لأى طالب يقترف جريمة ما ويضبط متلبسا بها (٣) .

والواقع أنه عندما كانت جامعة من جامعات العصور الوسطى تحصل على براءة من أحد الملوك أو اللوردات ، متضمنة امتيازات لصالح الطلبة أو الأساتذة

---

(١) هناك خطاب آخر للإمبراطور شارلمان يرجع تاريخه إلى سنة ٧٨٩ م ، يدعو فيه إلى إنشاء العديد من المدارس لتعليم الصغار القراءة والكتابة ، ويطلب السماح للأطفال الأرقاء حسب المولد إلى جانب أبناء الأحرار الالتحاق بتلك المدارس للارتشاف من العلم . والجديد هنا هو أن شارلمان سمح لجميع رعاياه على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم الالتحاق بتلك المدارس للأخذ بأسباب العلم . وتوجد مقتطفات من الخطاب المذكور مترجمة إلى الانجليزية فى كتاب نورتون داونز Downs, op. cit., p. 33.

(٢) Downs, op. cit., p. 132.

(٣) Cf. Wallon, op. cit., 348 ; Boutié, op. cit., 71 ; Bailly, op. cit., 223.

أو كليهما ، كانت تحفظها وتحرص عليها أشد الحرص وإن الكتاب الذى تبدو صورته على كثير من أختام الجامعة ، يعنى فى الحقيقة ذلك السجل الذى كانت تحفظ فيه مختلف الامتيازات والإعفاءات الجامعية (١) .

أما الملحق الرابع فيتضمن وثيقة تتحدث عن حياة الطلبة فى جامعة باريس فى العقود الأولى من القرن الثالث عشر . وكاتب هذه الوثيقة هو جاك دى فيترى الذى ولد حوالى سنة ١١٨٠ م وتوفى حوالى سنة ١٢٤٠ م وله من العمر قرابة ٦٠ عاما . وكان فيترى من الكتاب المبرزين وأسقفا له حياة حافلة . ومن أهم الأعمال التى قام بها التبشير بالحملة الصليبية المعروفة ضد الهراطقة الألبيجنسيين فى شتاء عام ١٢١١/١٢١٢ م . وفى هذه القطعة التى قمنا بنقلها إلى العربية يتحدث فيترى بصراحة عن سلوك الجانب الأكبر من طلبة جامعة باريس وتصرفاتهم المشينة وأعمالهم الطائشة الحمقاء . فيقول إن المشاحنات كانت لا تنقطع بين الطلبة وسكان المدينة ، مثل الصدام الذى وقع سنة ١٢٠٠ م والذى ترتب عليه أن أصدر فيليب اوغسطس فى نفس السنة مرسومه المعروف لصالح طلبة باريس ترضية لهم لما لحقهم من أضرار . ولكن ما هو أهم من ذلك وأخطر ، تلك المعارك التى كانت تنشب بين الطلبة وبعضهم البعض ، وبصفة خاصة المعارك بين مختلف « الأمم » التى كان من نتائجها أن حقق الطلبة وضعا قانونيا خاصا بهم داخل المحيط الجامعى . وقد تسلحوا ، فى كثير من الأحيان ، بالعصى والهراوات والسكاكين التى كانوا يستخدمونها فى مصادماتهم الدامية . ونستبين مما ذكره فيترى أن الكثيرين من اولئك الذين التحقوا بالجامعة لم يكونوا طلاب علم على الإطلاق ، ولكنهم فى واقع الأمر كانوا يضيعون وقتهم فى إثارة الفوضى

---

(١) Cf. Downs, op. cit., p. 132.

والشغب وفى اللهو والمرح والحياة الصاخبة التى يسلط الشعر الجوليادرى بعض الأضواء عليها (١) . وإن كان هذا لايمنع من القول بأنه وجد فريق محدود من الطلبة كان هدفه الأول والأخير هو تحصيل العلم واقتناء المعرفة والعمل الدائب المستمر المثمر ، وإن كانت الإشارة إليه تكاد تكون معدومة فى وثائق العصر ومستنداته . فقد كان كل عمل جيد - عادة - لايسترعى من الكتاب نفس القدر من الاهتمام الذى كان يلقاه كل ماهو غير طبيعى وغير مألوف ، وكل ماهو مثير للدهشة والغرابة والفضول .

وعلى أية حال ، فإن ماذكره جاك دى فيترى عن تراشق مختلف الطوائف والأمم داخل الجامعة بمختلف ألفاظ الشتائم والسباب الذى ينتهى — عادة — بالتضارب بالأيدى ، يرجع — فى الغالب — إلى أنهم كانوا يدخلون الحانات لتعاطى الخمر ، فإذا ما لعبت الخمر برءوسهم وفقدوا وعيهم بدأوا فى كيل التهم والاتهامات إلى بعضهم البعض . ويحتمل أيضا أن هذا العداء بين الطلبة من مختلف « الأمم » إنما يرجع إلى فورة الشباب التى تجرى فى عروقهم والتى تؤدى إلى اندفاعهم وتهورهم . ولعل ظهور القوميات فى ذلك الحين فى الغرب ، وتعصب كل أمة من « الأمم » داخل الجامعة لبلدها وقوميتها ، فضلا عن الخلافات العميقة الجذور والعداء التقليدى المستحكم بين مختلف دول الغرب وقتذاك ، مثل العداء بين انجلترا وفرنسا والصراع بين البابوية والإمبراطورية أو بين حزبى الجلف والجبلين وأثر ذلك على كل من ايطاليا والمانيا — لعل كل هذا قد ترك أثره

---

(١) فيما يتعلق بالشعر الجوليادرى وأهميته فى الكشف عن حياة اللهو والتسكع التى كان يحياها فريق من الطلاب ، أنظر ما ذكره هاسكنز فى الفصل الثالث من كتابه « نشأة الجامعات » المترجم فى القسم الثانى من هذا المجلد ، وعنوان الفصل المذكور « طالب العصور الوسطى » راجع أيضا Downs, op. cit., p. 134.

فى تكييف العلاقات بين الطلاب من مختلف « الأمم » داخل نطاق الجامعة . إذ طبع هذه العلاقات بطابع خاص يبدو أثره جليا واضحا فيما كان يثور بينهم من خلافات ومشاحنات لأتفه الأسباب ، وأحيانا لأسباب كان الطلاب أنفسهم يفتعلونها ، وكانت تأخذ فى كثير من الأوقات مظهرا عنيفا داميا .

ويعزز ماذكره فيترى عن حياة الطلبة فى جامعات العصور الوسطى ماذكره فى هذا الصدد أحد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو سيدنى بينتر . فهو يتفق مع هاسكنز فى أن طلبة العصور الوسطى لم يختلفوا عن طلبة اليوم . فبينما كان هدف البعض هو الدراسة وتحصيل العلم ، كان البعض الآخر على خلاف ذلك تماما . وبينما أفرط الكثيرون فى الشراب حتى الثمالة ، كانت الغالبية فى حاجة دائمة إلى المال. ويوجد تحت أيدينا عدد من كتب الطلبة التى تتضمن نماذج من المراسلات والخطابات التى كان الطلبة يستخدمونها عند مراسلة آبائهم وذويهم . وكثير من هذه الخطابات عبارة عن أمثلة لمختلف الحجج والتعللات التى يتذرع بها الطلبة للحصول على المال من الوالدين والأقارب أو من أولياء الأمور. ومع ذلك فهناك عدد من هذه الخطابات يوضح — مثلا — كيف يدعو الطالب إحدى الفتيات للعشاء . ولما كانت العصور الوسطى عصور تتميز بطبيعتها بالعنف ، فقد جنح الأساتذة والطلاب على السواء إلى إثارة الشغب والفوضى . فثمة أحد الأساتذة الألمان ذبح عددا من زملائه ، بينما طرد أستاذ آخر لأنه أخذ يطعن زميلا له بسكين حتى أرداه قتيلا ، وقد وقع هذا الحادث فى أحد اجتماعات مجلس الكلية وعلى مشهد من الجميع . وهناك أستاذ آخر من جامعة اكسفورد أدين لتحريض تلامذته على قتل أحد القسس كان قد أساء إليه. وكانت قوانين جامعة اكسفورد تحرم على الطلبة الذين يلتحقون بالجامعة أن يدخلوا حجرات الدراسة وهم حاملين القسى

والسهام . وكانت الثورات الدموية أمرا عاديا ومألوفا بين الطلبة وسكان المدن التى كانوا يقيمون فيها . كذلك كانت السرقات وأعمال السطو التى يقترفها الطلبة ، هى الأخرى ، أمرا شائعا . وعلى أية حال ، فمن الأهمية بمكان أن ندرك أنه لم يكن من المتعذر أن ينتحل أى فرد صفة طالب العلم . فليس هناك أكثر من رداء ملفت للأنظار مثير للإغراء يرتديه أمثال أولئك الأشخاص الذين هم ليسوا طلاب علم بالمرة ، وإنما مجرمين خارجين على القانون . ويكفى القول بأن أسوأ ضاحية إجرامية فى مدينة باريس فى القرن الخامس عشر كانت تقع خلف جامعة باريس نفسها ، وكان كثير من سكانها يتنكرون فى هيئة طلاب العلم وما هم بطلاب علم على الإطلاق (١) .

هذا عن الملاحق الأربعة الأولى ، أما الملحق الخامس فهو يشتمل على مرسوم البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١ م) إلى جامعة باريس ، وتاريخه سنة ١٢٣١ م . ويعتبر هذا المرسوم من أقدم المراسيم التى صدرت لصالح هذه الجامعة وأكثرها أهمية . وقد أصدره البابا بعد أن ترك الطلبة الجامعة وتوقفت الدراسة بها ، وبعد أن أقسموا على عدم العودة إليها . وفيه يدعو الطلبة إلى العودة ثانية إلى الجامعة لاستئناف دراستهم بعد أن أمنهم على أنفسهم وحياتهم . كما يؤكد لهم الاعفاءات والامتيازات القائمة الخاصة بهم ، ويعترف بحق الأساتذة والطلاب فى إصدار القوانين والتشريعات التى تنظم أمورهم . كذلك يمنح الجامعة حق التوقف عن إلقاء المحاضرات وتعطيل الدراسة إذا كان ثمة ضرورة تستدعى

---

(١) أنظر عن ذلك : Painter, A History of the Middle Ages, p.475.
وقد تعرض لهذه الجوانب فى شىء من التفصيل والتحليل المؤرخ هاسكنز فى الفصل الثالث من كتابه « نشأة الجامعات » المترجم فى القسم الثانى من هذا المجلد .

ذلك ، وهو حق ظلت جامعة باريس تتمتع به إلى أن تم إلغاؤه فى أواخر القرن الخامس عشر ، وعلى وجه التحديد فى سنة ١٤٩٩ م .(١) ويشتمل الملحق السادس والأخير على ترخيص بابوى بتأسيس جامعة افنيون فى فرنسا ، وتاريخ الترخيص سنة ١٣٠٣ م . والمعروف أن التصريح بإنشاء أية جامعة كان يعتبر فى ذلك الزمن حقا مطلقا للبابوات . وتحتوى الوثيقة المذكورة على معلومات تتمين بقيمتها ووضوحها فيما يتعلق بموضوع الامتحانات ومنح الدرجات العلمية مثل درجة الماجستير ودرجة الدكتوراه (٢) .

---

(١) أنظر عن ذلك Downs, op. cit., p. 136; Bailly, op. cit., p.225.

(٢) Cf. Ashour & Rabie, op. cit., p. 116.

الملحق الأول

خطاب الامبراطور شارلمان الى باوجولف رئيس دير فولدا بألمانيا (٧٨٠ — ٨٠٠ م) . (١)

تحية وبعد — ليكن معلوما لقداستكم أنه مما يرضى الله أن وجدنا نحن والمخلصون من رجالنا أنه من المفيد بالنسبة للأسقفيات والأديرة التى فوض المسيح أمر الإشراف عليها إلينا ، بالاضافة إلى جماعات الإخوان الرهبان ، مع الرغبة فى مواصلة التعليم الدينى — وجدنا أنه من المفيد الاهتمام بأمر الأسقفيات والأديرة ، وذلك فيما يختص بالثقافة الأدبية وتعليم اولئك الذين وهبهم الله القدرة على التعلم، كل حسب مقدرته وطاقته . ولما كان احترام القوانين الرهبانية ومراعاتها يؤدى إلى النظام وإلى نعمة السلوك الحسن ، كذلك فإن الغيرة فى العلم والتعليم يمكن أن تؤدى إلى نفس النتيجة . وهكذا فإن الذين يبغون إرضاء الله بأن يحيوا حياة قويمة صالحة ، عليهم أيضا الحصول على رضائه بالنطق السليم .... وعلى الرغم من أن المسلك القويم قد يكون أفضل من المعرفة ، إلا أن المعرفة تسبق آداب السلوك .... إذ كانت تصلنا خلال السنوات القليلة الماضية خطابات من كثير من الأديرة ، جاء بها أن الإخوان الرهبان الذين يعيشون هناك يقيمون

---

(١) Letter of Charlemagne to Abbot Baugulf, 780—800, cf. Downs, Basic Documents in Medieval History, pp. 32—33. Cf. also S. Ashour & H. Rabie, Fifty Documents in Medieval History (Cairo, 1971), pp. 34—35.

الصلوات والابتهالات المقدسة من أجلنا . ولقد وجدنا فى معظم تلك المكاتبات الأفكار الصائبة إلى جانب التعبيرات الفجة غير المألوفة . ذلك أن ماتمليه العبادة الحقة بإخلاص على العقل ، لم يكن بوسع اللسان الذى لم يتثقف بسبب إهمال الدراسة التعبير عنه دون الوقوع فى أخطاء . . لكل هذا ندعوكم ليس فقط إلى الاهتمام بدراسة الآداب ، ولكن أيضا بعقل شديد التواضع لتحصيل العلم واقتناء المعرفة بما يرضى الله، حتى يتسنى لكم ، فى سهولة ويسر أكثر من ذى قبل وبطريقة صحيحة أيضا، التعمق فى فهم خبايا الأناجيل المقدسة وأسرارها . . . .

الملحق الثانى

خطاب الامبراطور شارلمان الى الوعاظ الدينيين فى دولته (٧٨٦—٨٠٠ م).[1]

.... وبناء على ذلك ، وحيث أننا نهتم دائما بالعمل على تحسين أحوال كنائسنا، فقد جاهدنا بحماس ويقظة فى سبيل النهوض بأسباب العلم والتعليم اللذين أسدل عليهما ستار النسيان بسبب إهمال أسلافنا . واقتداء بنا ، فإننا ندعو كل من يمكن دعوتهم للإشراف على تدريس الفنون الحرة . ووفقا لذلك ، فقد قمنا بفضل الله الذى يعيننا على كل أمر من أمورنا ، بتصحيح جميع أسفار العهدين القديم والجديد بعناية ، لأنه كان قد دب فيها الفساد بسبب جهل النساخ .

وفضلا عما تقدم ، واقتداء بأبينا بين[2] صاحب الذكرى الفاضلة ، الذى كان متحمسا لتجميل جميع كنائس غالة بترانيم الكنيسة الرومانية ، يهمنا أن تصل تلك الكنائس بمهارتنا إلى مرتبة رفيعة عن طريق إعداد سلسلة من الكتب الممتازة

---

(١) Letter of Charlemagne to the religious lectors, 786-800, cf. Downs, op. cit., p. 33. Cf. also Ashour & Rabie, op. cit., p.35.

(٢) هو بين القصير آخر وزراء الميروفنجيين ، وقد كانت له الكلمة العليا فى البلاد بينما غدا ملوك الميروفنجيين مجرد ألعوبة . ولذلك قام فى أواسط القرن الثامن بنقل التاج من آخر ملوك الميروفنجيين العاطلين وهو شيلدريك الثالث ، وأسس بموافقة البابوية أسرة جديدة هى الأسرة الكارولنجية . أنظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١١٤ ح ١ و ١١٧ ح ١ و ١٤١ و ح ٢ .

المتضمنة فصولا من الأناجيل لتلاوتها أثناء القداس . وأخيرا ، حيث أننا وجدنا أن الكتب الخاصة بالخدمة الدينية الليلية التى تم تجميعها بفضل جهود غير مثمرة لبعض الأشخاص المغمورين رغما عن نواياهم الطيبة ، قد أصبحت غير ملائمة أو مناسبة لأنها كتبت دون أن تتضمن عبارات مؤلفيها ،فضلا عن أنها مليئة بالأخطاء التى لاتقع تحت حصر أوعد .

لذلك لايمكن أن نتحمل فى أيامنا هـذه مسئولية انسياب الألفاظ الشاذة المتنافرة المليئة بالأخطاء فى العظات الدينية التى تقرأ فيما بين الخدمات المقدسة . وهدفنا هو العمل على تحسين تلك العظات ....

الملحق الثالث

مرسوم الملك فيليب اوغسطس لصالح جامعة باريس (سنة ١٢٠٠ م) . (١)

.... ثم أنه فيما يتعلق بضمان سلامة الطلبة فى باريس مستقبلا ، ووفقا لمشورة رعايانا ، أمرنا بما هو آت : على كل مواطن من مواطنى مدينة باريس أن يقسم بقول الحق إذا شاهد أحد العلمانيين وهو يعتدى على أحد الطلبة . كذلك يجب ألا ينسحب أى فرد حتى لايدعى أنه لم يشاهد واقعة الاعتداء [على الطالب] . وإذا حدث أن ضرب شخص ما أحد الطلبة ، لا سيما إذا استخدم فى ذلك سلاحا أو هراوة أو حجرا — اللهم إلا إذا كان ذلك دفاعا عن النفس — فعلى جميع المدنيين الذين شاهدوا واقعة الاعتداء ، القبض بأمانة على المعتدى أو المعتدين ، وتسليمهم إلى القاضى التابع لنا . ويجب أيضا [على جميع المدنيين] ألا ينسحبوا حتى لايدعوا أنهم لم يروا ماحدث ، وبذلك يتنصلون من القبض على المعتدى ، ويتحللون من قول الحق . وسواء ضبط الفاعل متلبسا بجريمته أم لا ، فسوف تتخذ كافة الإجراءات القانونية بواسطة رجال الدين أو العلمانيين أو بعض القانونيين . وسوف يفعل قضاتنا والكونت التابع لنا نفس الشيء ....

ولا يجوز لمحافظ مدينة باريس أو لقضاتنا القبض على أى طالب بسبب أية إساءة مهما كانت ، أو حتى إيداعه سجوننا ، اللهم إلا إذا كانت الجريمة قد اقترفها

---

(١) The Charter of King Philip Augustus to the University of Paris, 1200, cf. Downs, op. cit., pp. 132 – 133.

الطالب بالفعل بما يستدعى إلقاء القبض عليه . وفى هذه الحالة على القاضى الذى يتبعنا القبض عليه حالا دون إيذائه على الإطلاق ، اللهم إلا إذا أبدى مقاومة ، ثم يقوم بتسليمه إلى القاضى الكنسى الذى يجب عليه حمايته ترضية لنا ولمن لحقه الأذى . وإذا ارتكبت جريمة خطيرة ، فسوف يذهب القاضى الذى يتبعنا بشخصه ، أو يقوم بإرسال من ينوب عنه ، لمعرفة الإجراءات التى اتخذت حيال الطالب . فاذا لم يبد الطالب مقاومة عند إلقاء القبض عليه ، ومع ذلك ظل يعانى من أى ضرر يلحق به ، فسوف تطالب بترضيته وفقا للإجراءات المشار إليها أعلاه والقسم المنوه عنه . ولن يضع قضاتنا أيديهم على منقولات أو متاع طلبة باريس بسبب أية جريمة يقترفونها مهما بلغت جسامتها . ولكن إذا استلزم الأمر توقيع الحجز على هـــذه المنقولات ، فسوف يتم ذلك مع مراعاة حراستها والمحافظة عليها ، بعد صدور الأمر اللازم من القاضى الكنسى بتوقيع الحجز عليها ....

وفيما يختص بأولئك الذين يقومون على خدمة الطلبة من العلمانيين ، وهم الذين لا يدينون لنا بالحقوق المدنيـــة أو حق الإقامة ، ولا يعيشون على التجارة ، ولا يستخدمهم المتعلمون كوسيلة لإلحاق الأذى بالغير — فيراعى اتخاذ مايلى حيالهم : « غير مسموح لنا أو للقاضى الذى يتبعنا القبض عليهم ما لم يتم ضبطهم وهم متلبسون بجريمة ما . حينئذ يجب علينا أو على قاضينا إلقاء القبض عليهم . ووفقا لما سلف ، ليست لدينا الرغبة ،حقا ، فى أن يتمتع قساوسة باريس وخدمهم بهذه الامتيازات التى منحناها لطلبة باريس . »

وفضلا عما تقدم ، وحتى يتسنى تطبيق هذه الأوامر بعناية أكثر من ذى قبل ، مع العمل على تعزيزها بقانون ثابت — فقد قررنا أن يقسم شعب باريس والمحافظ

الجديد فى حضور الطلاب بتنفيذ ماسلف ذكره بإخلاص واستقامة . هذا ، وعلى كل من يتسلم منا فى المستقبل منصب محافظ باريس مع غيره من المهام المكلف بها ، أن يتوجه فى يوم الأحد من الأسبوع الأول أو الثانى من تعيينه ، إلى إحدى كنائس مدينة باريس — وذلك بعد استدعائه لهذا الغرض — ليؤكد بقسم يؤديه علنا وفى حضور الطلاب أنه سوف يحترم بإخلاص كل ما سبق التنويه عنه . . . .

الملحق الرابع

حياة الطلبة فى جامعة باريس
لجاك دى فيترى (حوالى ١١٨٠ — حوالى ١٢٤٠ م) (١)

لقد اقتصر عمل جميع طلبة باريس تقريبا ، المواطنون منهم والمغتربون ، فى تعلم أو الاستماع إلى شىء جديد إذ درس البعض بقصد تحصيل المعرفة فحسب ، وتعنى بذلك الفضول وحب الاستطلاع . بينما كان هدف البعض الآخر اكتساب الشهرة ، حبا فى الزهو والغرور . ومع ذلك فهناك فريق كان يتعلم رغبة فى الربح والكسب ، مما يكشف عن الجشع ورذيلة الرشوة أى السيمونية . وقليلون جدا هم أولئك الذين كانوا يتعلمون لتثقيف أنفسهم وتثقيف غيرهم . وكان الطلبة يتشاجرون ويتنازعون فيما بينهم ، ليس فقط بسبب اختلاف طوائفهم ، أو بسبب الجدل والمناقشات التى كانت تحتدم فيما بينهم ، بل أيضا بسبب الخلافات بين « الأمم » التى أدت إلى قيام النزاع وإثارة الخصومات والأحقاد والعداء الشديد . فكانت تصدر عنهم ، فى فحة وقلة حياء ، شتى أنواع البذاءات والسباب .

لقد قالوا إن الإنجليز سكارى ولهم ذيول ، وإن أبناء فرنسا متكبرون مخنثون يتزينون بعناية مثل النساء . وقالوا إن الألمان يتميزون بالعنف ويأتون المنكر فى أعيادهم وولائمهم . أما النورمان فهم مغرورون يتيهون فخرا ؛ وسكان بواتييه خونة من طباعهم الغدر وهم دائما مخاطرون . واعتبروا البرجنديين سفلة أغبياء . أما سكان

(١) Student Life at the University of Paris by Jacques de Vitry (ca. 1180—ca. 1240), cf. Downs, op. cit., pp. 134—135.

مقاطعة بريطانى فقد اشتهروا بأنهم هوائيون متقلبون ، وكثيرا ماكانوا يعيرونهم لمقتل آرثر .(١) واتصف اللباردیون بأنهم محبون للمال أشرار جبناء. أما الرومان فهم متمردون مشاغبون مفترون ، والصقليون بغاة عتاه قساة ظالمون جائرون . ويعشق سكان برابانت سفك الدماء وإثارة الفتن، فضلا عن أنهم لصوص وقطاع طرق ومغتصبون . وأما الفلمنكيون (٢) فهم متقلبون مسرفون نهمون ناعمون كالزبدة كسالى . وبعدهذه الكلمات من الشتائم والسباب، كانوا فى الغالب يتضاربون بالأيدى ويتبادلون اللكمات .

ولن أتحدث عن علماء المنطق أصحاب المناقشات السفسطائية ، الذين ليس بوسع أى إنسان فهم خطبهم البليغة الخالية من الحكمة على حد قول أشعيا [النبى] (٣) . وأما عن أساتذة اللاهوت « المحتلين مركز موسى » فقد تشبعوا بالعلم ، ولكن هدفهم لم يكن التثقيف وتقويم الأخلاق . لقد اقتصر عملهم على التعليم دون ممارسة العلم ، حتى أصبحوا « مثل النحاس الأصفر الرنان » أو « الصنج ذات الطنين » أو مثل قناة من الحجر جافة دائما . ومثلهم مثل من يجب عليهم أن يحملوا الماء إلى « مجرى نهر من التوابل » . ولم يحقدوا على بعضهم البعض فحسب ، وإنما كانوا يغرون طلبة الأساتذة الآخرين بمعسول كلامهم وطيب حديثهم . فقد كان كل فرد منهم يسعى لتحقيق مجده الشخصى دون الاهتمام البتة بخلاص النفوس وسلامتها(٤) .

---

(١) سنعرض له بالتفصيل فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

(٢) نسبة الى بلاد الفلمنك ، وتعرف أيضا باسم الفلاندرز أو الأراضى الواطئة .

(٣) أنظر الكتاب المقدس — العهد القديم — سفر أشعيا — إصحاح ٥ آية ٣١ ، ونصها : « ويل للحكماء فى أعين أنفسهم والفهماء عند ذواتهم . »

(٤) يبدو فى حديث فيترى هنا نغمة التهكم والسخرية وهو يتحدث عن أساتذة المنطق واللاهوت .

الملحق الخامس

مرسوم البابا جريجورى
التاسع الى جامعة باريس
(سنة ١٢٣١ م) . (١)

تحية وبركة رسولية ، من الأسقف جريجورى ، خادم خدام الرب ، إلى أبنائه الأحباء جميع أساتذة باريس وطلابها ...

لقد قررنا فيما يتعلق بأحوال الطلبة والمدارس الجامعة مراعاة الآتى : يجب على كل أمين كاتدرائية يتم تعيينه فى باريس ، من الآن فصاعدا ، أن يقسم بإخلاص وبوحى من ضميره ، عند تقلده مهام منصبه ، وفى حضور أسقف باريس ، أو بناء على طلب الأخير بعقد اجتماع فى كاتدرائية باريس (٢) ، وبعد دعوة اثنين من زعماء الطلبة لهذا الغرض — يجب عليه أن يقسم بعدم قبول أساتذة فى العلوم اللاهوتية والقانون الكنسى سوى الأساتذة الأكفاء ، مع مراعاة المكان والزمان المناسبين ، ووفقا لظروف المدينة واحتياجاتها ، وحسب مايقتضيه شرف هذه الفروع من العلم وهيبتها . وعليه أن يقسم أيضا بصرف النظر عن غير الأكفاء دون مراعاة أو اعتبار للأشخاص أو الأمم .

هذا ، وقبل منح أى فرد إجازة التدريس يجب على أمين الكاتدرائية ، خلال

---

(١) Charter of the Pope [Gregory IX] to the University of Paris, 1231, cf Downs, op. cit., pp. 136—138.

(٢) المقصود كاتدرائية نوتردام .

ثلاثة أشهر تبدأ من طلب التصريح بالإجازة ، أن يقوم بجمع المعلومات الدقيقة الوافية عنه من جميع أساتذة اللاهوت الموجودين بالمدينة ،ومن غيرهم من الرجال المخلصين المثقفين الذين يمكن الاعتماد عليهم لمعرفة الحقيقة الخاصة بسيرة المرشح [للحصول على إجازة التدريس] ومقدار علمه ومدى قدراته ومقاصده ومشاريعه، وغير هذا وذاك من الصفات الواجب توافرها فيه .وبعد إجراء هذه التحريات ، يقوم [أمين الكاتدرائية] بإخلاص وبوحى من ضميره بمنح إجازة التدريس المرشح أو حرمانه منها حسبما يبدو ذلك ملائما وعلى أساتذة اللاهوت والقانون الكنسى عندما يبدأون فى إلقاء محاضراتهم ، أداء قسم على مفاده أنهم سوف يحافظون بإخلاص على ماسبق التنويه عنه . وعلى أمين الكاتدرائية أن يحلف أيضا بعدم إفشاء أسرار الأساتذة بأية طريقة ، مما قد يترتب عليه إلحاق الضرر أو الأذى بهم . فضلا عن الإبقاء على الحريات والامتيازات التى نصت عليها قوانين جامعة باريس دون المساس بها ، وأن تظل كما كانت منذ البداية . وبالإضافة إلى ماتقدم ، سوف يتعهد أمين الكاتدرائية بأن يتحرى بإخلاص عن أساتذة الطب والآداب وفروع المعرفة الأخرى ، حتى يتسنى السماح للأكفاء فقط [بالتدريس فى الجامعة] واستبعاد غير الأكفاء .

وفيما يتعلق بغير ذلك من الأمور ، ونظراً لأن الفوضى تزحف فى سهولة ويسر حيث لايوجد نظام ، فقد منحناكم [1] حق إصدار القوانين والتشريعات التى تنظم مواعيد المناقشات والمحاضرات وكيفية إلقائها ، وكذلك الزى المميز للطلبة ، ومايختص بدفن الموتى ، وكل مايتصل بالمؤهلين الذين يحاضرون [فى الجامعة] ومواعيد محاضراتهم ، والمواضيع التى يحاضرون فيها . وأيضا مايتعلق

(١) يقصد بذلك الجامعة .

بإيجارات السكن أو الحجز عليها ، وما يختص بالجزاء المناسب الذى يوقع على اولئك الذين ينتهكون قوانينكم وتشريعاتكم ، بالعمل على نبذهم من مجتمعكم . وإذا تم تحصيل ضريبة السكن منكم ، وإذا كان يعوزكم أى شىء ، أو أصابكم ضرر أو لحق بكم مكروه أو داهمتكم خسارة فادحة أفضت إلى الموت أو بتر أحد الأطراف ، ومالم تتم الترضية اللازمة ،خلال خمسة عشر يوما من وقوع الإصابة بعد توجيه إنذار مناسب ، فيمكنكم التوقف عن إلقاء محاضراتكم إلى أن تحصلوا على الترضية الكافية . (١) هذا ، ومن حق أى فرد منكم الامتناع كذلك عن إلقاء محاضراته فورا ، إذا وجد أن هذه هى الوسيلة الملائمة فى حالة إيداعه السجن بدون وجه حق ، طالما لم يتم رفع الضرر الذى لحق به بناء على احتجاج يقدم منكم .

وفضلا عما تقدم ، فقد أصدرنا أوامرنا إلى أسقف باريس بتوقيع القصاص على المذنب إذا تمادى فى جريمته ، وبضرورة المحافظة على حقوق كل طالب وامتيازاته الجامعية ، وعدم ترك الأعمال الشريرة غير الطيبة تفلت بدون عقاب . كذلك لايجوز إطلاقا القبض على شخص برىء بسبب المعتدى . وحتى إذا حامت شبهات غير مؤكدة حول أى فرد ، فيتم اعتقاله دون المساس بكرامته ، ويخلى سبيله إذا دفع كفالة مناسبة ، ودون أى تعسف من قبل السجانين . ولكن إذا ارتكبت جريمة ما ، وكان من الضرورى حبس مرتكبها ، فعلى الأسقف حبس المذنب فى سجنه ، ولايسمح لأمين الكاتدرائية باحتجازه فى سجنه الخاص . كما أنه غير مسموح إلقاء القبض على أى طالب لدين له على آخر ، إذ أن هذا الأمر محرم طبقا للتعليمات والقوانين الكنسية وماتقضى به الشريعة . وليس من

---

(١) الحديث هنا موجه الى أساتذة الجامعة .

حق الأسقف أو موظفيه أو أمين الكاتدرائية أن يحصلوا عنوة على غرامة مالية من شخص ما لإحلاله من قرار حرمان كنسى تم توقيعه عليه ، أو من أى عقاب آخر أيا كان نوعه . ولا يحق لأمين الكاتدرائية أن يطالب الأساتذة المصرح لهم بمزاولة المهنة بأداء قسم أو حلف يمين الطاعة أو بذل أى وعد آخر أيا كان ، كما لايحق له أن يحصل على أجر أو وعد نظير الترخيص لشخص ما بمزاولة المهنة ، بل يجب عليه أن يلتزم بالقسم المشار إليه أعلاه .

ويجب ألا تزيد مدة العطلة الصيفية عن شهر واحد . وبوسع الحاصلين على إجازة الليسانس، إذا رغبوا ، الاستمرار فى إلقاء محاضراتهم خلال العطلة . وبالإضافة إلى ماتقدم ، فإننا نحرم بشدة على الطلبة حمل السلاح داخل المدينة ، وتمنع الجامعة من حمايةاولئك الذين يخلون بالأمن أو يعملون على تعطيل الدراسة. وأما اولئك الذين يدعون أنهم طلاب علم ، ولكنهم لايترددون على مدارسهم ولا يعرفون أساتذتهم ، فليس من حقهم التمتع بالحريات المصرح بها للطلبة . . .

وحيث أن الأساتذة والطلبة الذين أثارتهم الخسائر والأضرار التى لحقت بهم ، كانوا فى الواقع قد أدوا قسما مشتركا بمغادرة باريس وإغلاق الجامعة ، وحيث أنهم قد أثاروا بذلك نزاعا ليس فى صالحهم بقدر ماهو ضد الصالح العام — لذلك ، اعتباراً لمطالب الكنيسة وامتيازاتها ، نود بل نأمر بأن يواصل الأساتذة والطلبة عملهم فى باريس ، وسوف لايدانون بسبب رحيلهم عنها أو عودتهم إليها، وذلك بعد أن منحهم ولدنا الحبيب ملك الفرنسيين العظيم(١) — بركة المسيح — تلك الامتيازات السالفة ، وبعد أن قدم المعتدون التعويضات اللازمة .

---

(١) المقصود فيليب أوغسطس الذى كان قد أصدر مرسوما لصالح جامعة باريس عام ١٢٠٠ م . أنظر الترجمة العربية المرسوم المذكور فى الملحق الثالث ص ١٦٧ — ١٦٩ .

الملحق السادس

ترخيص بابوى بتأسيس
جامعة افنيون بفرنسا
(سنة ١٣٠٣ م) .[١]

تعتبر مدينة أفنيون لأسباب عديدة مقراً صالحا ومناسبا تماما لإقامة جامعة بها . هذا ، ولما كنا نؤمن بأن الصالح العام يقتضى استدعاء أولئك الذين يبذرون الحكمة إلى المدينة ، وأنهم سوف يعطون فى الوقت المناسب ثماراً يانعة — فإننا نمنح بهذه الوثيقة حق تأسيس جامعة هناك ، حيث يمكن للأساتذة magistri مزاولة مهنة التدريس بينما يقوم طلاب العلم بالدراسة والاستماع إلى المحاضرات فى جميع الكليات طوعا واختيارا . وعندما يصل اولئك الذين يدرسون بالجامعة إلى درجة رفيعة من العلم والمعرفة ، ويسألون التصريح لهم بتدريس الآخرين ، فإننا نجيبهم إلى طلبهم على أن يؤدوا امتحانا فى كلا القانونين الكنسى والمدنى وفى الطب والفنون الحرة ، ثم يتوج عملهم بمنحهم لقب ماجستير فى [تخصصات] [٢] تلك الكليات . وسوف يمثل جميع المجازين لهذا الشرف فى حضرة أسقف أفنيون الذى يتولى استدعاء جميع أساتذة الكلية المعنية ، ثم يقوم بامتحان المرشحين [لنيل الدرجة] دون المطالبة بأية مصاريف أو نفقات ، وذلك للوقوف على مقدار حصيلتهم العلمية ومدى بلاغتهم وأسلوبهم فى المحاضرة ، وغير ذلك

---

(١) Papal Charter for the Establishment of the University of Avignon, 1303, cf. Ashour & Rabie, op. cit., pp 116—117.

(٢) الكلمات التى تقع بين حاصرتين أضافها المترجم زيادة فى الإيضاح .

من الأمور الواجب توافرها فى مثل اولئك الذين سيحصلون على درجة الدكتوراه أو الماجستير . وبعد ذلك يتداول [الأسقف] مع الأساتذة حول [نتيجة] الامتحان ، ويقومون هم بدورهم بإبداء الرأى فيما يتعلق بموضوع منح الدرجة العلمية ، بمعنى أن يقرروا إن كان المرشح قد أدى الامتحان بنجاح أم لا . هذا ، مع مراعاة أن يبقى اقتراعهم سراً مكتوما ، وألا يفصح الأسقف إطلاقا كيف أدلوا برأيهم فى الموضوع. وسوف يصادق على الصالحين منهم ويأذن لهم بتدريس الآخرين . أما اولئك الذين يرى أنهم غير صالحين ، فسوف يرفض طلبهم دون رهبة أو تملق . وإذا حدث أن كانت أسقفية أفنيون شاغرة ، فسيقدم المرشحون [لنيل الدرجة العلمية] أنفسهم إلى القاضى Praepositus الكنسى الذى يتولى امتحانهم والموافقة على من يقع عليهم الاختيار وفقاً لما أشرنا به بالنسبة للأسقف .

وفيما يتعلق باولئك الذين أدوا الامتحان وتم الموافقة عليهم فى افنيون وحصلوا على إجازة التدريس ، فسيكون لهم بعدئذ الحق المطلق فى المحاضرة والتدريس فى كل مكان بالكلية التى أجيزوا للعمل بها ، وذلك بدون أداء أية امتحانات أخرى أو الحصول على موافقة أى شخص آخر .

وحتى يتم عقد مثل تلك الامتحانات بطريقة سليمة ، نأمر بأن يؤدى جميع الأساتذة الذين يرغبون فى المحاضرة بجامعة أفنيون ، قبل أن يبدأوا عملهم بها كمدرسين ، قسما علنيا مؤداه أنهم سيتواجدون شخصيا فى جميع الامتحانات وفى أى وقت يتم استدعاؤهم فيه ، وأنهم سوف يزودون الأسقف لا عن رهبة وخشية أو رغبة فى الزلفى والتملق ، وإنما بأمانة وإخلاص وبدون مقابل gratis ، برأيهم فى الامتحان ، وذلك حتى يتسنى المصادقة على الأكفاء واستبعاد

غير الأكفاء . ولن يسمح لاولئك الذين يرفضون أداء هذا القسم بالمحاضرة فى الجامعة أو حضور الامتحانات أو التمتع بأية مزايا جامعية .

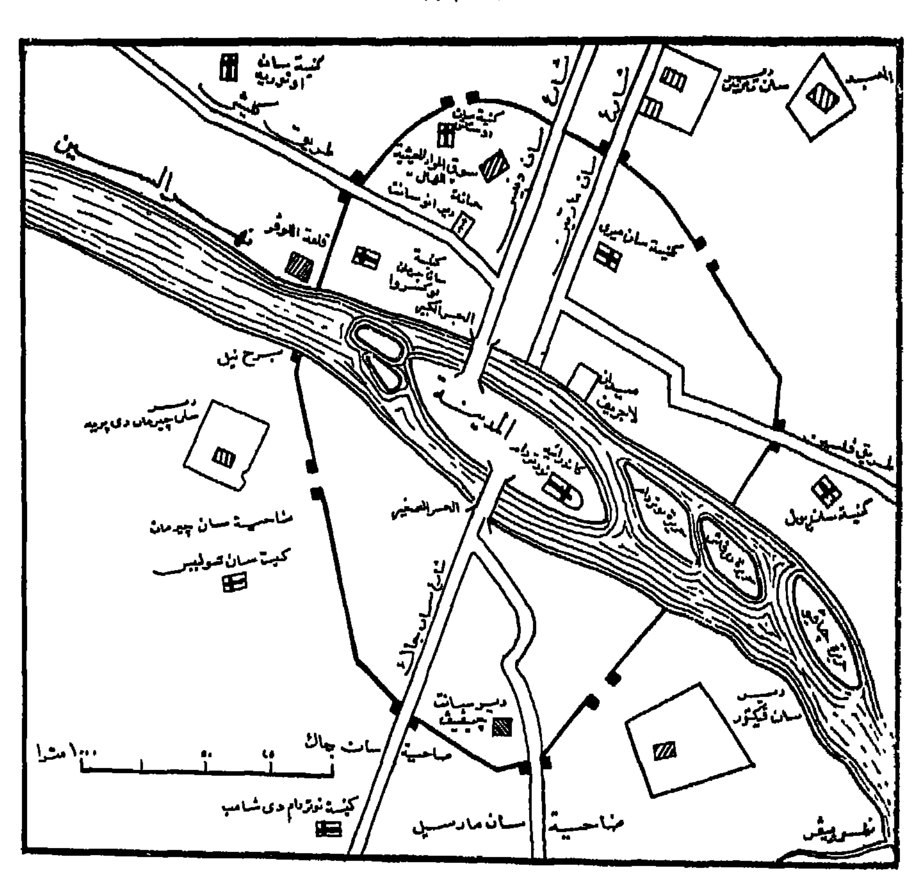
وحتى يكرس أساتذة الجامعة وطلبتها أنفسهم لدراساتهم بحرية وبلا قيود ، وحتى يحرزوا تقدما طيبا فيها — فإننا نمنح كل الذين يعملون بالجامعة ، من أساتذة وطلاب، جميع الامتيازات والحريات والإعفاءات التى يتمتع بها - عادة - المدرسون والدارسون بالجامعات الأخرى .

خريطة رقم (١)



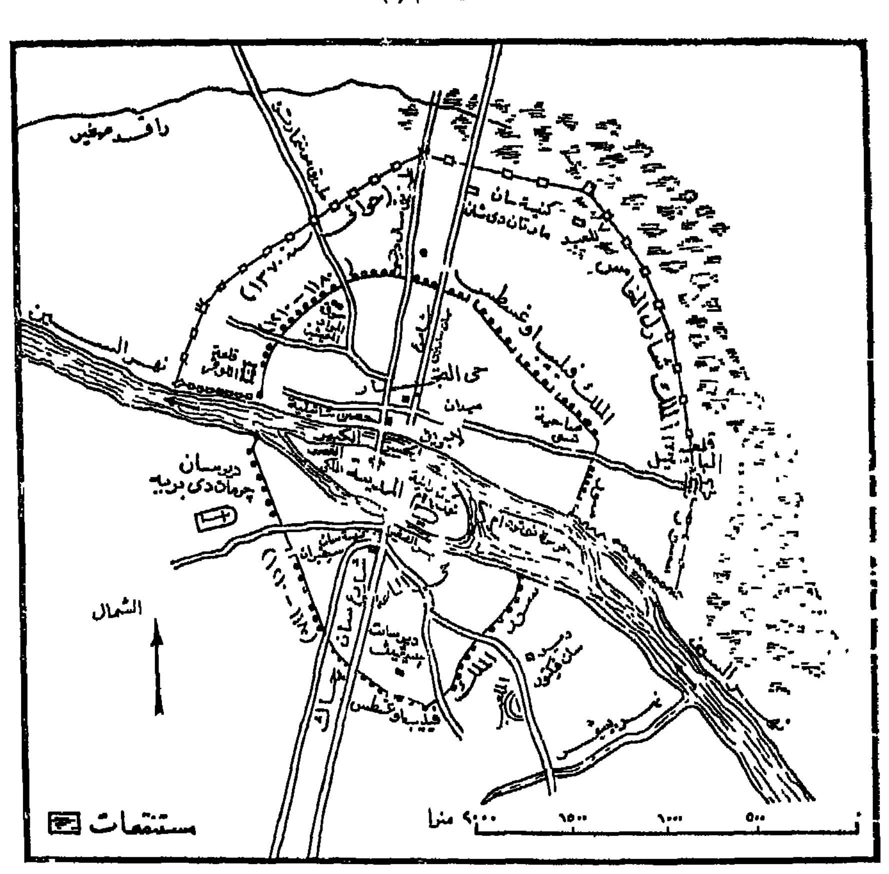
المراكز الفكرية فى الغرب الأوروبى فى القرن الثانى عشر

خريطة رقم (٢)



باريس في عصر فيليب أوغسطس

خريطة رقم (٣)



باريس فى العصور الوسطى

المراجع [1]

(١) يتضمن هذا الثبت المراجع الوارد ذكرها فى حواشى القسمين الأول والثانى من هذا المجلد .

أولا

المراجع العربية

ابراهيم احمد العدوى (دكتور) : المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦١ .

احمد فؤاد الأهوانى (دكتور) : ابن سينا — القاهرة ١٩٥٨ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ — « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » — مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية — العدد ١٦ (السنة ٦٢/١٩٦٣) — الاسكندرية ١٩٦٣ (ص ١٨٣ — ٢٠٧) .

٢ — العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى — ط . ثانية — الاسكندرية ١٩٦٧ .

٣ — «العدوان الصليبى والرأى العام الغربى » — محاضرة من سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية للعام الجامعى ٦٧ / ١٩٦٨ - الاسكندرية ١٩٦٨ (ص ٢٩ — ٥٢) .

٤ — العدوان الصليبى على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور — الاسكندرية ١٩٦٩ .

٥ — العدوان الصليبى على بلاد الشام : هزيمة لويس التاسع فى الأراضى المقدسة — الاسكندرية ١٩٧١ .

حسن حبشى (دكتور) : الحرب الصليبية الأولى — ط. ثانية — القاهرة ١٩٥٨ .

حسن حنفى حسنين (دكتور) : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ـ الاسكندرية ١٩٦٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

١ — اوربا العصور الوسطى ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .

٢ — الجامعات الاوربية فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٥٩ .

٣ — المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية — القاهرة ١٩٦٣ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) ومحمد انيس (دكتور) : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة — القاهرة ١٩٦٠ .

عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية — القاهرة ١٩٦٥ .

عبد الرحمن بدوى (دكتور) : فلسفة العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦٢ .

على مظهر (دكتور) : محاكم التفتيش — القاهرة ١٩٤٧ .

نظير حسان سعداوى (دكتور) : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى — القاهرة ١٩٥٨ .

وهيب ابراهيم سمعان (دكتور) : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦٢ .

يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط — القاهرة ١٩٥٧ .

ثانياً

المراجع المعربة

اليجييرى (دانتى) : الكوميديا الالهية — القسم الثالث (الفردوس) — ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور حسن عثمان — القاهرة ١٩٦٩ .

بينز (ن) : الإمبراطورية البيزنطية - تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد — القاهرة ١٩٥٠ .

دوسن (ك) : تكوين اوربا — ترجمة ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور — القاهرة ١٩٦٧ .

ديفز (ه . و . ك) : شارلمان — نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى - القاهرة ١٩٥٩ .

راوس (أ . ل) : التاريخ الانجليزى — نقله إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة — القاهرة ١٩٤٦ .

سباين (ج) : تطور الفكر السياسى — جزءان — ترجمة حسن جلال العروسى — القاهرة ١٩٦٣ — ١٩٦٤ .

فشر (ه . أ . ل) : تاريخ اوربا فى العصور الوسطى — جزءان — ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور ابراهيم احمد العدوى — القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

كرامب (ج) وجاكوب (إ) : تراث العصور الوسطى — راجع الترجمة العربية محمد بدران والدكتور محمد مصطفى زيادة — جزءان — القاهرة ١٩٦٥ و ١٩٦٧ .

كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة — ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف — ط . ثانية — الاسكندرية ١٩٦٧ .

هارتمان (ل.م) وباراكلاف (ج) : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى — ترجمة وتقديم الدكتور جوزيف نسيم يوسف — ط . ثانية — الاسكندرية ١٩٧٠ .

يعقوب (ج) : أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى — ترجمه بتصرف الدكتور فؤاد حسنين على — القاهرة ١٩٤٦ .

ثانيـــــا

المراجع الاجنبية

Arnold, T. & Guillaume, A. (eds.), The Legacy of Islam. London, 1952.

Ashour, S. & Rabie, H., Fifty Documents in Medieval History. Cairo, 1971.

Atiya, A.S., Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Bailly, A., Byzance. Paris, 1939.

Bailly, A., Saint Louis. Paris, 1949.

Baker, D.N. & Fasel, G.W. (eds.), Landmarks in Western Culture. 2 vols. New Jersey, 1968.

Baldwin, M.W., The Mediaeval Church. New York, 1953.

Barker, E. (ed.), Social and Political Thought in Byzantium from Justinian I to the last Palaeologus. Oxford, 1957.

Barrow, R.H., The Romans. Aylesbury & London, 1955.

Baynes, N.H., "The Political Ideas of St. Augustine's De Civitate Dei," The Historical Association. London, 1962. (Pamphlet No. 104, pp. 3—17).

Baynes, N.H. & Moss, H. St. L.B. (eds.), Byzantium. Oxford, 1953.

Bédier, J., La Chanson de Roland. Paris, 1937.

Bell, M.I.M., A Short History of the Papacy. London, 1921.

Blakeney, E.H. (ed.), A Smaller Classical Dictionary. London, 1923.

Bloch, M., Feudal Society. Translated from the French by L.A. Manyon. 2 vols. London, 1967.

Boutié, L., Paris au temps de Saint Louis. Paris, 1911.

Brinton, C., Christopher, J.B. & Wolff, R.L., A History of Civilization. 2 vols. New Jersey, 1967.

Browne, R.A., Bristish Latin Selections (A.D. 500—1400). Oxford, 1954.

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance. Translated by S.G C. Middlemore. London, 1944.

Burgh, W.G. de, The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London, 1955.

Bury, J.B., History of the Later Roman Empire from the death of Theodosius I to the death of Justinian. 2 vols. New York, 1958.

Calmette, J., Le Monde Féodal. Paris, 1937.

Calmette, J., Le Moyen Age. Paris, 1948.

Cantor, N.F., (ed.), The Medieval World : 300—1300. New York, 1963.

Carcopino, J., Daily Life in Ancient Rome. Translated from the French by E.O. Lorimer. Aylesbury, 1956.

Chadwick, H., The Early Church. London, 1969.

Chateaubriand, Génie du Christianisme. 2 vols. Paris, 1922.

Cochrane, C.N., Christianity and Classical Culture : A Study of Thought and Action from Augustus to Augustine. New York, 1957.

Cordier. A., La Chanson de Roland. Paris, 1935.

Coulton, G.G.,

1. The Inquisition. London, 1929.
2. Medieval Panorama : The English Scene from Conquest to Reformation. New York, 1955.
3. Medieval Village, Manor and Monastery. New York, 1960
4. Medieval Scene. Cambridge, 1961.

Cragg, G.R., The Church and the Age of Reason (1648–1789). Bristol, 1960.

Crombie, A.C., Augustine to Galileo, Vol. I : Science in the Middle Ages (V–XIII Centuries). London, 1961.

Crump, C.G. & Jacob, E.F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1951.

Daniel-Rops, L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade. Paris, 1952.

Davies, R.T., The Golden Century of Spain (1501—1621). London, 1964.

Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin. Paris, 1920.

Diehl, Ch. & Marçais, G., Histoire du Moyen Age, Tome III. Paris, 1944.

Dodge, B., Al-Azhar - A Millenium of Muslim Learning. Princeton, 1961.

Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History. New York, 1959.

Duroselle, J.-B., Histoire du Catholicisme. Paris, 1949.

Encyclopaedia Britannica, 23 vols. Chicago, 1964.

Figgis, J.N., Political Thought from Gerson to Grotius. New York, 1960.

Funck-Brentano, F., Le Moyen Age. Paris, 1922.

Gandillac, M. de, Oeuvres Choisies d'Abélard. Paris, 1945.

Garin, E. & Others, Les Utopies à la Renaissance. Bruxelles & Paris, 1963.

Glanville, S.R.K. (ed.), The Legacy of Egypt. Oxford, 1957.

Goff, J. le, La Civilisation de l'Occident Médiéval. Paris, 1965.

Goyau, G., Orientations Catholiques. Paris, 1925.

Halphen, L., L'Essor de l'Europe (XIe—XIIIe Siècles). Paris, 1941.

Haskins, C.H.,

1. The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge, 1928.
2. Studies in Mediaeval Culture. New York, 1929.
3. The Rise of Universities. New York, 1960.

Hay, D., The Italian Renaissance in its Historical Background. Cambridge, 1961.

Heer, F., The Medieval World : Europe 1100—1350. Translated from the German by J. Sondheimer. London, 1962.

Hillgarth, J.N. (ed.), The Conversion of Western Europe, 350-750. London, 1969.

Hitti, P.K., History of the Arabs from the Earliest Times to the Present. London, 1964.

Homo, L., Nouvelle Histoire Romaine. Paris, 1941.

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages. London, 1955.

Jacob, E.F., The Fifteenth Century (1399—1485). Oxford, 1961.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

Ker, W.P., The Dark Ages. London, 1955.

Kitchin, G.W., A History of France, Vol. I : B.C. 58-A.D. 1453. Oxford, 1899.

Kitto, H.D.F., The Greeks. Melbourne, 1954.

Laistner, M.L.W., Thought and Letters in Western Europe, A.D. 500 to 900. London, 1957.

LaMonte, J., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lesourd, P., Histoire de l'Eglise. Paris, 1939.

Lewis, B., The Arabs in History. London, 1958.

Lewis, E., Medieval Political Ideas. 2 vols. London, 1954.

Machiavelli, N., Florence and the Affairs of Italy to the Death of Lorenzo the Magnificent. New York, 1960.

Mackie, J.D., The Earlier Tudors (1485—1558). Oxford, 1966.

Mahmoud, S.F., The Story of Islam. Karachi, 1959.

Malet, A. & Issac, J., Le Moyen Age jusqu'à la guerre de cent ans. Paris, 1926.

Masson, G., Mediaeval France from the Reign of Hugues Capet to the Beginning of the Sixteenth Century. London, 1888.

Maurois, A., Histoire d'Angleterre. Paris, 1937.

McKisack, M., The Fourteenth Century (1307—1399). Oxford, 1959.

Michaud, M., Histoire des Croisades. 7 t. Paris, 1819—1822.

Molinier, A., Les Sources de l'Histoire de France depuis les origines jusqu'en 1815, Vol. III : Les Capétiens, 1180—1328. Paris, 1903.

Mommsen, T.E., Medieval and Renaissance Studies. Ed. by E.F. Rice. Ithaca, 1959.

Monnier, L. le, Histoire de Saint François d'Assise, 2 vols. Paris & Lyon, 1906.

Monroe, P., A Text-Book in the History of Education. New York, 1914.

Moreau, E. de, Histoire de l'Eglise. Paris, 1931.

Mott, G.F. & Dee, H.M., An Outline-History of the Middle Ages. New York, 1950.

Murray, J.A.H. (ed.), A New English Dictionary on Historical Principles. Vol. I. Oxford, 1888.

Myers, A.R., England in the Late Middle Ages (1307-1536). London, 1953.

Ostrogrosky, G., History of the Byzantine State. Translated by J. Hussey. Oxford, 1956.

Painter, S., A History of theMiddle Ages : 284—1500. London, 1966.

Paris, G., Mediaeval French Literature. Translated from the French by H. Lynch. London, 1903.

Perior, A., La Chanson de Roland. Paris (N.D.)

Pernot, M., La Chanson de Roland. Paris, 1950.

Piganiol, A., L'Empire Chrétien, deuxième partie (325—395). Paris, 1947.

Pirenne, H.,

1. Medieval Cities. Translated from the French by F.D. Halsey. Princeton, 1948.
2. Economic and Social History of Medieval Europe. Translated from the French by I.E. Clegg. London, 1961.

Poole, A.L., From Domesday Book to Magna Carta (1087—1216). Oxford, 1964.

Powicke, M., The Thirteenth Century (1216—1307). Oxford, 1962.

Previté-Orton, C.W. (ed.), The Shorter Cambridge Medieval History. 2 vols. Cambridge, 1952.

Rashdall, H., Universities of Europe in the Middle Ages. 3 vols. Oxford, 1936.

Rosenthal, E.I.J., Political Thought in Medieval Islam. Cambridge, 1958.

Runciman, S.,

1. Byzantine Civilisation. London, 1948.
2. A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1954—55.

Sabine, G.H., A History of Political Theory. London, 1948.

Seignobos, Ch., Histoire Sincere de la Nation Française. Paris, 1933.

Setton, K.M. (ed.), A History of the Crusades, Vol. I : The First Hundred Years. Ed. by M.W. Baldwin. Philadelphia, 1958.

Shaw, Trends of Civilization and Culture, 1932.

Stanley, D., Lectures on the History of the Eastern Church. London, 1924.

Steinberg, S.H., Historical Tables, with a foreword by G.P. Gooch. New York, 1966.

Stenton, F.M., Anglo-Saxon England. Oxford, 1965.

Stone, D., France in the Sixteenth Century — A Medieval Society Transformed. New Jersey, 1969.

Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Taylor, H.O., The Classical Heritage of the Middle Ages. New York, 1957.

Trevelyan, G., A Shortened History of England. Aylesbury, 1960.

Turberville, A.S., Mediaeval Heresy and the Inquisition. London, 1920.

Vidler, A.R., The Church in an Age of Revolution. London & Beccles, 1968.

Vitry, J. de, The History of Jerusalem A.D. 1180. Translated from the Original Latin by A. Stewart. London, 1896.

Vodoz, J., Roland. Paris, 1920.

Wallon, H., Saint Louis. Tours, 1897.

Warrington, J., Everyman's Classical Dictionary (800 B.C. – A.D. 337). London, 1969.

Waugh, W.T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

Wheeler, M., Rome Beyond the Imperial Frontiers. London, 1955.

Whitelock, D., The Beginnings of English Society : The Anglo-Saxon Period. London, 1954.

Woodward, E.L., History of England. London, 1957.

بيان الخرائط واللوحات

الخرائط

اللوحات

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

نشأة الجامعات

في

العصور الوسطى

كلمة المترجم

تحدثنا فى القسم الأول من هذا المجلد عن اليقظات والنهضات التى شهدتها أوروبا فى العصور الوسطى المبكرة ، والتى أثمرت بظهور الجامعات فى القرن الثانى عشر. ولا ندعى لأنفسنا فيما قدمناه خلقا أو ابتكارا ، وإنما مجهودا متواضعا يتمثل فى تسليط الأضواء على تلك اليقظات والنهضات الأولى التى ارتبط بعضها بعدد من الشخصيات الحاكمة مثل الإمبراطور الألمانى شارلمان والملك السكسونى ألفريد ؛ بينما التصق البعض الآخر بحركات الإصلاح الدينى المعروفة مثل كل من الإصلاح البندكتى والإصلاح الكلونى ؛ وانتمى عـــدد منها إلى تلك المدارس التى ألحقت بالمؤسسات الدينية . وغنى عن القول إن الصلة بين العلم والدين والأدب فى تلك الفترة المبكرة كانت صلة قوية وثيقة ، إذ يعتبر كل منها متمما للآخر ومرتبطا به وانعكاسا له. ذلك أن رجال الدين كانوا هم أنفسهم الفئة المثقفة المتعلمة التى أنشأت المدارس التابعة للمؤسسات الدينية التى كانت النواة الأولى لجامعات العصور الوسطى. فكانوا هم مؤسسوها وهم نظارها ومديروها ، وهم أيضا الذين خلفوا لنا العديد من الكتب والمؤلفات والبحوث والدراسات والمقالات فى الفكر والأدب والفلسفة واللاهوت ، والتى ساعدت فيما بعد على ظهور النهضة العلمية الأولى المعروفة بنهضة القرن الثانى عشر ، تلك النهضة التى أدت إلى احتكاك الفكر الإنسانى بين عدد من كبار المفكرين أمثال القديس برنارد أوف كليرفو الذى كان يمثل الفكرة الدينية القديمة المتزمتة والفيلسوف بطرس ابيلارد صاحب الفكر الحر. وقد أدى هذا الاحتكاك على مسائل حيوية وجوهرية فى التفكير والفلسفة إلى نشأة الجامعات التى أصبحت فى العصر الحديث أساسا للتعليم العالى ، والتى تخرج منها الشباب المثقف المستنير .

كانت ، إذن ، نشأة الجامعات فى الغرب ، وليدة تلك الجهود العلمية المستمرة المضنية عبر القرون الطويلة التى عاشتها اوروبا منذ انهيار الدولة الرومانية القديمة وبداية القرون الوسطى حتى القرن الثانى عشر . وكانت نشأة الجامعات ، أيضا ، ثمرة طيبة من ثمار تلك الحقبة الوسيطة من التاريخ ، انتقلت بأوروبا من عصر الجهالة والظلمات إلى عصر العلم والمعرفة .

ويعتبر كتاب « نشأة الجامعات » لمؤلفه شارل هومر هاسكنز من المراجع الرئيسية التى ظهرت فى هذا المجال حتى الآن (١) ، كما يعتبر هاسكنز نفسه من الرواد الأول الذين تصدوا للكتابة فيه . ولا بد للباحث إذا تعرض لهذا الموضوع من أن يشير إلى مؤرخين كبيرين كتبا فيه هما : هاستنجز راشدال صاحب كتاب « جامعات اوروبا فى العصور الوسطى » فى ثلاثة أجزاء ، وشارل هومر هاسكنز مؤلف كتاب « نشأة الجامعات » . وإن امتاز الأول بالإفاضة والإسهاب والدخول فى الدقائق والتفصيلات ، فقد تميز الثانى بالتركيز مع تناول الخطوط الرئيسية المتعلقة بالموضوع تناولا علميا موضوعيا شاملا . وعلى هذا ، فلكل منهما ميزاته ، ولا يغنى أحدهما عن الآخر .

وإلى جانب كتابى راشدال وهاسكنز توجد مؤلفات وبحوث عديدة باللغات الأجنبية تناولت جانبا من تاريخ الجامعات أو زاوية من زواياه ، نذكر من بينها — على سبيل المثال — كتاب ا . س . ريت A. S. Rait عن الحياة فى جامعات

---

(١) أنظر تقريظ المؤرخين لويس جون بيتاو وثيودور ا . ممسن لكتاب هاسكنز فى : Paetow, L. J., A Guide to the Study of Medieval History (London, 1931), pp. 293, 475 ; Haskins, C. H, The Rise of Universities (New York, 1960), p. viii.

العصور الوسطى ، وكتاب ج . مكابى J. McCabe عن طالب العصور الوسطى ، وكتاب أ . نورتون A. Norton عن تاريخ العلم والتعليم فى العصر الوسيط ، وكتاب هـ . دينفل H. Denifle عن بدايات جامعات العصور الوسطى ، وهكذا . فنيها هى وغيرها معلومات طيبة تتعلق بالموضوع وتخدم جانبا من جوانبه العديدة المتعددة (١) .

ولد شارل هومر هاسكنز مؤلف كتاب « نشأة الجامعات » الذى قمنا بنقله إلى العربية فى هذا المجلد ، فى بنسلفانيا عام ١٨٧٠ م وتوفى فى كامبريدج عام ١٩٢٧ م عن ٦٦ عاما أمضاها فى حياة حافلة بالعمل الجاد المتواصل والانتاج العلمى الرفيع . درس اللغتين اللاتينية واليونانية وأجادهما مما يسر له أمر الاطلاع على الوثائق والمستندات المكتوبة بها والإفادة منها إلى أبعد حد . ويبدو هذا واضحا فى إنتاجه العلمى من كتب وبحوث ودراسات فى نظم وحضارة القرون الوسطى . وتلقى هاسكنز تعليمه بجامعات جونز هوبكنز بأمريكا وباريس بفرنسا وبرلين بألمانيا . وقام بالمحاضرة والتدريس فى العديد من الجامعات الأمريكية ، مبتدئا بجامعة جونز هوبكنز التى تلقى بها تعليمه ، ثم جامعة ويسكونسن إلى أن استقر به المطاف آخر الأمر بجامعة هارفارد حيث عمل بها قرابة ٣٠ عاما من ١٩٠٢ إلى ١٩٣١ م .

ولقد امتاز هاسكنز طوال حياته العلمية بقوة شخصيته وصفاء ذهنه وحدة ذكائه ونشاطه الدائب المتقد ومثابرته الجادة اللهوفة على العمل وعزيمته القوية

---

(١) أنظر قائمة المراجع المذيل بها كل فصل من الفصول الثلاثة من هذه الترجمة ، فقد تضمنت أهم ما ظهر فى تاريخ الجامعات الأوروبية فى العصر الوسيط من كتب وبحوث ودراسات .

التى لم تكن تعرف الكلل أو الملل ، فضلا عن قدرته الفائقة على حل المشكلات والمعضلات التى كانت تواجهه . وهو إلى جانب ذلك خفيف الظل، حلو الحديث، حاضر البديهة ، سريع النكتة ، يعرف كيف يقنع مستمعيه بآرائه وأفكاره وكيف يخرج من المجادلات والمناقشات التى يشترك فيها منتصرا ظافرا. هذا ،وقد تخرجت على يديه أجيال عديدة من العلماء والباحثين فى الحقل الأكاديمى الذين اقتفوا خطاه وساروا على منهاجه العلمى السليم ، ومن بينهم العالم تيودور أ. ممسن . وأصبحت له مدرسة كاملة من تلامذته وأصدقائه ومريديه تنتشر فروعها فى كافة أنحاء عالم البحث فى هذا القرن العشرين .

والمدقق المتعمق فى إنتاج هاسكنز يجد أنه وجه عناية خاصة إلى موضوعين رئيسيين فى نظم وحضارة اوروبا فى العصور الوسطى، هما النظم فى الشمال الفرنسى وتطور الحركة العلمية والفكرية فى المجتمع الغربى الوسيط، وله فيهما مؤلفات ودراسات عديدة تعتبر مصادر ثقة يرجع إليها الباحثون والدارسون المتخصصون . ففيما يتعلق بالموضوع الأول صدر له فى سنة ١٩١٨م كتاب باسم « النظم النورمانية » وقد ظهرت له طبعة جديدة سنة ١٩٦٠ . ونشر له سنة ١٩٢٥ كتاب يحمل إسم «النورمان فى التاريخ الأوروبى» . كما ظهر له فى الموضوع الثانى أكثر من مؤلف منها كتابه « نشأة الجامعات » الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٣ وتلتها طبعات أخرى كانت آخرها طبعة سنة ١٩٦٠ م . وله أيضا كتاب يحمل عنوان « دراسات فى تاريخ العلم » ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٤ والثانية سنة ١٩٢٧ ؛ ومؤلف باسم « نهضة القرن الثانى عشر » صدر سنة ١٩٢٧ ؛ ثم كتاب « دراسات فى ثقافة العصور الوسطى » ظهر سنة ١٩٢٩ . ويضاف إلى ذلك العديد من البحوث والدراسات القيمة التى نشرت له فى المجلات التاريخية الأمريكية

نذكر منها مقالاته « حياة الطلبة فى العصور الوسطى كما تكشف عنها خطاباتهم ومراسلاتهم »، و «جامعة باريس من واقع عظات القرن الثالث عشر »، و «أدوات الطلبة وكتيباتهم » .

وإذا كان هاسكنز وراشدال يعتبران من الرواد الأول الذين تصدوا للكتابة فى هذا الموضوع الصعب فى الخارج، فإن الإنصاف يقتضينا القول بأن الزميل الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور يعتبر أول من ألف بالعربية كتابا قائما بذاته عن الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، وهو يعتبر المؤلف الوحيد الذى ظهر بالعربية فى هذا الخصوص. كذلك أثرى الدكتور سعيد عاشور المكتبة التاريخية العربية بما زوده بها من تآليف فى نظم وحضارة العصور الوسطى تضمنت فيما تضمنته فصولا وأبوابا تخدم هذه الدراسة ، نذكر من بينها الجزء الثانى من كتاب « أوربا العصور الوسطى» ، وقد تعرض المؤلف فى الباب الخامس منه للتعليم والمدارس والجامعات وتناول فى الباب التاسع موضوع الآداب، وكذلك كتاب «المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية » الذى عالج فيه المؤلف الأساس العلمى المتين الذى قامت عليه الحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى عندما أفاد الغرب من المدنية الإسلامية عن طريق مراكز الإشعاع الثقافى المعروفة وقتذاك وهى الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وبلاد الشام . وهناك أيضا كتاب « النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة » الذى وضعه الدكتور عاشور بالاشتراك مع الدكتور محمد أنيس، وبخاصة الباب الثانى الذى يعالج النهضة الكارولنجية والباب الثالث الذى يتناول تاريخ النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر. وغنى عن القول إننا أفدنا فائدة كبرى من مؤلفات الدكتور عاشور، وبخاصة فى القسم الأول من هذا المجلد وفى حواشى القسم الثانى منه .

وإلى جانب هذه المؤلفات العربية القيمة، يجد القارىء نتفا وشذرات أو فصلا أو بعض فصل فى عدد قليل من الكتب العربية والمعربة فى تاريخ العصور الوسطى

ونظمها وحضارتها . نذكر من بين الكتب المؤلفة « المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى » للدكتور ابراهيم احمد العدوى ، و « نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط » للدكتور حسن حنفى حسنين ، و « فلسفة العصور الوسطى » للدكتورعبد الرحمن بدوى ، و « الثقافة والتربية فى العصور الوسطى » للدكتور وهيب ابراهيم سمعان ، و « تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط » ليوسف كرم .

ومن الكتب المعربة نذكر كتاب « شارلمان » تأليف هنرى وليم ديفيز ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، وكتاب « تاريخ أوربا فى العصور الوسطى » تأليف هربرت فشر ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور ابراهيم احمد العدوى ، وكتاب « تراث العصور الوسطى » الذى أشرف على تحريره كرامب وجاكوب وقام بمراجعة الترجمة العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة ومحمد بدران ، وكتاب « عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة » تأليف جورج جوردون كولتون وقد قمنا بنقله إلى اللغة العربية .

لعله يتضح مما سبق أنه لا يوجد كتاب مستقل قائم بذاته باللغة العربية فى موضوع جامعات العصور الوسطى سوى مؤلف الدكتورسعيد عاشور الذى يسد ثغرة كبيرة فى هذه الناحية . وعلى هذا فالكتاب الذى نقدمه لقراء العربية لأول مرة ، هو الآخر أول كتاب معرب فى تاريخ نشأة الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى لواحد من كبار المؤرخين الأجانب المتخصصين فى هذا الميدان .

وكتاب هاسكنز كان ، أصلا ، عبارة عن سلسلة من المحاضرات ألقاها عام ١٩٢٣ فى جامعة براون الأمريكية ، ثم جمعها فى كتاب صدرت طبعته الأولى فى نفس العام ، وتوالت بعد ذلك طبعاته خلال أعوام ١٩٥٧ و ١٩٥٩ و ١٩٦٠ . وقد اعتمدنا فى ترجمتنا على الطبعة الأخيرة ، وهى طبعة مذيلة ومنقحة .

يشتمل الكتاب على ثلاثة فصول كبيرة : الأول عن الجامعات المبكرة ، والثانى عن أستاذ العصور الوسطى ، والثالث عن طالب العصور الوسطى .

قدم المؤلف للفصل الأول بالحديث عن الجامعات باعتبارها من نتاج العصر الوسيط ، مبيناً أن معاهد العلم التى تعرف اليوم باسم « جامعات » إنما ترجع أصولها إلى القرن الثانى عشر عندما كانت الجامعة تسمى Studium generale أى المدرسة العامة، بمعنى أنها المكان الذى يتلقى فيه الطلبة العلم . ثم يتناول بالبحث أصل كلمة « جامعة » « University » التى اشتقت أساسا من بعض العبارات الواردة فى المراسيم المبكرة الخاصة بالجـــامعات مثل عبارة « Universitas magistrorum et scholarium parisiensium » ، وكذلك عبارة « Universis presentes litteras inspecturis » . ويعالج هاسكنز بعد ذلك مسألة التحديد الزمنى لبدايات الجامعات المبكرة وما ثار حولها من جدل ونقاش . وبعد هذه المقدمات ، ينتقل إلى الحديث عن أقدم جامعتين فى الغرب وهما : جامعة بولونيا فى الجنوب وجامعة باريس فى الشمال. وكانت بولونيا تعتبر مركزاً هاماً لإحياء القانون الرومانى والمحافظة عليه . وهنا يتعرض المؤلف فى شىء من التفصيل لكل من القانون المدنى والقانون الكنسى ، مشيراً إلى كبار المشرعين الذين ارتبطت أسماؤهم بالنهضة التى صاحبت كلا القانونين ، وكذلك قيام اتحادات الطلبة المغتربين ونقابات الأساتذة فى بولونيا والأسباب التى أدت إلى قيامها والنتائج المترتبة عليها .

ويعالج هاسكنز فى هذا الفصل أيضا موضوعين هامين، أولها الدرجات الجامعية وإجازة التدريس المعروفة باسم licentia docendi التى كانت تتيح لحاملها الدخول فى سلك أعضاء هيئة التدريس، وثانيها الامتحانات التى كانت تعقد للحصول على هذه

الدرجات العلمية وهى الليسانس والماجستير والدكتوراه ، علماً بأن درجة دكتور فى الفلسفة Ph. D. degree لم تكن معروفة فى جامعات العصور الوسطى.

وإذا كانت جامعة بولونيا هى أهم جامعات الجنوب الاوروبى ، فلم يغفل المؤلف الإشارة إلى جامعة كانت لها شهرتها وكانت أسبق فى الظهور من بولونيا ، وهى مدرسة الطب فى سالرنو التى اكتسبت شهرتها مبكراً فى القرن الحادى عشر ، والتى يرتبط إسمها بإسم قسطنطين الإفريقى Constantinus Africanus فى النصف الثانى منه . وهى وإن كانت أقدم عهداً من بولونيا ، إلا أن جامعة بولونيا بزتها وتفوقت عليها حتى غدت جامعة نموذجية نهجت نهجها العديد من الجامعات الأخرى التى ظهرت فيما بعد .

وينتقل هاسكنز من بولونيا والجنوب الاوروبى إلى جامعة باريس التى كانت أولى جامعات الشمال . فيتحدث عن تاريخها ونشأتها وتطورها التدريجى من المدرسة الكاتدرائية على أرض الجزيرة المطلة على السين ومدرسة القديسة جنيفييف ، إلى أن أخذت شكلها الجامعى المعروف ، وكذلك المراسيم والبراءات التأسيسية الخاصة بها التى تعرف باللاتينية باسم Jus ubique docendi ، والتى أصدرها البابوات والأباطرة لصالح الجامعة المذكورة . ويشير مؤلف كتاب « نشأة الجامعات » إلى مشكلة من أهم المشاكل التى واجهت الطلبة الأجانب الذين وفدوا من كل مكان لتلقى العلم فى باريس ، ونعنى بها مشكلة تدبير المأوى للعدد الغفير من الطلبة الغرباء والتى اقتضت إنشاء نزل وبيوت لهم ، وبخاصة للفقراء والمعدمين منهم . وقد تطورت هذه النزل ، مع الزمن ، إلى معاهد علمية مثل معهد السوربون نسبة إلى مؤسسة روبرت السوربونى . وتزايد عدد هذه المعاهد العلمية فى باريس خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر زيادة واضحة ، وكانت تعتبر بمثابة

كليات جامعية «colleges» . وفى ختام الفصل الأول يشير هاسكنز إلى ندرة المخلفات والبقايا المادية الملموسة للجامعات المبكرة ، مبيناً أننا نحتفظ بمجرد ذكرى لها فى الاحتفالات الأكاديمية والزى والتقاليد والنظم الجامعية وما إليها.

ويتناول المؤلف فى الفصل الثانى ثلاث نقاط رئيسية تتعلق أولاها بالدراسات والكتب الدراسية فى الفترة المبكرة من العصر الوسيط . فيشير إلى الفنون الحرة ، وحركة إحياء التراث الكلاسيكى القديم ، ثم مناهج كلية الآداب والمواد التى كانت تدرس فى كليات الدراسات العليا وهى اللاهوت والطب والقانون ، موضحاً أن جامعات العصور الوسطى كانت تخلو من المعامل والمكتبات لعدم الحاجة إليها وقتذاك . ويتطرق فى النقطة الثانية لموضوع الروتين اليومى فى جامعة العصر الوسيط ، من حيث طرق التدريس ووسائله ، وقاعات الدراسة ، والمحاضرات ومواعيدها ، والمناقشات والمجادلات ، والامتحانات ، مع توجيه العناية إلى عدد من الأساتذة المبرزين ممن ذاع صيتهم من أمثال بطرس أبيلارد وبرنارد أوف كليرفو وجون أوف ساليسبورى وغيرهم ويعالج فى ختام هذا الفصل النقطة الثالثة ، وهى تتضمن عدة موضوعات حيوية مثل المركز الاجتماعى لأساتذة العصر الوسيط ، ومدى تدخل السلطات الكنسية فى حرية العلم والتعليم ، وممارسة الأستاذ الجامعى لواجبه الأكاديمى ، وحرية الفكر والتعبير عن الرأى والقيود التى كانت تخضع لها ، ومدى تغلغل النفوذ الكنسى فى جامعات العصر الوسيط .

وفى الفصل الثالث والأخير يتعرض المؤلف لطلبة العصور الوسطى ، فيشير إلى المصادر التى يمكن أن يستقى منها الدارس معلوماته عن حياتهم ، وهى سجلات المحاكم واللوائح الجامعية وعظات المبشرين والحوليات وقصائد الشعراء ، تلك الوثائق والمستندات التى تلقى بعض الأضواء على حياة الصخب واللهو والمرح

التى انغمس فيها بعض الطلبة ، وحياة البؤس والتعاسة والشقاء التى كان يحياها البعض الآخر . ثم هى تكشف عن مشاكل العديد من الطلبة ومشاغباتهم وثوراتهم وتمردهم وعصيانهم. وهناك أيضا أدلة الطالب، والمقصود بها الكتيبات والمختصرات التى كان يحتفظ بها أو يرجع اليها لمواجهة شئون الحياة اليومية فى محيطه الجديد ، من مأكل ومشرب وملبس ومأوى وخلافه ، وكذلك ما يتعلق بآداب المائدة وآداب الحديث والسلوك والإتيكيت والمجاملات ، مثل « قاموس الطالب » و « كتاب فن المحادثة » و « تقويم هايدلبرج » و « كتاب آداب المائدة » وكتاب « الإتيكيت وآداب السلوك » وما إليها . وكان الطالب المغترب فى حاجة شديدة إلى مثل هذه المختصرات الأولية لتكون له رفيقا ودليلا ومرشدا ، وإن بدت اليوم بالنسبة لنا سطحية وبدائية .

وفى أسلوب رائع وعرض ممتع ممتاز يتناول هاسكنز بعد ذلك موضوع خطابات الطلبة وأشعارهم مبينا كيف أنها تكشف عن حياتهم الجامعية فى صدق ووضوح . وإذا كانت الوثائق والمختصرات السابق الإشارة إليها قد تضمنت إشارات مبعثرة هنا وهناك تساعد على فهم بعض الجوانب فى حياة الطلبة ، فإن مراسلات الطلبة وقصائدهم تزودنا بصورة نابضة بالحركة والحياة عن هذا العنصر الذى كان يمثل الكثرة الغالبة فى جامعة العصر الوسيط ؛ ثم هى تعطينا ، فى نفس الوقت ، فكرة طيبة عن مختلف المشاعر والأحاسيس والإنفعالات البشرية التى كانت تعتمل فى نفوسهم .

وكانت خطابات الطلبة ، فى معظمها ، مجرد نماذج تعبر عن صوت المجموع وتكاد تخلو من العنصر الشخصى أو الفردى ، وتدور تقريبا حول موضوع واحد هو طلب المال ليتمكن الطالب من مواجهة أعباء المعيشة والإقامة فى مركزه العلمى

الجديد، فضلا عن اللوازم والضروريات الاخرى، وتكشف أيضا عن مختلف الحجج والأعذار التى كان الطالب يتعلل بها للحصول على النقود من الوالدين أو من الأهل والاقارب والأصدقاء . أما أشعار الطلبة فيعبر عنها الشعر الغنائى الجولياردى الذى يرجع إلى فترة زمنية محددة تقع بين عامى ١١٢٥ و ١٢٢٥ م . ويتحدث هذا الشعر عن الشراب والنساء والربيع والحب والحياة الصاخبة المتحررة من كل القيود ، كما يهاجم الجهاز الكنسى البابوى فى أسلوب لاذع تهكمى بسبب العيوب التى استشرت فيه وتغلغلت فى كيانه . ويعرض هاسكنز نماذج ممتعة من هذا الشعر تكشف عن الجانب الاكثر مرحا والأشد طربا فى حياة الطالب. فهو يلهوويستمتع بالطبيعة وجمالها ويشرب حتى الثمالة ، وهو يتسكع فى الشوارع والطرقات مسببا المضايقات للمارة والأهالى ، أو يقضى وقت الفراغ داخل الحانات . وباختصار نراه وهو يستمتع بالحياة ومباهجها وملذاتها وقد انغمس فيها حتى أذنيه. ولكن هناك أيضا الطالب البائس المسكين وهو لايكاد يجد ما يستر به جسده أو مايقيه من البرد القارس أو حتى ما يعينه على مواصلة تعليمه ، فهو يلتمس الصدقة والإحسان لاستكمال دراسته ومواجهة مطالب الحياة الأخرى .

وإذا كانت الوثائق والمستندات والمراسلات والأشعار المشار إليها تتحدث - عادة - عن الطالب الذى يعيش فى ضياع والذى يحيا حياته الخاصة ويسعى إلى إشباع رغباته ونزواته بكل السبل والوسائل ، فهناك أيضا الطالب المثالى المجد الوقور الذى كان يلقى التقدير والإعجاب والاحترام من الجميع . يقول هاسكنز إن هذا الطالب كان موجوداً ويمثل قطاعا هاما من جمهور الطلبة . ولكن لما كان الإنتاج الأدبى للطلبة يعبر عن صوت المجموع وليس صوت الفرد ، لذلك خلا هذا الإنتاج تقريبا من الإشارة إلى مثل هذا الطالب المجد ، وإن كان هذا لا يمنع

من القول بأنه توجد نتف مبعثرة في ثنايا وثائق العصر ومستنداته تلقى بعض الضوء عليه . فهو يستيقظ من نومه مبكراً ، ويحرص على حضور المحاضرات في مواعيدها ، ويواظب على الاستماع إلى أساتذته والاشتراك في المناقشات ، وهو يعيش أحيانا عيشة الكفاف كي يواصل تعليمه بهمة ونشاط ويحصل على أعلا الدرجات العلمية . وهو ، باختصار، قد خلق للعلم والعمل لا يثنيه عن ذلك شيء ، بل هو في سبيلها على استعداد للتضحية بكل شيء .

وهنا يجدر بنا أن نذكر أن الكتب والمراجع التاريخية التي ترجع إلى تلك الفترة من الزمن قد خلت تقريبا من الإشارة إلى طلبة العصور الوسطى، ولم تكن تهتم إلا بالنواحي السياسية والحربية مع الإشادة بأعمال الأباطرة والملوك والحكام والشخصيات البارزة في المجتمع الأوروبي . ولم يكن يعنيها في قليل أو كثير الإشارة إلى حياة الشعب وكيف كان يعيش أو يفكر وما هي مشاكله وآلامه وآماله . وعلى هذا فإن الشعر الجولياردي ومراسلات الطلبة تلقي ضوءاً واضحا على حياتهم العلمية والاجتماعية وتكشف عن مشاكلهم مما لانجده في الوثائق والمصادر التاريخية ولا خلاف أن مثل تلك الأشعار والخطابات التي تتناول حياة الطلبة في العصور الوسطى وتصف مجتمعهم تطاول في قيمتها الأصول التاريخية إن لم تتفوق عليها ، ذلك أنها حفظت لنا ما أهمل التاريخ تسجيله .

وبعد كل ما تقدم يعقد هاسكنز مقارنة طريفة بين طالب الأمس وطالب اليوم وأوجه الشبه والخلاف بينهما . فهما يختلفان باختلاف الظروف والأزمان ، ولكنهما يتشابهان — إلى حد بعيد — فيما يتعلق بقصتهما مع العلم ونظرتهما إلى الحياة ومشاكلهما المشتركة من حيث المأوى والملبس والكتب والحاجة إلى المال، وعلاقتهما بالأساتذة وبعضهم البعض، ثم حياة اللهو والمرح والزمالة الطيبة والرغبة في اقتناء

العلم وتحصيل المعرفة . فضلا عن إرث ممتد متواصل من العرف الجارى والعادات والتقاليد الجامعية عبر ثمانية قرون أو يزيد منذ نشأة أولى الجامعات فى القرن الثانى عشر حتى جامعة القرن العشرين .

لقد تركت تلك الجامعات المبكرة أعمق الأثر فى الحياة والفكر فى العصر الوسيط. ولعل أبلغ دليل على ذلك أنها أسهمت فى إطلاق الفكر الحر من عقاله ، وأخرجت العديد من أساطين الأساتذة الذين شاركوا فى تفجير ينابيع الثورة ضد الآراء والأفكار القديمة البالية ، والذين نادوا بالإصلاح فى مختلف النواحى وعلى رأسها الناحية الدينية ، مما كان له أكبر الأثر فى الخروج بأوروبا من عصر الظلام إلى عصر العلم ، والانتقال بها من العصور الوسطى بمثلها ومفاهيمها وقيمها وفلسفتها إلى عصر النهضة الذى تميز بأوضاع ومبادىء جديدة مغايرة .

هذا عرض وتحليل لكتاب « نشأة الجامعات » ومؤلفه شارل هومر هاسكنز. وبعد ، فقد اقتضى نقل الكتاب إلى اللغة العربية تزويده بكثير من المعلومات والحواشى والفهارس واللوحات التى لم يتضمنها الأصل الإنجليزى ، حتى يبدو فى شكل مناسب ومقبول بالنسبة للقارىء العربى . من ذلك المقدمة التى مهدنا بها لهذه الترجمة . كما زودنا الترجمة بعدد غير قليل من التعليقات والملاحظات فى الحواشى، وتمييزاً لها عن حواشى الأصل الإنجليزى وضعنا كلمة « المترجم » بين حاصرتين بعد كل حاشية منها. ومعظم هذه التعليقات والملاحظات خاصة بالأعلام والأماكن والآثار والوقائع والأحداث الهامة والمصطلحات التاريخية .كذلك ذيلنا كل فصل من فصول الكتاب الثلاثة بقائمة بأهم المراجع الأجنبية الخاصة به ، مع نقد وتقييم للمراجع التى وجدنا أنها بحاجة إلى نقد أو تقييم . هذا ، وقد زودنا المتن بعدد قليل من العبارات القصيرة المركزة بقصد الإيضاح أو التعريف ، وتمييزا لها عن

الأصل الإنجليزى المترجم فقد وضعنا كل عبارة منها بين حاصرتين ، علما بأن هذه الزيادات فى أضيق الحدود .

ونظراً لأنه لا يوجد فى الأصل الإنجليزى بيان تفصيلى بمحتويات الكتاب وعناصر كل فصل من فصوله الثلاثة ، ولا يوجد به أيضا فهرس علمى مصنف بأسماء الأعلام والأماكن والآثار ، والمدارس والمعاهد والجامعات وغيرها — فقد قمنا بتضمين ترجمتنا هذه البيانات والفهارس المذكورة ، بالإضافة إلى عدد من الصور واللوحات التى تبين حياة طلبة العلم فى العصور الوسطى ، أما الخرائط الإيضاحية والملاحق التى تشتمل على نصوص ووثائق أصلية تتصل بموضوع التعليم والجامعات اتصالا مباشراً ، فهى توجد بآخر القسم الأول من هذا المجلد .

والله أسأله التوفيق والسداد ؟

الاسكندرية فى يوليو ١٩٧١ — جوزيف نسيم يوسف

القسم الثاني

نشأة الجامعات

تأليف
ش. ه. هاسكنز

ترجمة
وتقديم وتعليق
جوزيف نسيم يوسف

هذا القسم من المجلد هو ترجمة لـكتاب :

C. H. Haskins, The Rise of Universities, 3rd printing, Ithaca, New York, 1960. [Gréat Seal Books — A Division of Cornell University Press].

طبعات الكتاب

فى لغته الأصلية الإنجليزية

ــ كان أصلا سلسلة من المحاضرات التى ألقيت عام ١٩٢٣ م فى جامعة براون ، وقد قامت الجامعة بطبعها فى نفس العام .

ــ صدرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٢٣ م (طبعة هنرى هولت وشركاه) .

ــ أعيد طبع الكتاب فى السنوات : ١٩٥٧ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ (مطبعة جامعة كورنل الأمريكية) .

مقدمة

بقلم

تيودور أ. ممسن

ولد شارل هومر هاسكنز فى بلدة ميدفيل Medville فى بنسلفانيا فى الحادى والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٠ م . ويرجع الفضل إلى أساسه العلمى المتين الذى جعله يتقن اللغات القديمة والحديثة على السواء إتقانا تاما ، فضلا عن علمه الواسع الغزير ، وهو بعد فى سن صغيرة . فما أن بلغ الخامسة أو السادسة من العمر حتى أخذ والده يعلمه اللغة اللاتينية ، ثم درس اللغة اليونانية بعد ذلك بفترة وجيزة وتخرج من جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins University وهو فى السادسة عشرة من عمره . ودرس بعد ذلك فى جامعتى باريس وبرلين حيث حصل على درجة الدكتوراه . ثم قام بالتدريس فى جامعة جونز هوبكنز التى تعلم بها ، ولم يكن قد بلغ سن العشرين . وبعد أن أمضى هاسكنز اثنى عشر عاما فى خدمة جامعة ويسكونسن University of Wisconsin ، دعته جامعة هارفارد عام ١٩٠٢ م حيث ظل يحاضر بها حتى عام ١٩٣١ م ، عندما اضطرته حالته الصحية السيئة إلى التوقف عن العمل . وفى كامبريدج ، فى الرابع عشر من مايو سنة ١٩٣٧ م وافته منيته .

لقد أصبح هاسكنز طوال فترة خدمته فى جامعة هارفارد واحدا من أعظم رجالها . ولا يرجع الفضل فى ذلك إلى المنصب الذى كان يشغله باعتباره عميدا لكلية الآداب والعلوم فى الفترة من سنة ١٩٠٨ م إلى سنة ١٩٢٤ م فحسب ،

وإنما يرجع أولا وقبل كل شيء إلى شخصيته القوية . وليس هناك شهادةموجزة تتناول السمات الأساسية المميزة لشخصية هاسكنز ، أفضل من كلمة التأبين التي كتبها في ذكرى وفاته ثلاثة من أقرب الزملاء إليه ، وهاك نصها :

« إمتاز هاسكنز بتضلعه وتفوقه في طريقة تدريسه للتاريخ باعتباره فنا من الفنون الحرة أو علما من العلوم الإنسانية . كما ترك أثره على جميع الطلاب المبرزين في التاريخ . وليس أدل على ذلك من أنهم جميعا قد تتلمذوا على يديه ، وتلقوا منهجا أو أكثر من مناهجه . وهو أيضا يمتاز بمقدرته على الجدل والمحاجاة داخل قاعات الكلية ، وعلى فك الطلاسم وحل المسائل المعقدة بنفس السرعة التي كان غيره يتخلص من مواجهتها . بدأ عمله في الكلية باعتباره رئيسا لها . ومع ذلك ، لم تغره الدعوات العديدة التي تلقاها لشغل مثل ذلك المنصب . كان سريع الخاطر ، صاحب نكتة ، حلو الحديث ، مغرما برياضة المشي لمسافات طويلة . وهو محبوب من أصدقائه في النوادي التي كان يرتادها . ثم هو ، فضلا عن ذلك ، من أفضل الأصدقاء ، شديد التدين والوقار . ومن أجل ذلك لم يلبث أن غدا واحدا من أعضاء أسرة جامعة هارفارد الذين لم يكن بوسع الجامعة الاستغناء عنهم . وقد خلف وراءه إسما يخلد بين مشاهير رجال تلك الجامعة » . (١)

إن المواهب والقدرات التي كان هاسكنز يتمتع بها بوصفه إداريا قديرا ورجل عمل ، جعلت نفوذه يمتد خارج نطاق جامعة هارفارد . وطوال حياته

---

(١) مستقاة من كلمة التأبين التي كتبت بمناسبة وفاة هاسكنز في مجلة Speculum ، الجزء الرابع عشر ، سنة ١٩٣٩ م ، ص ٤١٤ . وهذه الكلمة بقلم ر . ب . بليك R. P. Blake ، وج . ر . كوفمان G. R. Coffman ، وأ . ك . راند E. K. Rand

الحافلة بالعمل والنشاط ، قام هاسكنز بدور قيادى رائد فى العديد من الأجهزة والمؤسسات العلمية فى تلك البلاد ، ومن بينها الجمعية التاريخية الأمريكية ، وأكاديمية العصور الوسطى الأمريكية ، والمجلس الأمريكى للهيئات العلمية . كما أدى فى نهاية الحرب العالمية الأولى خدمات جليلة إلى وفد السلم الأمريكى الذى اجتمع فى باريس ، بوصفه رئيسا للقسم الغربى من اوروبا .

لقد ركز هاسكنز اهتمامه فى دراساته العلمية الخاصة المتعمقة على فترة العصور الوسطى المتقدمة ، أى الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر .[1] ويعتبر موضوع النظم فى شمال فرنسا من بين الموضوعات التى أبدى اهتماما مبكرا بها . وبعد بحوث ودراسات مضنية بالغة الدقة ، استقى مادتها من واقع الأرشيفات والسجلات التاريخية ، أصدر أخيرا فى سنة ١٩١٨ م مؤلفه المعروف باسم «النظم النورمانية» Norman Institutions ، الذى احتل مكانة كبيرة بوصفه عملا نموذجيا أصيلا فى تاريخ النظم الفرنسية والإنجليزية خلال تلك الحقبة من الزمن .

وأما الميدان الآخر الفسيح الذى اهتم به هاسكنز فهو تطور الحركة الفكرية والعلمية . وفى نطاق هذا الميدان وجه اهتماما خاصا إلى تاريخ العلم خلال القرون الوسطى المبكرة . وإن معرفة هاسكنز التامة بالمجموعات الكبرى للمخطوطات

---

(١) المقصود بذلك الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، وهى تشغل القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر التى تميزت بالكفاح المرير بين البابوية والإمبراطورية حول المسائل الملمانية ، كما تميزت باستقرار أوروبا بعد قرون طويلة من الفوضى والاضطراب ، وقيام النهضات العلمية والفكرية والأدبية المبكرة التى هيأت الجو لعصر النهضة كما عرفه التاريخ . [المترجم]

الأوروبية، قد مكنته من أن يستخلص ـ حتى زمنه ـ المادة الخام التى لم يستخدمها أحد من قبل . وهكذا استطاع أن يسلط أضواء جديدة تمام الجدة على المشاكل الكبرى العديدة المتنوعة التى تناولها بالدراسة والبحث فى عدد كبير من المقالات التى صدرت له . وقد جمع هاسكنز أهم النتائج التى توصل إليها من دراساته ، والتى كرس حياته لها ، فى مجموعتين من المقالات : المجموعة الأولى تحمل عنوان « دراسات فى تاريخ العلم» Studies in the History of Science ، وقد صدرت طبعتهـــا الأولى سنة ١٩٢٤ م ، والطبعة الثانية سنة ١٩٢٧ م . أما المجموعة الثانية فهى تحمل إسم « دراسات فى ثقـــافة العصور الوسطى » Studies in Mediaeval Culture ، وقد ظهرت سنة ١٩٢٩ م . وإلى جانب هذه الدراسات التى تعالج موضوعا واحدا ، وضع أيضا نظرية هـامة شديدة الإثارة فى كتابه المعنون « نهضة القرن الثانى عشر » The Renaissance of the Twelfth Century الذى ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٧ م . وقد تهافت القراء على هذا الكتاب منذ صدوره حيث لقى رواجا هائلا .

ويتضح مما لاحظه أحد أصدقاء هاسكنز وهو ف . م . بويك F.M.Powicke أن « هاسكنز آثر أن يكون مقربا عند أفهام عامة الناس » [١] . ومن ثم تناول مغزى وجود النورمان فى التاريخ الأوروبى ، فى سلسلة من المحاضرات التى ألقاها فى جامعتى هارفارد وكاليفورنيا . وقد نشرت المحاضرات المذكورة سنة ١٩٢٥ م تحت نفس العنوان . كذلك قام بتلخيص آرائه ووجهات نظره فيما يتعلق بنشأة

---

(١) أنظر مقالة ف . م . بويك عن هاسكنز فى مجلة : English Historical Review, LII (1937), p. 653.

الجامعات فى ثلاث محاضرات ألقاها فى جامعة براون سنة ١٩٢٣ م ، فقدم بذلك عملا احتفظ بتفوقه على أى إنتاج آخر فيما يتعلق بالمعلومات الحية النابضة التى أمدنا بها .

وفى سنة ١٩٢٩ م صدر بمناسبة الاحتفال بالعيد الأربعينى لبداية حياة هاسكنز العلمية ، مجلد ضخم يضم عدة مقـــالات فى تاريخ العصور الوسطى ، وهى بقلم طلابه وتلامذته . ومن بين اولئك الـكتاب نجد عددا غير قليل من طلاب العلم الذين أصبحت لهم شهرتهم فى ميدان تاريخ العصور الوسطى . وإن الجوانب التى أولوها اهتمامهم الكبير ، فضلا عن عملهم المبدع الخلاق ، إنمـــا يعكسان الإلهام والتدريب اللذين تلقياهما على يد أستاذهم.

ولما كان هاسكنز يعتبر مثالا نادرا لرجل تجمعت فيه صفات المنظم البارع ، وطالب العلم الأصيل ، والمدرس العظيم ، فانه يمكن القول ـــ دون مبالغة ـــ كما جاء على لسان عالم فرنسى معروف فى تاريخ العصور الوسطى ، وهو ف . جوون دى لونجريه F. Jouon de Longrais ، بأن « شارل هومر هاسكنز يمثل ـــ بحق ـــ روح النهضة فيما يتعلق بالدراسات الخاصة بالعصور الوسطى فى الولايات المتحدة الأمريكية » .

تيودور أ . مسون

جامعة كورنل الأمريكية

كلمة النــاشر

يعتبر نص هذه المحاضرات التى ألقاها هاسكنز مطابقا لطبعة سنة ١٩٢٣ م ، فيما عدا تعديلات بسيطة وطفيفة تشمل بعض المراجع الجديدة . وعلى أية حال ، فقد ذيلت هذه الطبعة بعدد من الحواشى ، كما أعيد النظر فى بقية الحواشى الأخرى. كذلك ذيل الكتاب بنبذة بأسماء الكتب والمراجع الخاصة بالموضوع (١).

Great Seal Books
أحد أقسام مطبعة جامعة كورنل الأمريكية

---

(١) آثرنا أن يذيل كل فصل من فصول الكتاب الثلاثة بالمراجع الهامة الخاصة به ، بدلا من تجميع المراجع كلها فى آخر الكتاب حسبما هو وارد فى الأصل الإنجليزى . وقد قمنا ، من ناحيتنا ، بإضافة العديد من المراجع التى لم ترد أصلا فى الطبعة الإنجليزية [المترجم] .

الفصل الأول

الجامعات المبكرة

مقدمات :

الجامعة بمعناها المعروف من نتاج العصر الوسيط ـ أوجه الخلاف بين جامعة الأمس وجامعة اليوم ـ جامعة القرن العشرين سليلة ووريثة جامعتى باريس وبولونيا فى العصر الوسيط ـ غير معروف على وجه التحديد متى بدأت معظم الجامعات المبكرة ـ نهضة القرن الثانى عشر وآثارها ـ العلم والمعرفة فى العصر الوسيط المبكر ـ الفنون السبعة الحرة ـ أثر العرب فى الحضارة الأوروبية .

بولونيا والجنوب :

تاريخ مدرسة الطب فى سالرنو ـ جامعة بولونيا مركز لإحياء القانون الرومانى ـ ارنريوس والقانون المدنى ـ الراهب جراشيان والقانون الكنسى ـ اتحادات الطلبة المغتربين فى بولونيا ـ أصل كلمة « جامعة » وتطورها ـ القيود التى عاش الأستاذ الجامعى أسيرها ـ « الأمم » داخل المحيط الجامعى ـ نقابات الأساتذة ـ إجازة التدريس والدرجات الجامعية ـ بولونيا مدرسة القانون المدنى ـ جامعات الجنوب الأخرى .

باريس والشمال :

المدارس الكاتدرائية فى باريس ـ بطرس أبيلارد ونشأة الجامعة ـ البدايات الأولى لجامعة باريس ـ المراسيم والبراءات الصادرة من السلطات الدينية والعلمانية لصالح جامعة باريس ـ حياة الطلبة فى باريس ـ بيوت الطلبة والمعاهد العلمية ـ الطوائف والأمم والصراعات بينها ـ جامعة باريس نموذج لجامعات الشمال ـ جامعتا أكسفورد وكامبريدج ـ الجامعات الألمانية ـ الجامعات الأوروبية الأخرى .

تراث العصور الوسطى :

مخلفات جامعات العصور الوسطى ـ ليس لها مبان خاصة بها ، ولم تترك بقايا وآثارا مادية كافية ترجع إلى تاريخ مبكر ـ الاحتفالات الأكاديمية ـ الزى الجامعى ـ التقاليد والنظم الجامعية ـ جامعة العصور الوسطى جامعة نذرت نفسها للعلم .

تعتبر الجامعات، شأنها شأن الكاتدرائيات والبرلمانات، من نتاج القرون الوسطى. ومما يدعو إلى الغرابة أنه لم يكن لدى الإغريق أو الرومان القدماء جامعات بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة حسب استخدامها خلال القرون السبعة أو الثمانية الماضية.(١) لقد كانت عندهم دراسات عليا، ولكن الألفاظ والعبارات لم تكن مترادفة. وكان من العسير التفوق على الكثير من علمهم فى القانون والبلاغة والفلسفة. ولكن هذا العلم لم يكن، مع ذلك، منظماً أو منسقاً فى شكل معاهد علمية مثال ذلك أن معلماً عظيماً مثل سقراط (٢) لم يكن يمنح دبلومات أو إجازات علمية. فإذا جاء طالب عصرى وجلس عند قدميه يتلقى العلم لمدة ثلاثة أشهر، له أن يطلب شهادة تتمثل فى عمل ملموس يتقدم به، وهو عبارة عن مبحث

---

(١) أوضح هذه الحقيقة المؤرخ جون لامونت فى مؤلفه La Monte, J. L., The World of the Middle Ages (New York, 1949), p. 567. وعلى هذا، فغير صحيح ما ذكره كل من الكاتبين سولومون كاتز وتشارلز نوريس كوكرين عن وجود جامعات فى أوروبا فى أواخر عهد الدولة الرومانية القديمة بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح. أنظر Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe (New York, 1960), p. 40 ; Cochrane, C. N, Christianity and Classical Culture (New York, 1957), p. 310. [المترجم]

(٢) سقراط (٤٦٩ — ٣٩٩ ق. م) هو أشهر مفكرى الإغريق وأعظم معلمى البشرية على الإطلاق. وهو يعتبر من نتاج المجتمع الأثينى القديم. وهو أيضاً الرجل الذى حول مجرى الفكر البشرى دون أن يكتب كلمة واحدة ودون أن ينادى بمذهب أو برأى ما، وإنما عن طريق الحديث فى شوارع أثينا وطرقاتها، تلك المدينة التى لم يغادرها سوى مرتين طيلة حياته توجه فيهما للقتال. أنظر عن سيرته وتعاليمه Kitto, H. D. F., The Greeks (Melbourne, 1954), pp. 32, 36, 126 ff., 153 f. ; Burgh, W. G. de, The Legacy of the Ancient World, I (London, 1955), pp. 164—170. [المترجم]

ممتاز لمحاورة سقراطية . ولم تبرز فى العالم تلك الملامح الخاصة بالتعليم المنظم المألوف لنا تماما، إلا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر فحسب. وهذا ما يمكن أن يقال أيضا عن كل تلك الأجهزة التعليمية المتمثلة فى الكليات والمعاهد العلمية ، وفى مناهج الدراسة والامتحانات، وكذلك ما يتعلق بموضوع التحاق الطلاب والاستعداد للامتحان ، والدرجات الأكاديمية . ونحن نعتبر ، فيما يتعلق بكل هذه الأمور ، ورثة جامعتى باريس وبولونيا [فى العصر الوسيط] ، وليس ورثة أثينا أو الإسكندرية [فى التاريخ القديم] .

ولا شك أن التباين بين هذه الجامعات المبكرة وبين جامعات اليوم كبير وماثل للعيان . لقد كانت جامعات العصور الوسطى طوال فترة تكوينها خلوا من المكتبات والمعامل والمتاحف ، كذلك لم يكن لها أوقاف توقف عليها أو مبان خاصة بها . ويحتمل أنه لم يكن باستطاعتها مواجهة المطالب والاحتياجات الضرورية اللازمة . وقد وردت فى أحد المراجع التاريخية لجامعة من أحدث الجامعات الأمريكية إشارة عفوية ذات طابع محلى ، مفادها أن جامعة العصور الوسطى « ليس فيها ما يدل على الوجود المادى الملموس للجامعة، هذا الكيان الذى نراه [فى جامعاتنا] اليوم واضحا تمام الوضوح . »

لقد قامت جامعة العصور الوسطى ، وفقا لكلمات باسكييه (١) Pasquier

---

(١) هو اتين باسكييه Etienne Pasquier (١٥٢٩ — ١٦١٥م) من رجال الأدب وأحد المحامين الفرنسيين المشهورين . نشر فى سنة ١٥٦٠ م الكتاب الأول من سلسلة « بحوثه عن فرنسا » Recherches de la France . وفى عام ١٥٦٥ م ترافع لصالح جامعة باريس فى قضيتها ضد جماعة الجزويت وكسب القضية . وكان فى تلك الأثناء يواصل كتابة « بحوثه » . ولباسكييه إنتاج غزير لم يتم حصره أو تجميعه أو نشره كله حتى الآن . وهو شاعر وأديب مجيد ، وتعتبر « بحوثه عن فرنسا » ، ومراسلاته،

الرائعة التى ترجع إلى زمن مضى « على أكتاف الرجال » bâtie en hommes ؛ وإن مثل تلك الجامعة لم يكن لها مجلس يشرف على إدارة شئونها ، ولم تصدر نشرات ببرامجها ، ولم يكن بها اتحادات خاصة بالطلبة ، مالم تكن الجامعة نفسها — أساسا وبداءة — مجتمعا طلابيا أو جماعة من الطلبة (١) . وكانت الجامعة خلوا من الصحافة الخاصة بالمعاهد والكليات ، ومن التمثيليات والألعاب الرياضية ، كما كانت خالية من كافة « أوجه النشاط الخارجى » ، وكان هذا هو العذر الرئيسى لخلو المعهد الأمريكى (٢) من مجالات النشاط الداخلى .

ومع أن أوجه الخلاف بين جامعات العصور الوسطى وجامعات اليوم واسعة عميقة ، إلا أن الحقيقة التى لاتزال ماثلة أمام أعيننا هى أن جامعة القرن العشرين إنما هى سليلة ووريثة جامعتى باريس وبولونيا فى العصر الوسيط . فقد كانت هاتان الجامعتان هما الصخرة التى اقتطعنا منها ، والحفرة التى نقبنا فيها ، والمنهل الذى نهلنا منه . لقد ظل التنظيم الأساسى [للجامعة] كما هو دون أن يطرأ عليه أى تغيير ، كما ظل الامتداد التاريخى قائما متصلا . فهم الذين خلقوا التقاليد الجامعية

= وخطبه ومرافعاته هى أحسن إنتاجه النثرى على الإطلاق . أنظر مقالة « باسكييه » فى دائرة المعارف البريطانية (طبعة شيكاجو، سنة ١٩٦٤) ، ج ١٧، ص٣٠٦ [المترجم] .

(١) مثل جامعة بولونيا التى كانت تعتبر بحكم الظروف التى أحاطت بنشأتها جامعة طلبة ، بعكس جامعة باريس التى كانت جامعة أساتذة . وقد تعرض هاسكنز لذلك بشىء من التفصيل فيما بعد . أنظر عن هذا الموضوع أيضا كتاب المؤرخ جاك لى جوف المعنون « حضارة الغرب فى العصور الوسطى » Goff, J.le, La Civilisation de l'Occident Médiéval (Paris, 1965), p. 113. [المترجم]

(٢) يقصد المؤلف فى العصر الحديث [المترجم] .

المعروفة فى العالم الحديث ، تلك التقاليد التى نراها فى كافة معاهدنا العليا الجديد منها والقديم ، والتى كان جميع رجال الجامعات والكليات على علم ودراية بها .

وتتناول هذه البحوث الثلاثة أصل تلك الجامعات المبكرة وطبيعتها وماهيتها بالدراسة . ويعالج البحث الأول موضوع النظم الجامعية ، أما الثانى فيتناول التعليم الجامعى ، بينما يتناول الثالث موضوع حياة طلبة الجامعة .

أخذ تاريخ الجامعات المبكرة ، خلال السنوات الأخيرة ، يشد إليه اهتمام طلاب التاريخ بصفة جدية . وكانت النتيجة أن خرجت معاهد العلم فى العصور الوسطى ، آخر الأمر ، من دائرة الأسطورة والخرافة حيث ظلت زمنا طويلا قابعة فى الظلام [لايكاد يحس بها أحد] . ونحن نعرف الآن ، بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفى لتأسيس جامعة اكسفورد [الإنجليزية] ، أن إنشاء تلك الجامعة لم يكن من بين المآثر العديدة التى تنسب إلى الملك الفريد [1] [السكسونى] . كذلك نعرف أن جامعة بولونيا لا ترجع إلى أيام الإمبراطور [الرومانى]

---

(١) الفريد الكبير هو من أشهر ملوك السكسون . كان حاكما على مملكة وسكس الإنجليزية Wessex (٨٧١—٩٠١ م) . وقد تعرضت البلاد فى عهده لإغارات الدانيين على الجزيرة البريطانية والتى كان عليه هو وخلفائه مواجهتها والحد منها . وحول سيرته وقوانينه وأعماله ، أنظر المراجع التالية :

Whitelock, D., The Beginnings of English Society : The Anglo-Saxon Period (London, 1954), pp. 7, 12, 38, 40, 43, 81, 109, 137, 215—217 ; Stenton, F.M., Anglo-Saxon England (Oxford, 1965), p. 246 ff. [المترجم] .

ثيودوسيوس (١) ، وأن جامعة باريس لم تكن قائمة فى عصر شارلمان (٢) ، وإنما قامت بعد ذلك التاريخ بأربعة قرون على وجه التقريب . وفى الحقيقة ، إنه من الصعوبة بمكان . حتى بالنسبة لعالم العصر الحديث ، التحقق من أن هناك أشياء كثيرة لا يوجد مؤسس لها ، كما أنه ليس هناك تاريخ محدد لبدايتها . غير أنها ، رغما عن ذلك ، رقد تمت فحسب ، بعد أن تأسست فى بطء وهدوء دون تاريخ قاطع محدد . وهذا يفسر السبب فى أنه على الرغم من كل الدراسات التى أجراها كل من الأب هـ . دنيفل (٣) H. Denifle وهاستنجز راشدال (٤) Hastings

---

(١) هو الإمبراطور تيودوسيوس الأول المعروف بثيودوسيوس الكبير ومؤسس أسرة ثيودوسيوس فى التاريخ البيزنطى . ويمتد حكمه من سنة ٣٧٩ م إلى سنة ٣٩٥ م وهى السنة التى قسم فيها دولته إلى قسمين مستقلين عن بعضهما أحدهما شرقى والآخر غربى ، ولم يحكم ثيودوسيوس بمفرده إلا بعد عام ٣٩٢ م . أنظر Runciman, S., Byzantine Civilisation (London, 1948), pp. 32 f., 301 ; Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin (Paris 1920), p. 6. [المترجم] .

(٢) شارلمان أو شارل العظيم هو ابن بين القصير وأول أباطرة الأسرة الكارولنجية ، وقد امتد حكمه من سنة ٧٦٨ م إلى سنة ٨١٤ م . أنظر عن ذلك هارتمان (ل . م .) وباراكلاف (ج) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ـ ترجمة وتقديم الدكتور جوزيف نسيم يوسف ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٧٠) ، ص ٣٦ وما يليها والحواشى وص ١٨٣ وما يليها [المترجم] .

(٣) Denifle, H., Die Enstehung der Universitäten des Mittelalters bis 1400, vol. I (Berlin, 1880), [المؤلف] . والكتاب يتناول جامعات العصور الوسطى منذ بدايتها حتى سنة ١٤٤٠ م . [المترجم]

(٤) Rashdall, H., The Universities of Europe in the Middle Ages, 2 vols. in 3 (Oxford, 1895). وقد ظهرت الكتاب طبعة منقحة تقع فى ثلاثة أجزاء (طبع أكسفورد ، سنة ١٩٣٦ م) . هذا ، والإحالات التالية فى حواشى كتاب هاسكنز المأخوذة عن راشدال ، مستقاة من طبعة سنة ١٩٣٦ م .

Rashdall ، وعلماء الآثار المحليين — فإن بدايات أقدم الجامعات لاتزال غامضة غير مؤكدة فى أغلب الأحيان ، بحيث يجب علينا أن نقنع أحيانا بمعلومات عامة جدا (١) .

وتعتبر نشأة الجامعات بمثابة نهضة علمية عظيمة الشأن . وليس المقصود بذلك نهضة القرنين الرابع عشر والخامس عشر التى يطلق عليها — عادة — الاصطلاح المذكور ، أى «renaissance» . ولكن المقصود نهضة مبكرة عن ذلك ، وإن كانت معرفتنا بها أقل من الثانية ، مع أنها هى الأخرى لها أهميتها ودلالتها ، وهى التى يطلق عليها المؤرخون الآن إسم «نهضة القرن الثانى عشر»(٢) . وبقدر ما كانت المعرفة فى القرون الوسطى المبكرة ضيقة محدودة فى إطار الفنون السبعة الحرة (٣) ، لم توجد ثمة جامعات لأنه لم يكن هناك مايدرس خارج إطار

---

(١) يقول المؤرخ سيدنى بينتر إنه لايمكن تحديد تواريخ قاطعة لأقدم ثلاث جامعات فى الغرب ، وهى جامعات بولونيا وباريس وأكسفورد ، بينما تاريخ تأسيس جامعة كامبريدج مشكوك فيه وغير معروف على وجه اليقين . ويستطرد موضحا بأنه — كقاعدة عامة — يتم مثل هذا التحديد عندما كانت إحدى الجامعات تتلقى شكلا من أشكال الاعتراف الرسمى بها . أما عن الجامعات المتأخرة فقد قام الأمراء بتأسيسها ؛ وعلى هذا يمكن تحديد تواريخ إنشائها بسهولة بعكس الجامعات الأولى المبكرة . أنظر Painter, S., A History of the Middle Ages (London, 1966), p. 469. [المترجم] .

(٢) يقول المؤرخ مارك بلوك إن كلمة « نهضة » هنا تعنى حرفيا مجرد إحياء وليس الخلق أو الإبداع . أنظر Bloch, M., Feudal Society, vol. I (London, 1967), p. 103. [المترجم] .

(٣) كانت هذه العلوم أو الفنون تنقسم إلى مجموعتين : المجموعة الثلاثية وتشمل النحو والبلاغة والفلسفة ، والمجموعة الرباعية وتشمل العلوم الأربعة وهى الحساب والهندسة =

هذه العناصر الجرداء التى تتناول الآجرومية أى قواعد اللغة [اللاتينية] والبلاغة والمنطق . فضلا عن المعلومات السطحية البسيطة التى كانت لا تزال قائمة عن الحساب والفلك والهندسة والموسيقى — تلك الفنون التى أدت دورها خلال مرحلة علمية [مر بها العالم الأوروبى الوسيط] .

وعلى أية حال ، فقد حدث أن تسرب إلى الغرب فيما بين عامى ١١٠٠ و ١٢٠٠ م سيل عرم من العلم والمعرفة الجديدين . وقد تسرب بعض هذا العلم عن طريق إيطاليا وصقلية ، ولكن الجانب الأكبر منه وصل إلى الغرب عن طريق العلماء العرب فى أسبانيا بصفة خاصة . فظهرت أعمال أرسطو وإقليدس وبطليموس والبطالسة وأطباء الإغريق القدماء ، وكذلك علم الحساب الجديد ، وتلك النصوص من القانون الرومانى التى كانت مطوية فى غياهب النسيان والتى بقيت مجهولة فى دياجير القرون المظلمة . وبالإضافة إلى المسائل الأولية الخاصة بالمثلث والدائرة ، أصبحت أوروبا تمتلك تلك المراجع التى تحتوى على هندسة السطوح والمجسمات التى كان لها أكبر الأثر فى المدارس والكليات ، منذ ذاك الحين فصاعدا . وبدلا من العمليات الرياضية الصعبة المضنية التى كانت تستخدم فيها الأرقام الرومانية ، أصبح من الميسور اختصار الوقت عن طريق استخدام الأرقام العربية . فكم كان مضنيا أن يفكر المرء كيف يستطيع أن يحل على الفور مسألة بسيطة فى الضرب

= والفلك والموسيقى . أنظر كرامب (ج) وجاكوب (إ) : تراث العصور الوسطى — راجع الترجمة محمد بدران والدكتور محمد مصطفى زيادة — ج ١ (القاهرة ١٩٦٥ م) ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ . [المترجم]

أو القسمة بمثل تلك الأرقام الرومانية .(١) وقــد حل محل بيوثيوس(٢) Boethius « ذلك العالم البارز من بين أساطين العلماء » ، مدرس اوروبا فى علم المنطق والعلوم العقلية والأخلاق . أما فيما يختص بالقانون والطب فقد استوعب الناس الآن العلم القديم برمته . وانطلق هذا العلم الجديد متفجرا خارج أسوار المدارس الكاتدرائية والديرية ، وخلق هذه الفئة من المثقفين المتعلمين . كما اجتذب إليه من فوق قمم الجبال وعبر البحار الضيقة ، الشباب المتلهف شوقا « لكى يتعلم ويعلم » ، على غرار « متفقه من أوكسفورد » Oxford Clerk للشاعر تشوسر(٣) Chaucer فى تاريخ متأخر . لقد اجتذب

---

(١) للمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع الهام ، أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية (القاهرة ١٩٦٣) ، وبخاصة الباب الثالث الذى يتحدث عن معابر المدنية الاسلامية إلى الغرب الأوروبى ، ص٤٩ وما بعدها [المترجم] .

(٢) يعرف باسم أنيكيوس مانليوس بيوثيوس Anicius Manlius Boethius ، ولد حوالى سنة ٤٨٠ م وتوفى فى ٥٢٤ م عن ٤٤ سنة تقريبا . أنظر LaMonte, op. cit., pp. 80, 82, 197, 560, 572: أنظر أيضا ، ما سبق ، ص ٤٠-٤٣ من القسم الأول من هذا الكتاب [المترجم] .

(٣) هو الشاعر الإنجليزى جوفرى تشوسر ، ولد حوالى سنة ١٣٤٠ م وتوفى سنة ١٤٠٠ م وله من العمر ٦٠ عاما . ومما ينسب إليه أنه أمد انجلترا بما كانت تفتقر إليه منذ أيام الأنجلوسكسون ، وتعنى بذلك الخلق والإبداع الأدبى الذى يبز بمراحل ما بلغه معاصروه فى القارة الأوروبية . ومن أهم أعماله وأضخمها « قصص كانتربرى » التى مات قبل إتمامها . وعلى الرغم من أن تشوسر لم يلتحق بالجامعة ، إلا أن دائرة معارفه ومعلوماته كانت هائلة . كان متبحرا فى فهم فرجيل واوفيد وستاتيوس وكلوديان وغيرهم من كبار الكتاب القدامى ، كما اطلع على مؤلفات القديس جيروم والفيلسوف بيوثيوس . أنظر من ذلك Myers, A. =R., England in the Late Middle Ages (London,1953), pp.85 f.,

العلم الجديد الشباب إلى باريس وبولونيا حيث وجدت تلك الاتحادات الجامعية التي زودتنا بأول وأفضل تعريف للجامعة باعتبارها مجتمع الأساتذة ومعشر طلاب العلم .

وفيما يتعلق بهذا العرض العام الخاص بالقرن الثاني عشر ، فليس هناك سوى حالة استثنائية واحدة ، ألا وهي جامعة الطب في سالرنو . ففي هذه المنطقة ، وعلى مسيرة يوم واحد إلى الجنوب من نابولي ، وفوق أرض كانت لمباردية في بادىء الأمر ثم أصبحت نورمانية فيما بعد ، وإن كانت لاتزال على اتصال وثيق بالشرق اليوناني — في هذه المنطقة كانت توجد مدرسة للطب ترجع نشأتها إلى تاريخ مبكر يعود بنا إلى أواسط القرن الحادي عشر . ويحتمل أن تلك المدرسة ظلت قائمة لمدة مائتي سنة بعد ذلك التاريخ ، وقد غدت أكثر مدارس الطب شهرة في اوروبا . ففي « مدينة هيبوقراط » (١) هذه تم شرح وتفسير الكتابات الطبية لقدماء الإغريق ، وتطورت [الدراسة فيها] إلى مجال التشريح والجراحة ، بينما تركزت تعاليمها في قواعد عامة شديده الاقتضاب خاصة بطب الصحة الوقائي ، والتي لم تفقد بعد تعبيراتها ومدلولاتها مثل « إمش ميلا بعد العشاء » (٢) ، إلى آخر مثل هذه المصطلحات وفيما يتعلق بالنظام الأكاديمي في

---

165 ; McKisack, M., The Fourteenth Century (Oxford, 1959),= p. 529 ff. ; Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages (London, 1955), p. 326. [المترجم] .

(١) نسبة إلى هيبوقراط الطبيب اليوناني المعروف الذي يعتبر أعظم رجال القرن الخامس في الطب . والمزيد من المعلومات عنه وعن كتاباته في مجال الطب ، أنظر Kitto, op.cit.,pp.32, 188 ; Cochrane, op. cit., pp. 275,423,469. [المترجم] .

(٢) يقابلها عندنا المثل العامي الشائع « اتعشى واتمشى » [المترجم] .

سالرنو ، فلسنا نعرف شيئا عما كان سائدا هناك قبل عام ١٢٣١ م . وعندما قام [الإمبراطور] فريدريك الثانى (١) فى ذلك العام بتنظيم وتنسيق درجاتها العلمية ، كانت هناك جامعات أحدث عهدا من سالرنو تقع فى أقصى الشمال قد بزتها وتفوقت عليها فعلا بمراحل عديدة . وعلى الرغم من أهمية سالرنو فى تاريخ الطب ، إلا أنها لم تترك أى أثر يكشف عن نمو وتطور النظم الجامعية .

وإذا كانت جامعة سالرنو تعتبر أقدم من حيث الزمن ، فإن جامعة بولونيا تمتاز بمالها من مكانة تبز زميلتها فيما يختص بتطور الدراسات العليا . وعندما كانت سالرنو معروفة بأنها مجرد مدرسة للطب ، كانت [جامعة] بولونيا معهدا متشعب الجوانب ، ولو أنها تستحق الذكر باعتبارها مركزا لإحياء القانون الرومانى . وخلافا للفكرة العامة الشائعة ، لم يختف القانون الرومانى من الغرب فى القرون الوسطى المبكرة ؛ ولكن تأثيره كان قد تضاءل إلى حد بعيد بسبب الغزوات الجرمانية [وما أحدثته من فوضى ودمار] . وقد ظل القانون الرومانى باقيا جنبا إلى جنب مع القوانين الجرمانية بوصفه القانون الذى اعتاد عليه الشعب الرومانى . ولكنه لم يعد معروفا عن طريق مؤلفات جستنيان القانونية العظيمة، (٢)

---

(١) الإمبراطور فريدريك الثانى هو ابن هنرى السادس وحفيد فريدريك باربا روسا . امتد حكمه من سنة ١٢١٥ إلى سنة ١٢٥٠ م . وفيما يتعلق بسيرته وحكمه وأعماله ، أنظر Haskins, C. H., Studies in Mediaeval Culture (New York, 1929), pp. 124—147 ; LaMonte, op. cit., pp. 417—419, 476 - 477, 503 - 505. [المترجم] .

(٢) من الأعمال الخالدة للإمبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) موسوعته المعروفة باسم « مجموعة القوانين المدنية » التى أصدرها عام ٥٢٩ م ، وتعتبر فى الواقع من =

وإنما فى شكل كتيبات بدائية أولية وكراسات تافهة أخذ حجمها ينكمش ويتضاءل مع الزمن حتى غدت لا حياة فيها . وقد اختفت مجموعة « شرح القوانين » المعروفة باسم « الديجست » « Digest » ، وهى أهم قسم من « مجموعة القوانين المدنية » لجستنيان « Corpus Juris Civilis » ، وذلك فى الفترة الواقعة بين عامى ٦٠٣ م و١٠٧٦ م ، ولم يتبق منها سوى مخطوطان إثنان فقط . وعلى حد قول

=أهم آثاره وأبقاها[1] . وقد وضعت هذه المجموعة على أساس تشريعات جريجوريانوس وهيرموجينيانوس وثيودوسيوس ، بالاضافة إلى قوانين الأباطرة المتأخرين ومؤلفات كبار المشرعين القدامى . وتنقسم هذه المجموعة إلى ثلاثة أقسام : الأول ويتضمن الأحكام الامبراطورية والمراسيم والقرارات والاستفتاءات القانونية الصادرة عن مجلس السناتو « Senatus Consulta » ، والثانى كتاب مختصر فى أصول التشريع الرومانى ، يعرف باسم « Institutes » ، والثالث هو المعروف باسم « شرح القوانين » أو « الديجست » «Digest» ويتضمن القوانين المدنية بأكملها وعليها شروح الشراح والمفسرين . وقد ظهرت فى « شرح القوانين » أصالة جستنيان الحقيقية ، إذ تعتبر أكبر الوثائق التشريعية التى تمخض عنها حكمه . وقبل موته بعامين نشر جستنيان ترجمة مختصرة لقوانينه باللغة اليونانية عرفت باسم « القوانين الجديدة » ، «Novellae leges» تظهر فيها الروح المسيحية مندمجة فى التشريعات الرومانية الوثنية القديمة . أنظر عن ذلك بينز (ن) : الامبراطورية البيزنطية – تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد (القاهرة ١٩٥٠) ، ص ٢٥٠–٢٥٦ ؛ راجع أيضاً ; Runciman, op. cit., p. 74 f. ; Barker, E. (ed.), Social and Political Thought in Byzantium (Oxford, 1957), p. 75 f.; Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State (Oxford, 1956), pp. 51 f., 69 f.; Bailly, A., Byzance (Paris, 1939), p. 94 ff.; Diehl, Ch. & Marçais, G., Le Monde Oriental de 395 à 1081 (Paris, 1944), pp. 67, 84 ff. [المترجم]

ف . و . ميتلاند [١] F. W. Maitland « لقد بقى القانون الرومانى بصعوبة باللغة » . هذا، بينما استمرت دراسة القانون ، بنوع ما ، إن كانت هناك بالفعل دراسات قانونية ، باعتبارها مجرد صناعة يتلقنها الفرد كى ترشحه لمهنة المحاماة . وكان بقاؤها ماثلا فى مسودات الوثائق كما لو كانت أحد أشكال فن البلاغة التطبيقى .

ومتأخرا فى القرن الحادى عشر ، ومع الارتباط الوثيق بحركة إحياء التجارة وحياة المدينة ، قامت نهضة قانونية ترمز بدورها إلى نهضة القرن التالى [المعروفة بنهضة القرن الثانى عشر] . ويمكن تتبع هذه النهضة فى أكثر من مجال فى ايطاليا . وربما لم تحدث هذه النهضة فى بادىء الأمر فى بولونيا نفسها . غير أنها سرعان ما وجدت فى بولونيا مركزا لها للأسباب الجغرافية التى جعلت من هذه المدينة ، فى الماضى كما هو الحال فى الحاضر ، نقطة التقاء لطرق المواصلات الرئيسية فى شمال ايطاليا . فقد سمعنا قبل عام ١١٠٠ م بقليل عن أستاذ اسمه بيبو [٢]

(١) من الكتاب المحدثين ، له عدة مؤلفات وبحوث قانونية تتصل بالفترة الوسيطة من التاريخ، من بينها بحثه « لغة القانون الانجلو فرنسية » ، و « تاريخ القانون الانجليزى قبل عهد ادوارد الأول » الذى وضعه بالاشتراك مع ف. بولوك F. Pollock هذا ، بالاضافة إلى ترجمته المشهورة للقسم الخاص بالعصور الوسطى من الجزء الأول من مؤلف أوتو جيركا الذى يحمل اسم : Gierke, O , Das deutsche Genossenschaftsrecht, 4 vols., Berlin, 1868 - 1911. — وقد ظهرت ترجمة ميتلاند الانجليزية تحت اسم :
Gierke, O., Political Theories of the Middle Ages, trans. by F. W. Maitland, Cambridge, 1900. [المترجم]

(٢) اشتهر بيبو كمدرس للقانون فى بولونيا ؛ وهناك إشارات عديدة إليه وردت فى أواخر القرن الحادى عشر . وقد امتاز بصيته الذائع فى عام ١٠٧٦ م. أنظر وهيب ابراهيم سمعان: ==

باعتباره « ضوء بولونيا اللامع المشع » . وحوالى عام ١١١٩ م تقابلنا Pepo عبارة لاتينية هى Bononia docta أى « رجال بولونيا المثقفون » . وفى بولونيا ، كما هو الحال فى باريس ، يقف مدرس عظيم عند بداية تطورها الجامعى. وكان هذا المدرس الذى وهب جامعة بولونيا شهرتها رجلا يدعى ارنريوس (١) Irnerius . وربما كان ارنريوس يتمتع بشهرة تفوق تلك التى كان يتمتع بها كبار أساتذة القانون فى القرون الوسطى ، على كثرة عددهم . ولا يزال ماكتبه وماقام بتدريسه مثارا للجدل والمناقشة بين رجال العلم . ويبدو أنه قد حدد طريقة « شرح وتفسير » النصوص القانونية على أساس الاستعانة الواعية الشاملة بمجموعة القوانين المدنية [لجستنيان] بأكملها ، الأمر الذى يميزها عن تلك المختصرات الهزيلة التى صدرت فى القرون السابقة . وبذلك فصل بصفة نهائية وقاطعة القانون الرومانى عن فن البلاغة ، وقام بتثبيته وتعزيز أركانه بوصفه موضوعا لدراسة متخصصة . وحوالى عام ١١٤٠م ألف راهب من دير القديس فليس San Felice يدعى جراشيان (٢) Gratian كتابا باسم « القـــانون» « Decretum » أصبح المصدر الأصلى فى القانون الكنسى . وهكذا تميز عن علم اللاهوت بوصفه موضوعا مستقلا قائما بذاته خاصا بالدراسات العليا ، وتأكد

= الثقافة والتربية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ١٨٠ ؛ راجع أيضا :
Painter, op. cit., p. 469 ; Rashdall, H., Universities of Europe in the Middle Ages, vol. I (Oxford, 1936), p. 113. [المترجم]

(١) لمزيد من المعلومات عن ارنريوس ، انظر ماسبق ، ص١٠٩-١١٢ من القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم].

(٢) حول جراشيان ، أنظر ماسبق ، ص ١١١ – ١١٢ من القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم]

تماما تفوق جامعة بولونيا كمدرسة للقانون .

وقد ظهر فى ذلك الحين فريق من الطلاب معبرا عن ذاته فى المراسلات والشعر . وحوالى عام ١١٥٨ م كان من الأهمية بمكان أن تتلقى ايطاليا من الإمبراطور [الألمانى] فريدريك بارباروسا (١) براءة رسمية فى شكل حقوق وامتيازات ، ولو أنه لم يرد فى مثل هذه البراءة إسم مدينة بالذات أو جامعة بعينها . وحوالى هذا الوقت أصبحت بولونيا ملاذا لبضع مئات من الطلبة الذين وفدوا إليها ليس من ايطاليا فحسب وإنما من وراء جبال الألب . ونظرا لأنهم كانوا مغتربين عن أوطانهم ، ومجردين من وسائل الدفاع عن النفس ، فقد اتحدوا بقصد حماية أنفسهم والتعاون المشترك فيما بينهم . وكان هذا التنظيم بين الطلبة المغتربين ، أو الطلبة القادمين من وراء الجبال ، هو الخطوة الأولى فى سبيل إنشاء الجامعة .

ويبدو من هذا الاتحاد أن الطلبة المغتربين قد نهجوا نهج النقابات التى كانت معروفة بالفعل فى المدن الإيطالية . وفى الواقع كانت كلمة « جامعة » (٢)

---

(١) فريدريك بارباروسا هو امبراطور الدولة الرومانية الغربية المقدسة ، حكم من سنة ١١٥٢ م إلى سنة ١١٩٠ م . وكان أحد زعماء الحملة الصليبية الثالثة التى قام بها الغرب الأوروبى بقصد الاستيلاء على بيت المقدس التى كان صلاح الدين الايوبى قد استعادها سنة ١١٨٧م . وللمزيد من المعلومات عن عهده وأعماله وتاريخ حياته ، انظر :
Machiavelli, N., Florence and the Affairs of Italy (New York, 1960), pp. 22 - 24; Cantor, N. F. (ed.), The Medieval World (New York, 1963), pp. 242 - 248. [المترجم]

(٢) من الأصل اللاتينى universitas أى اتحاد ، ومنها اشتقت الجامعة تسميتها ، فهى ليست سوى اتحادا من الأساتذة والطلاب ، أنظر من ذلك المراجع الأجنبية التالية : =

« university » تعنى ، أصلا ، مثل هـذا التجمع بوجه عام . وبمرور الوقت أصبحت هذه الكلمة تقتصر على نقابات الأساتذة والطلاب فحسب ، ونصها باللاتينية « universitas societas magistrorum discipulorumque » ؛ بمعنى أن الجامعة هى مجتمع الأساتذة والطلاب . أما من الناحية التاريخية ، فإن كلمة « جامعة » لا علاقة لهـا بـكلمة « الـكون » « universe » أو بـ « كونية العلم والتعليم » « universality of learning » ، وإنما تدل على جماعة أو طائفة ، سواء أكانت من الحلاقين أو التجارين أو الطلبة . ولقد نظم طلبة بولونيا مثل هذا الاتحاد الذى كان يهدف أساسا حمايتهم من تعسف سكان المدينة ، ولمواجهة أجر السكن . وسرعان ماثارت فى الأفق ضروريات الحياة ومطالبها تبعاً لإقبال وتهافت المستأجرين الجدد ، أى المستهلكين . وكان الطالب بمفرده قليل الحيلة أمام مثل هذا الاستغلال وتلك الانتهازية . أما إذا اتحد الطلبة فيما بينهم ، فإنه كان بوسعهم كبح جماح سكان المدينة عن طريق التهديد بمغادرة المدينة جماعة كما لو كانوا رجلا واحداً ، أو التهديد بالتوقف عن الدراسة . ونظراً لأنه لم يكن للجامعة مبـان خاصة بها [تشد الطلبة إليها وتربطهم بها] ، فقد أصبحت لهم حرية الحركة والتنقل [من مكان إلى آخر] . ولدينا أمثلة عديدة مستمدة من واقع التاريخ لمثل تلك الهجرات الجماعية [للطلبة] . ولذلك آثر سكان المدن تأجـير غرفهم للطلبة الغرباء بأسعار أقل بدلا من عدم تأجيرها على الإطلاق . ومن ثم ضمنت

Goff, op. cit., p. 113; Coulton, G. G., Medieval Panorama = (NewYork, 1955), p. 394; Painter, op. cit., p. 468 f., LaMonte, op. cit., p. 568; Funck — Brentano, F., Le Moyen Age (Paris, 1922), p. 192. [المترجم]

التنظيمات الطـــلابية عن طريق ممثليها القدرة على تحديد إيجارات السكن وأسعار الـكتب .

وبعد أن تغلب الطلبة على سكان المدينة ، استداروا إلى « أعدائهم الآخرين وهم الأساتذة » . وهنا كان التهديد عبارة عن مقاطعة جماعية . ولما كان الأساتذة يعيشون ، فى بادىء الأمر ، كلية على الرسوم التى يدفعها التلاميذ ، فقد كان لهذا التهديد أيضاً فاعليته . وكان الأستاذ مقيداً يعيش أسير مجموعة من الأنظمة والقوانين الدقيقة الصارمة التى تكفل للتلاميذ الذين يدرسون عليه مايقابل المبلغ الذى يدفعه كل فرد منهم . وتذكر القوانين المبكرة (سنة ١٣١٧ م) أنه لايجوز أن يتغيب أى أستاذ ولو ليوم واحد دون الحصول على إذن بذلك . أما إذا أراد مغادرة المدينة فيتعين عليه حينئذ أن يودع تأميناً ضماناً لعودته إليها . وإذا أخفق فى ضمان حضور خمسة مستمعين لمحاضرة نظامية [يقوم بإلقائها] ألزم بدفع غرامة كما لو كان غائباً . وإنها فى الواقع ، محاضرة فقيرة جدباء تلك التى لا تضمن خمسة مستمعين لها . كذلك يتعين على الأستاذ أن يبدأ [المحاضرة] بمجرد أن يدق الناقوس ، وأن يغادر الفصل خلال دقيقة واحدة من الناقوس التالى . ثم أنه غير مسموح له إغفال جزء من المنهج الدراسى أثناء قيامه بالشرح والتفسير ، أو تأجيل موضوع صعب حتى نهاية الساعة المحددة . وعليه ، أيضاً ، إعطاء الدرس حقه بطريقة منظمة . ويسرى هذا الوضع بالنسبة لـكل فترة من فترات العام الدراسى . ولا يجوز لأى أستاذ أن يضيع السنة كلها فى مقدمات ومراجع . وإن تحكما من هـــذا القبيل يحمل على الاعتقاد بأنه قد سبقه تنظيم فعال لهيئة الطلاب .

هذا ، وقد سمعنا عن وجود اتحادين بل وأربعة اتحادات للطلبة كل منها يتكون من « أمم » « nations » على كل أمة رئيس . ولقد كانت بولونيا ، بكل

تأكيد ، جامعة طلبة . ولا يزال الطلبة الإيطاليون يطالبون بصوت لهم فى الشئون الجامعية . وعندما قمت (١) بزيارة جامعة بالرمو للمرة الأولى وجدتها وقد عادت توا إلى حالتها الطبيعية بعد إخلال بنظام الدراسة فيها ، حيث حطم الطلبة النوافذ الأمامية للجامعة مطالبين بأن تعقد لهم امتحانات دورية [على فترات زمنية قصيرة] ، ومن ثم تكون أقل إلماماً بأشتات الموضوعات [التى يدرسونها] . وفى العيد المئوى السابع لجامعة بادوا فى مايو من سنة ١٩٢٢ م ، طاف الطلبة فعلا فى المدينة وقد أعدوا برنامجا يشتمل على مواكب واحتفالات ؛ فضلا عما أثاروه من جلبة وضوضاء نالت من أكثر المناسبات هيبة ووقاراً . وقد ترتب على ذلك تحطيم نوافذ أعظم قاعة فى المدينة .

وبإبعاد الأساتذة عن « اتحادات » universities « الطلبة » كونوا هم أيضاً لأنفسهم « نقابة » خاصة بهم أو « اتحادا يلم شملهم ويوحد صفوفهم » . وكان يشترط للالتحاق به صلاحيات وكفايات معينة يتم التأكد منها عن طريق امتحانات تعقد لذلك ، بحيث لايتسنى لأى طالب الانضمام إلى الاتحاد الخاص بالأساتذة إلا بموافقته ورضاه . ولما كانت القدرة على تدريس موضوع ما تعتبر فى حد ذاتها اختباراً طيباً لمدى معرفة الطالب به ، فقد سعى الطالب للحصول على إجازة التدريس من أحد الأساتذة باعتبارها شهادة تفيد تحصيله العلم والمعرفة ، بصرف النظر عن العمل الذى سوف يشغله مستقبلا . وقد أصبحت هذه الشهادة ، أى إجازة التدريس « licentia docendi » ، هى أقدم شكل للدرجة الجامعية . ولا تزال درجاتنا العلمية العليا تحتفظ بهذا التقليد فى كلمات مثل « ماجستير »

---

(١) المقصود زيارة هاسكنز مؤلف الكتاب لجامعة بالرمو [المترجم] .

magister و « دكتور » doctor ، وهى كلمات مترادفة فى معناها منذ البداية .
هذا ، بينما توجد عند الفرنسيين « إجازة الليسانس » licence . وكان من يحصل على درجة الماجستير فى الآداب يعتبر مؤهلا لتدريس الفنون الحرة ، بينما يعتبر الحاصل على درجة دكتور فى القانون مدرسا مشهودا له فى تدريس القانون .
ويسمى الطالب الطموح للحصول على درجة علمية ، وهو يلقى بهذه المناسبة محاضرة احتفالية ، ويجاهر صراحة بعزمه على الاستمرار فى مهنة التدريس .
وقد عرفنا ، بما سبق ، الدرجات الجامعية الأساسية فى جامعة بولونيا ، وكذلك النظم الجامعية وما يتعلق بالموظفين الرسميين المعروفين كالمدير مثلا .

وبمرور الزمن ظهرت موضوعات دراسية أخرى مثل الفنون والطب واللاهوت، ولكن بولونيا كانت مدرسة رفيعة القدر للقانون المدنى . وهكذا أصبحت نموذجا للتنظيم الجامعى فى كل من ايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا ، حيث كان لدراسة القانون دائما دلالتها ومغزاها فى المجالات السياسية والاجتماعية والأكاديمية .
وأصبحت بعض تلك الجامعات ندا لجامعة بولونيا ، مثل كل من جامعة مونتبلييه وجامعة أورليانز ، وكذلك المدارس الإيطالية القريبة من ديار الطلاب . وفى سنة ١٢٢٤ م أسس فريدريك الثانى جامعة نابولى حتى يتسنى للطلاب فى مملكته فى صقلية الالتحاق بمدرسة فى وطنهم تتبع حزب الجبلين الإمبراطورى بدلا من الذهاب إلى أحد مراكز حزب الجلف البابوى (١) فى الشمال . وقد تأسست جامعة بادوا التى انبثقت عن جامعة بولونيا قبل ذلك التاريخ بعامين . وفى عام ١٩٢٢م فقط ، وكان ذلك بمناسبة الاحتفال بمرور سبعمائة عام على تأسيس جامعة

---

(١) حول حزبى الجلف والجبلـين ، انظر كتاب LaMonte, op. cit., pp. 431 — 433, 443 — 444, 450 — 452. [المترجم]

بادوا ، شاهدت (١) العداء القديم [بين الجامعتين] وقد خفت حدته بعد قبلة السلام التى منحتها بادوا لمدير جامعة بولونيا وسط هتافات وصيحات الاستحسان الصادرة من قلوب عشرة ألف متفرج . وتكاد جامعة بادوا ، فى وقتنا هذا ، تقف بصعوبة على قدم المساواة مع جامعة بولونيا ، وذلك على الرغم من أنه حدث فى عصر متأخر أن قدم بورشيا Portia إلى بادوا اسيادتها فى الدراسات القانونية ، وعلى الرغم من أن تلك الجامعة لاتزال تشع بعظمة جاليليو (٢) Galileo .

هذا عن بولونيا وجامعات الجنوب الأوروبى . أما إذا أردنا التعرف على أصل جامعات الشمال ، فيتعين علينا البحث عنه فى مدرسة نوتردام الكاتدرائية فى باريس . فمع بداية القرن الثانى عشر لم يعد التعليم فى فرنسا والأراضى الواطئة قاصرا على الأديرة . بل كانت أنشط مراكزه فى المدارس الملحقة بالكاتدرائيات (٣) ،

---

(١) أى هاسكنز مؤلف هذا الكتاب [المترجم] .

(٢) جاليليو هو صاحب النظرية الفلكية المعروفة التى أثبت بها أن الارض ماهى إلا أحد الأجرام السماوية . وكانت النتيجة أن أدانته الكنيسة اللاتينية واتهمته بالهرطقة . وكان من بين التهم التى وجهتها إليه أن نظريته هذه تتعارض مع ماجاء فى العهد القديم من أن الكون ثابت لايتزعزع . أنظر عن ذلك كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة — ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف — ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ٦٣ و ح . أ . راجع أيضا : Crombie, A. C., Augustine to Galileo, vol. I (London, 1961), pp. 4, 6, 18, 59 f., 116, 119 ; LaMonte, op. cit., p. 561. [المترجم]

(٣) أنظر الخريطة الخاصة بالمراكز الفكرية فى الغرب الأوروبى فى القرن الثانى عشر ، ص ١٧٩ ، بآخر القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم] .

وأشهرها هى [مدارس] كاتدرائيات لييج Liège وريمز Rheims ولون Laon وباريس واورليانز وشارتر . وربما كانت أبرز تلك المدارس التى قامت بتدريس الفنون الحرة وأبعدها صيتا هى مدرسة شارتر التى اشتهرت بأحد رجال القانون الكنسى وهو القديس ايف St. Ives ، كما عرفت بالمدرسين الذين ذاع صيتهم فى الآداب الكلاسيكية والفلسفة مثل كل من القديس برنارد أوف كليرفو وتييرى(1) Thierry . وفى تاريخ مبكر يرجع إلى عام ٩٩١ م قام راهب من مدينة ريمز يدعى ريتشارد الريمى (٢) Richer بشرح ما كابده من مشقة وعنـــاء فى رحلته إلى شارتر لدراسة حكم هيبوقراط وقواعده الذهبية Aphorisms .

ومع بدايات القرن الثانى عشر ترك لنا جون أوف ساليسبورى John of Salisbury رائد الدراسات الإنسانية فى ذلك العصر ، بيانا بالأساتذة الذين ستتاح لنا الفرصة — فيما بعد — للاستشهاد بهم والرجوع إليهم . وليس هناك اليوم مكان يمكن أن نتوقف عنده فى سهولة ويسر أكثر من مدينة كاتدرائية ترجع إلى القرن الثانى عشر ، وهى مدينة هادئة مسالمة لاتزال كنيستها تسيطر عليها ولاتزال تشارك من حين إلى آخر ،

---

(١) يقول جون لامونت أن الشقيقين تييرى وبرنارد كانا يقومان بتدريس الآداب الكلاسيكية فى مدرسة شارتر التى كانت تعتبر أعظم مراكز الدراسات الانسانية فى القرن الثانى عشر . وقد بلغت هذه الدراسات ذروتها فى شخص جون أوف ساليسبورى . أنظر LaMonte, op. cit., p. 558. [المترجم] .

(٢) حول ريتشارد الريمى ، أنظر ماسبق ، ص ٨٣ من القسم الاول من هذا المجلد [المترجم] .

« رامى الكاتدرائية حيث يجد ملاذه ومأواه .
شبحاء فى هدأة السكون كصخرة شاهقة فى اليم غاب
وقد انحسر عنها المحيط فى بطء ليتركها على اليابس ،
• • • • • • • • صابرة نائية
عمن خضم الحياة العظيم الذى واجهته يوما .
وتصل إليها جلبة الرجال ، وكأنه حلم . » (١)

وفى ذلك الوقت ظلت الكاتدرائية ثابتة راسخة ، بما تحتويه من صور القديسين والملوك المهداة إليها ، وقد كفت عن أن تصبح مركزا ثقافيا من الدرجة الأولى ، وألقت باريس التى تبعد عنها بحوالى خمسين ميلا ، بظلها عليها ، بحيث لم تصبح شارتر جامعة على الإطلاق .

وأما عن مزايا جامعة باريس فيرجع بعضها إلى عوامل جغرافية ، بينما يعزى البعض الآخر لعوامل سياسية باعتبارها عاصمة المملكية الفرنسية الجديدة . ولكن تجدر الإشارة هنا إلى الأمر الذى تركه أستاذ كبير هو بطرس ابيلارد (٢) . إن هذا الشاب اللامع الأصيل ، مع إصراره على سياسة الشك والتشكك وقلة احترامه للسلطة [الكنسية] ، قد اجتذب إليه أعداداً كبيرة من الطلبة أينما حل وحيثما ذهب للتدريس ، وسواء أكان ذلك فى باريس أم وسط الأحراش والغابات . ففى باريس كان مرتبطا بكنيسة دير القديسة جنيفييف Sainte-Geneviève

---

(١) المقصود كاتدرائية مدينة شارتر [المترجم] .

(٢) حول بطرس ابيلارد ، أنظر ماسبق ، ص ٩٩-١٠٤ و١٠٧-١٠٨ من القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم] .

أكثر من ارتباطه بالمدرسة الكاتدرائية [فى نوتردام] . وقد غدا التردد على باريس عادة مألوفة فى أيامه . وهكذا أصبح له أثره الفعال فيما يختص بنشأة الجامعة . ولقد كانت الجامعة بالمفهوم التشريعى ، هى الوليدة المبـاشرة لمدرسة كاتدرائية نوتردام التى كان لرئيسها دون سواه سلطة التصريح بالتعليم فى نطاق أبروشية باريس . وهكذا حافظ على سلطته فى منح الدرجات الجامعية التى كانت أصلا فى هذا المكان ، كما هو الحال فى بولونيا ، شهادات يمنحها المدرسون . ولقد كانت المدارس المبكرة قائمة داخل نطاق الـكاتدرائية فى المدينة الأصلية القديمة المعروفة باسم جزيرة المدينة « Ile de la Cité » المؤدية إلى نوتردام التى وصفها فيكتور هوجو [فى القرن التاسع عشر] ، والتى كانت قد تهدمت منذ زمن بعيد . وبعد ذلك بقليل نجد أساتذة وطلاب علم يعيشون فى منطقة الجسر الصغير Petit—Pont الذى يربط المدينة بالضفة اليسرى لنهر السين . ولقد نسبت إلى هذا الجسر مدرسة كاملة للفلاسفة تسمت بإسمه ، هى مدرسة بارفيبونتانى Parvipontani . غير أن طلاب العلم مع بداية القرن الثالث عشر كانوا قد انتشروا على الضفة اليسرى للنهر ، وقد عرف منذ ذلك الحين باسم « الحى اللاتينى » Latin Quarter فى باريس[1] .

ولسنا نعرف على وجـــه التحديد متى كفت باريس عن أن تصبح مدرسة كاتدرائية ومتى أصبحت جامعة ، ولو أن ذلك كان بالتأكيد قبل نهاية القرن الثانى عشر . ومع ذلك تؤثر كل جامعة أن يكون لها تاريخ محدد لبدايتها تحتفل به . وعلى هذا فقد اختارت جامعة باريس عام ١٢٠٠م [كبداية لها] ، وهو العـام

(١) أنظر المراكز والمواقع المذكورة مبينة على خريطة « باريس فى العصور الوسطى » وكذلك خريطة « باريس فى عصر فيليب اوغسطس » ص ١٨١ ، ١٨٣ بآخر القسم الأول من هذا الـكتاب . [المترجم] .

لوحة رقم (٥)



حياة طلاب العلم فى كاتدرائية نوتردام فى باريس
فى القرن الثالث عشر

الذى صدر فيه أول مرسوم ملكى خاص بنشأتها . ففى ذلك العام ، بعد أن قتل عدد من الطلبة بسبب صدام وقع بينهم وبين أهالى المدينة أصدر الملك فيليب اوغسطس(١) مرسوما رسميا نص على عقاب محافظ باريس مع الموافقة على إعفاء الطلبة وخدمهم من تقديمهم للمحاكمة أمام القضاء العلمانى . وهكذا نشأ هذا المركز الخاص الذى تمتع به الطلبة أمام المحاكم التى لم تكن قد توقفت بعد تماما عن ممارسة نشاطها العلمانى ، ولو أنها اختفت بصفة عامة من وجه القانون .

وكان الامتياز البابوى الأول المعروف باسم « مرســـوم باريس » Parens scientiarum الصادر عام ١٢٣١ م(٢) أكثر تحديدا . وقد صدر بعد أن توقفت الدراسة [فى جامعة باريس] لمدة عامين بسبب حالة الشغب والفوضى التى تسبب فيها لفيف من الطلبة وجدوا أن « الخمر لذيذ الطعم حلو المذاق » ، وقد اعتدوا على حارس الحانة وأصدقائه [حيث كانوا يحتسون النبيذ] . وقاسوا هم بدورهم على يدى محافظ المدينة ورجاله . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على روح الخصومة والخلاف [بين الطلبة والأهالى] التى أدرك القرن الثالث عشر بوضوح أن للشيطان يد فيها . وتأكيداً للإعفاءات الصادرة من قبل [لصالح جامعة باريس] ، قام البابا [جريجورى التاسع] بتحديد سلطة أمين الكاتدرائية فى منح درجة الليسانس . واعترف فى نفس الوقت بحق الأساتذة والطلاب فى

---

(١) أنظر الترجمة العربية لمرسوم فيليب اوغسطس فى الملحق الثالث ص ١٦٧ — ١٦٩ بآخر القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم] .

(٢) ترجم المرسوم الى اللغة الانجليزية ل. ثورندايك أنظر L. Thorndike, University Records and Life in the Middle Ages (New York, 1944), pp. 35—39. [المؤلف] انظر الترجمة العربية للمرسوم فى الملحق الخامس ص ١٧٢ — ١٧٥ بآخر القسم الأول من هذا المجلد ، وهو المرسوم الذى أصدره البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١ م) . [المترجم] .

وضع الأنظمة والقوانين والتشريعات التي تستهدف تنظيم المحاضرات والمناقشات ومواعيدها ، فضلا من تحديد الزى الواجب ارتداؤه ، بالإضـافة إلى مسائل أخرى مثل حضور جنازات الأساتذة والمحاضرات التي يلقيها الحاصلون على درجة الليسانس . ولا بد أن مثل هذه المحاضرات كانت أكثر تحديداً من محاضرات أولئك الأساتذة الذين يحلقون بعلومهم فى الهواء . وتضمنت هذه التنظيمات أيضاً تحديد أجور السكن ، مع العمل على كبح جماح الطلاب [إذا دعت الضرورة إلى ذلك] . فلم يسمح لهم بحمل السلاح ؛ كذلك لا يتمتع بالإعفاءات والبراءات المرخص بها للطلاب إلا اولئك الذين يترددون على المدارس بصفة منتظمة . فقد كان على الطـالب أن يواظب على حضور محاضرتين فى الأسبوع على أقل تقدير .

وجدير بالذكر أنه عندما لا ترد كلمة « جامعة » « university » صراحة فى هذه الوثائق والمستندات ، فيمكن اعتبارها كما لو كانت قد وردت فعلا . فقد كانت الجامعة باعتبارها هيئة ينتظم فيها الأساتذة قائمة بالفعل فى القرن الثانى عشر . ونطورت حوالى عام ١٢٢١م إلى اتحاد أو نقابة معترف بها ، لها خاتمها الخاص . وقد كانت باريس ، على النقيض من بولونيا ، جامعة أساتذة . فقد كان ثمة أربع كليات يشرف على كل منها عميد ، وهذه الكليات هى : كلية الآداب ، وكلية القانون الكنسى مع مراعاة أن القانون المدنى كان محرماً تدريسه فى باريس بعد عام ١٢١٩م . والثالثه هى كلية الطب ، والأخيرة هى كلية اللاهوت . وكان أساتذة الآداب أكثر عدداً من أساتذة الكليات الأخرى ، وكانوا ينقسمون الى أربع « أمم » « nations » هى : الأمة الفرنسية وتشمل الشعوب اللاتينية ، والأمة النورمانية ، والأمة البيكاردية وتشمل أيضاً الأراضى الواطئة ، وأخيراً الأمة الإنجليزية متضمنة طلبة انجلترا وألمانيا وشمال أوروبا وشرقيها . وتقوم هذه

الأمم الأربع باختيار رئيس الجامعة وهو الشخصية الأولى فيها ، والمقصود بذلك المدير . ولا يزال رئيس الجامعة يلقب — عادة — بهذا الإسم فى القارة الأوروبية ، على الرغم من أن فترة إدارته [للجامعة] كانت قصيرة ، إذ بلغت فى عصر متأخر ثلاثة أشهر فحسب .

وإذا أمكن الحكم من واقع هذه الدقائق والتفاصيل التى حفظها لنا الزمن ، لوجدنا أن « الأمم » قد كرست الكثير من وقتها فى بحث أوجه إنفاق المصاريف التى يتم تحصيلها من الأعضاء والموظفين الجدد ، أو — حسبما كانت تسمى — فى سبيل شرب الفائض حتى الثمالة عند منطقة السيفين على مقربة من الجسر الصغير ، أو عند إشارة السيدة مريم العذراء فى شارع سان جاك ، أو عند سوان وفالكون وشعارات فرنسا ، والكثير من أمثال هذه الأماكن والبقاع (١) . وهناك دراسة تدل على العمق وسعة العلم فى موضوع حانات باريس فى العصور الوسطى ، مستقاة من واقع وثائق وسجلات الأمة الإنجليزية دون غيرها . ويبدو أن تشريع « الأمم » المزيف قد شجع على إثارة الأحقاد والمنافسات بين مختلف الأقطار الممثلة فى [جامعة] باريس ، بدلا من العمل على تهدئتها وتخفيف حدتها . وقد ترك لنا جاك دى فيترى (٢) Jacques de Vitry وصفا قلميا رائعا

(١) أنظر هذه الأماكن والبقاع على الخرائط المذيل بها القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم] .

(٢) ولد جاك دى فيترى حوالى سنة ١١٨٠ م ، وتقلب فى العديد من المناصب الكنسية ، وسرعان ما أصبح واحدا من الرجال المرموقين فى زمانه . ويبدو أن تأثيره على الصليبيين الغربيين فى القرن الثالث عشر كان لا يقل عن الأثر الذى تركه بطرس الناسك فى القرن الثانى عشر مع بداية الحركة الصليبية ولا تزال خطبه وعظاته ومراسلاته باقية . وهى وان كانت ==

لهذه المشاحنات (١) .

يقول فيترى : « لقد كانوا [أى الطلبة] يتشاحنون ويتخاصمون ليس فقط بسبب بعض المناقشات ، بل أدت الخلافات والفوارق بين الاقطار أيضا إلى إثارة النزاع والخصومات والأحقاد ، وإلى قيام العداء المستحكم فيما بينهم . وقد صدرت عنهم ، فى قحة وقلة حياء ، كافة أنواع الإهانات والسباب التى كانوا يتراشقون بها . فقد أكدوا أن الإنجليز سكارى ولهم ذيول ، أما أبناء فرنسا فهم متكبرون مخنثون يعنون بأناقتهم كالنساء . وقالوا إن الألمان سريعو الغضب

= لا تثير اليوم الاهتمام الكافى ، إلا أنها كانت فى زمانها تلقى الرواج والاهتمام . وكان أول ماقام به فيترى هو التبشير بالحملة الصليبية ضد الهراطقة الألبيجنسيين . وبعد ذلك كرس حياته للعمل من أجل غزو القبر المقدس ، وكانت تحدوه الآمال فى إعادة تأسيس مملكة اللاتين فى فلسطين . وقد كللت جهوده فى هذا المضمار بتعيينه أسقفا على عكا سنة ١٢١٧م . وفى السنة التالية صاحب فيترى الجيش الصليبى الذى توجه بقيادة جان دى برين صاحب عكا لحصار مدينة دمياط . ويقال إنه أخذ على عاتقه مهمة إدارة كافة العمليات العسكرية . وفى عام ١٢٢٧م غادر فلسطين الى اوروبا . وشغل عدة وظائف دينية منها وظيفة الكاردينالية ثم عين أسقفاً على بيت المقدس ، فممثلا للبابا فى فرنسا والمانيا وأخيرا بطرياركا على بيت المقدس. ولكنه توفى فى ٣٠ ابريل سنة ١٢٤٠ قبل أن يتقلد بالفعل مهام منصبه الجديد . أنظر :
Vitry, J. de, The History of Jerusalem A. D. 1180. Translated from the Original Latin by A. Stewart (London, 1896), pp. III. — IV. [المترجم]

(١) ترجم هذا النص إلى الانجليزية د. س. مونرو ، أنظر Munro, D. C., The Mediaeval Student (University of Pennsylvania, Translations and Reprints, Philadelphia, 1899), p. 19 f. [المؤلف] — أنظر الترجمة العربية لهذه القطعة فى الملحق الرابع بآخر القسم الأول من هذا المجلد [المترجم] .

وأنهم يأتون المنكر والفحشاء فى حفلاتهم . أما النورمان فلا وزن لهم إلا فى المباهاة والمفاخرة الكاذبة. وأما أهل بواتييه فهم خونة ومغامرون دائما. واعتبروا البرجنديين سفلة وأغبياء . كما عرف عن سكان مقاطعة بريتانى أنهم قوم هوائيون لا يثبتون على رأى ولا يقفون على حال ، وهم متقلبون وكانوا محلا للتأنيب بسبب مقتل [الملك] آرثر .(١) وكان يطلق على اللمبارديين البخلاء المحبون المال الأشرار الجبناء . أما الرومان فهم متمردون مشاغبون مفترون ؛ وأما أهل صقلية فهم قوم طغاة يشتهرون بالقسوة والعنف . ويعشق أهالى برابانت سفك الدماء وإثارة الفتن ، وهم أيضا لصوص وقطاع طرق ومغتصبون . والفلمنكيون هوائيون مترددون مسرفون نهمون ناعمون كالزبدة كسالى . وبعد مثل هذه الشتائم والألفاظ البذيئة كثيرا ما كانوا يتضاربون بالأيدى . »

والمعهد « college » هو أحد مراكز العلم الجامعية الأخرى فى باريس ،

---

(١) ظهرت شخصية الملك آرثر خلال الكفاح الطويل بين البريطانيين والسكسون ؛ وقد اختلفت آراء المؤرخين حولها ، وهل هى شخصية حقيقية أم أسطورية . وعلى أى حال ، يرى البعض أن آرثر هو بطل الجانب المغلوب فى ذلك الكفاح وقد ملأت شخصيته النفوس بالإعجاب ، وتعتبر قصته هى أعظم وأبقى ما خلفه السكلتيون للثقافة والآداب الأوروبية ، كما غدت مادة خصيبة تناولها الكتاب والمؤرخون الإنجليز فى كتبهم وتآليفهم فيما بعد ، وفى القرن الثانى عشر ألف الكاتب جوفرى أوف مونماوث Geoffrey of Monmouth كتابا باسم « تاريخ ملوك بريطانيا » تناول فيه قصة الملك آرثر التى أخذت منذ ذلك الحين طريقها فى المؤلفات التاريخية أنظر عن ذلك راوس (ا ل) : التاريخ الانجليزى — نقله إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٤٦) ، ص ١٩ و ٦٠ ؛ راجع أيضا : Trevelyan, G. M., A Shortened History of England (Aylesbury, 1960), pp. 41, 44 ; Maurois, A., Histoire d'Angleterre (Paris, 1937), pp. 24, 38. [المترجم] .

ويرجع تاريخه إلى القرن الثانى عشر . وكان فى الأصل مأوى أو مكاناً للإقامة أوقفت عليه الهبات والعطايا . وسرعان ماأصبح المعهد وحدة راسخة من وحدات الحياة الأكاديمية فى كثير من الجامعات . وكان هدف المؤسسين لتلك المعاهد المبكرة هو العمل على ضمان المأكل والمأوى لطلاب العلم الفقراء الذين لاقدرة لهم على دفع المصروفات والرسوم من جيبهم الخاص (١) . بيد أنه مع مرور الزمن أضحت تلك المعاهد مراكز عادية للحياة والتعليم ، وقد استوعبت داخل جدرانها الكثير من حركة النشاط الجامعى . لقد كان للمعاهد مبان وأوقاف ، فى حين أن الجامعة لم يكن لها مبان أو أوقاف . وفى تاريخ مبكر كان يوجد فى باريس معهد يرجع تاريخه إلى عام ١١٨٠ م ، وحوالى عام ١٥٠٠ م كان يوجد ثمانية وستون معهدا . وظل هذا النظام قائما حتى الثورة الفرنسية [سنة ١٧٨٩ م] ليخلف وراءه فى يومنا هذا مجرد أنقاض المبانى أو بعض الأسماء المحلية مثل السوربون ، وهو الذكرى الوحيدة لمعهد السوربون الذى أسسه معرف (٢) الملك القديس

(١) Rashdall, op. cit., I, p. 500. [المؤلف] أنظر أيضا ماسبق ص ١٢٦—١٢٨ من القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم]

(٢) معرف القديس لويس هو جوفرا دى بلييه Geoffroi de Beaulieu ، وهو راهب دومينيكانى رافق الملك الفرنسى فى حملته على مصر وبقى الى جانبه فى بلاد الشام بعد هزيمته على ضفاف النيل . أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر (الاسكندرية ١٩٦٩) ، ص ٩ ، والعدوان الصليبى على بلاد الشام (الاسكندرية ١٩٧١) ، ص ١٦-١٧ ، راجع ايضا Michaud, M., Histoire des Croisades, vol. VI, pp. 199, 208 f ; Molinier, A., Les Sources de l'Histoire de France, vol. III (Paris, 1903), p. 116. — أما المعرف الآخر للملك الفرنسى فهو روبرت السوربونى الذى ينسب إليه معهد السوربون ، وهو المقصود هنا بطبيعة الحال . أنظر LaMonte, op. cit., p. 571 ; Funck-Brentano, op. cit., p. 202. [المترجم] .

لويس [١] فى القرن الثالث عشر الميلادى. وكان لكثير من الجامعات الأخرى فى القارة الأوروبية معاهدها التابعة لها ، ومن بينها المعهد الأسبانى القديم فى بولونيا ؛ ولايزال هذا المعهد قائما يعمل على إدخال البهجة والسرور إلى قلوب العدد الضئيل من الشباب الأسبانى الذى يفد إلى ساحته الهادئة . ومما لاشك فيه أن الشكل الأخير للمعهد أو المدرسة الجامعة يتمثل فى كل من اكسفورد وكامبريدج بانجلترا، حيث تتضح فيها السمات المميزة تماما للحياة الجامعية . وقد انتحلت هذه المعاهد لنفسها — على سبيل المثال — حق القيام بواجب التعليم كله ، فضلا عن إشرافها على الحياة الاجتماعية للطلبة ، إلى أن غدت الجامعة مجرد هيئة أو جهاز لأداء الامتحانات ومنح الدرجات العلمية . ويرجع تاريخ أقدم البيوت العلمية مثل كل من بيت باليول Balliol وبيتر هاوس (البيت البطرسى) Peterhouse إلى القرن الثالث عشر الميلادى .

لقد تمتعت باريس بمكانة رفيعة فى القرون الوسطى باعتبارها مدرسة للاهوت . ولما كان علم اللاهوت هو موضوع الدراسة الأسمى وقتذاك ، فقد أطلق على هذه المدرسة إسم « سيدة العلوم العليا » « Madame la haute science » ،

---

(١) هو الملك الفرنسى لويس التاسع حفيد فيليب أوغسطس ، حكم من سنة ١٢٢٦م حتى سنة ١٢٧٠ م . وقد اشتهر بحملاته الثلاث التى قام بها خلال حكمه : الأولى ضد مصر (١٢٤٨ – ١٢٥٠ م) ، والثانية ضد بلاد الشام (١٢٥٠ – ١٢٥٤م) ، والأخيرة ضد تونس بشمال افريقية (١٢٧٠م) . وعن الملك وسيرته وحملاته ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ، وبخاصة ص ٣ وما يليها ؛ والعدوان الصليبى على بلاد الشام ، وبخاصة ص ١ – ٤٣ ؛ راجع ايضا كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١٣٩ و ح ٣ . [المترجم].

وهذا يعنى أنها كانت رفيعة القدر والمكانة باعتبارها جامعة . ولقد جرى القول المأثور القديم وهو أن « البابوية كانت عند الايطاليين ، والإمبراطورية عند الألمان ، والعلم عند الفرانسيين » . وكانت باريس هى المركز المختار للعلم والتعليم. وكان طبيعيا جدا أن تصبح باريس منبعا لجامعات الشمال ونموذجا لها . وقد انبثقت جامعة اكسفورد [الانجليزية] عن هذا المصدر الأصلى فى أواخر القرن الثانى عشر . ومثلها مثل جامعة باريس ، ليس هناك تاريخ محدد لتأسيسها . أما [جامعة] كامبريدج فقد بدأت بعد ذلك بفترة . هذا ، ولا ترجع أى جامعة من الجامعات الألمانية إلى ماقبل القرن الرابع عشر . ومن المسلم به أنها كانت تقليدا لجامعة باريس . ومن ثم عندما أسس الكونت روبرخت[١] Ruprecht جامعة هايدلبرج عام ١٣٨٦ م — إذ تأسست مثل هذه الجامعات المتأخرة فى تواريخ معلومة محددة — اشترط « أن تكون إداراتها ونظمها وتنظيماتها مطابقة للأسلوب والأوضاع التى جرت العادة بمراعاتها فى جامعة باريس ، وهى جامعة جديرة بأن ينتهج نهجها . وبوصفها أيضا صنيعة باريس ، فقد عملت على اقتفاء خطاها بكل السبل الممكنة ؛ وكانت تشتمل على أربع كليات ، ونعنى بذلك أربع أمم ومدير ، فضلا عن الإعفاءات والبراءات المقررة للطلبة وخدمهم ، وكذلك غطاء الرأس والسراويل لمختلف الكليات مثلما روعى فى باريس »[٢] .

---

(١) للمزيد من المعلومات عن روبرخت ، أنظر LaMonte, op. cit.; p. 621. [المترجم]

(٢) أنظر الترجمة الإنجليزية فى كتاب Henderson, E. F., Select Historical Documents of the Middle Ages (London and New York, 1892), pp. 262 - 266.

وبنهاية العصور الوسطى كان قد تم إنشاء مالا يقل عن ثمانين جامعة فى مختلف أرجاء أوروبا . (١)ولم يعمر بعضها طويلا ، كما تمتع عدد كبير منها بأهمية محلية فحسب . وثمة جامعات أخرى ، مثل جامعة سالرنو ، ازدهرت لتصبح بعد قليل فى عالم النسيان . ولكن بعض هذه الجامعات يتمتع بتاريخ حافل متصل يمتد عبر قرون طويلة من الشهرة الواسعة والصيت الذائع ، مثل جامعات باريس ، ومونتبلييه ، وبولونيا ، وبادوا ، واكسفورد ، وكامبريدج ، وفيينا ، وبراغ ، وليبزيج ، وكويمبرا ، وسالامنكا ، وكراكاو ، ولوفان . هذا ، وقد اقتفت جامعات اوروبا الكبرى التى تأسست فى فترة متأخرة مثل جامعات برلين ، وشتراسبورج ، وأدنبره ، ومانشستر ، ولندن ، خطى النماذج القديمة من حيث تنظيمها . أما فى أمريكا فإن المعاهد المبكرة الخاصة بالتعليم العالى كانت نسخة مكررة من المعهد الانجليزى المعاصر لها ، فى وقت كانت فيه الجامعة فى انجلترا قد حجبتها المعاهد التى كانت تتألف منها تلك الجامعة وقد ألقت بظلها عليها . غير أنه عندما قامت أمريكا بإنشاء الجامعات فى أواخر القرن التاسع عشر ، اتجهت ببصرها نحو الجامعات الأوروبية ، ومن ثم انغمست مرة أخرى فى أعماق الإرث القديم . وكان ثمة إحساس لايزال باقيا يتعلق بالتقليد الجامعى العام فى العصر الكلونى ،

---

(١) توجد قائمة بهذه الجامعات فى كتاب راشدال عن الجامعات ، أنظر Rashdall, op. cit., I, XXIV. ؛ كذلك توجد خريطة خاصة بالمراكز التعليمية فى بداية الجزء الثانى من الكتاب سالف الذكر ، وخريطة أخرى فى كتاب Shepherd, Historical Atlas (New York, 1911), p. 100. [المؤلف]

وكتابنا هذا مزود بخريطة تفصيلية بالمراكز الفكرية فى اوروبا فى العصور الوسطى بآخر القسم الأول منه ، أنظر أيضا الترخيص البابوى بانشاء جامعة افنيون سنة ١٣٠٣ م فى الملحق السادس ص ١٧٦—١٧٨ بآخر القسم الأول من كتابنا هذا [المترجم] .

لأن مرسوم المعهد الرودى Rhode Island College الصادر عام ١٧٦٤ م يمنح « نفس الامتيازات والرتب والحريات والإعفاءات التى تمتعت بها المعاهد الأمريكية والجامعات الأوروبية . »

فما هو ، إذن ، تراثنا من بين أقدم الجامعات ؟ إن هذا التراث ، فى المرتبة الأولى ، ليس ممثلا فى مبان أو فى أعمال هندسية . ذلك أن الجامعات المبكرة لم يكن لها مبان خاصة بها ، ولكنها كانت تستخدم فى المناسبات قاعات خاصة أو الكنائس المجاورة . وقد تم متأخرا فى عام ١٧٧٥ م بناء أول كنيسة معمودية فى بروفيدانس (١) Providence « ليتسنى للجميع عبادة الله العلى العظيم ، فضلا عن الشروع للتدريس فيها . » وفى الحقيقة إن من يبغى الحصول على فكرة متكاملة عن الحياة فى الجامعات القديمة ، لن يجد سوى عونا ضئيلا فيما ظل منها باقيا [حتى اليوم]. فلم تحتفظ سالرنو بأية آثار من جامعتها ، ولو أن كاتدرائيتها القديمة النادرة حيث يرقد هيلدبراند (٢) فى مثواه ، لابد وقد شاهدت تخرج أجيال عديدة من الأطباء الأدعياء . وإننا نتطلع فى قاعات جامعة بادوا « ذات القباب العديدة » إلى عصر النهضة وليس إلى القرون الوسطى . وحتى جامعة

---

(١) بروفيدانس هى عاصمة الجزيرة الرودية Rhode Island بالولايات المتحدة الأمريكية . وتمتاز بأنها ميناء بحرى هام ومركز صناعى وتجارى مشهور . وهى مشيدة فوق تلال ثلاثة تقع فوق أحدها الجامعة المعروفة باسم جامعة براون Brown University. أنظر مقالة « بروفيدانس » فى دائرة المعارف البريطانية (طبعة شيكاجو ، سنة ١٩٦٤)، ج ١٨ ، ص ٦٤٦ - ٦٤٧ . [المترجم]

(٢) المقصود البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) الذى استقلت البابوية فى عهده استقلالا تاما فى الناحيتين الدينية والسياسية . وكان راهبا من أصل توسكانى اسمه هيلدبراند . وفى عهده بدأ الصراع العنيف بين الإمبراطورية والبابوية أيام الإمبراطور=

بولونيا ، التى أخرجت رجال بولونيا المثقفين ، [١] والمشهورة بأبراجها المائلة وقبواتها المشبعة بالرطوبة ، لم تترك هى الأخرى أية بقايا مادية تكشف عن هندسة بناء جامعتها قبل القرن الرابع عشر . وإن أقدم الآثار التذكارية لأساتذة القانون بها والتى تم جمعها وحفظها الآن فى متحف البلدية ، إنما ترجع إلى ذلك التاريخ .[٢] كذلك لم تحتفظ كل من جامعتى مونتبلييه واورليانز بأية آثار ترجع إلى هذه الفترة من الزمن . وأما باريس التى لم تكن تعنى دائما بماضى تاريخها الحافل ، بوسعها اليوم أن تقدم لنا كنيسة القديس جوليان المسكين Saint – Julien – le – Pauvre حيث كانت تعقد اجتماعات الجامعة فى معظم الأحيان ، ما لم تدخل فى الاعتبار ، كما يجب أن يكون ، الكاتدرائية الكبرى فى المدينة القديمة التى انبثقت منها الجامعة أصلا. [٣] ولم يتبق من الدار البطرسية (بيتر هاوس) ، وهى أقدم معهد علمى فى كامبريدج ، سوى جزء من أقدم مبانيها . وإن أعظم أثر فى جامعة كامبريدج وهو الكنيسة الصغرى فى كينجز كوليدج King's College ، إنما يرجع إلى أواخر القرن الخامس عشر . وتؤكد جامعة أكسفورد أكثر من غيرها من الجامعات الأخرى ، أعمق الأحاسيس بالاستمرار والترابط بين حاضرها وماضيها القديم . فها هى أكسفورد فى عصر

= الألمانى هنرى الرابع حول المسائل العلمانية . أنظر عن ذلك Runciman, S., A History of the Crusades, vol. I (Cambridge, 1954), p. 198 f. ; Daniel – Rops, L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade (Paris, 1952), p. 541 f. [المترجم]

(١) هذه ترجمة المصطلح اللاتينى Bononia docta ، والمقصود فقهاء بولونيا . [المترجم]

(٢) أى القرن الرابع عشر [المترجم].

(٣) المقصود كاتدرائية نوتردام [المترجم].

متى أرنولد[1] Matthew Arnold« لها هيبتها واحترامها ، بديعة للغاية ... وقد انطبعت فى أعماق الشعور والوجدان وهى فى موقعها ، وانتشر ضوء القمر ليلا حدائقها ، بينما تهمس أبراجها بآخر مفاتن وسحر القرون الوسطى » . ومع ذلك، ففيما يتعلق بمبانى المعهد الحقيقية ، فإنها تتضمن المعنى والمضمون أكثر مما تعنى القرون الوسطى نفسها . هذا ، ولا ترجع مبانى جامعة ميرتون Merton الحالية ، وهى التى اتخذت شكل المعهد العلمى فى أكسفورد ، إلى أبعد من سنة ١٣٠٠ م . ولا يوجد فى أى مكان آخر الكثير من البقايا والآثار التى ترجع إلى القرن الرابع عشر . وإن أمجاد جامعة أكسفورد وعظمتها مثل مكتبة بودليان Bodleian وبرج مجدالين Magdalin وقاعة كنيسة السيد المسيح — كل هذه المخلفات ترجع إلى عصر متأخر عن ذلك بكثير ، وهو عصر أسرة تيودور ،[2] وذلك عن طريق التقدير الحسابى البسيط بالنسبة للأزمنة الحديثة . وعندما نقول بأنه من أثر يرجع إلى العصور الوسطى ، فإنما نعنى — عادة — أنه يرجع إلى عهد أسرة تيودور فحسب .

ولا يكمن استمرار الجامعات فى المظهر أو الاحتفالات الأكاديمية ، وذلك على الرغم من المناسبات التذكارية العارضة مثل تسليم الدرجات العلمية وعليها

---

(١) متى أرنولد (١٨٢٢ — ١٨٨٨) شاعر وأديب وناقد انجليزى معروف عاش فى القرن التاسع عشر . وهو ، أيضا ، من كبار رجال التعليم فى زمانه . له انتاج وفير ومنشور فى مجال الأدب والشعر ، فضلا عن تقاريره الهامة فى شئون العلم والتعليم والتى تضفى عليها المهام التعليمية الرسمية التى ترسل فيها أهمية كبيرة . أنظر مقالة « أرنولد (متى) » فى دائرة المعارف البريطانية (طبعة شيكاجو ، سنة ١٩٦٤) ، ج ٢، ص ٤٦٦ ومابعدها . [المترجم] .

(٢) حكمت أسرة تيودور الإنجليزية من سنة ١٤٨٥ م إلى سنة ١٦٠٣م. [المترجم]

خاتم الجامعة أو مشفوعة بقبلة السلام، أو مثل تحديد مواعيد الامتحانات بواسطة الساعة الزجاجية التى شاهدتها قائمة فى جامعة كويمبرا Coimbra البرتغالية . ويحمل الزى الجامعى بعض العناصر التقليدية حيث يعتبر الزى اليومى كما هو الحال فى جامعات أكسفورد وكامبريدج وكويمبرا . وفى أمريكا خرج أجدادنا على هذا التقليد . ويعتبر الزى الرسمى الشائع فى الولايات المتحدة الامريكية اليوم وهو غطاء الرأس والروب أثراً من آثار جامعة البابيا الحديثة أكثر مما هو من مخلفات جامعة باريس أو جامعة بولونيا فى العصور الوسطى . ولقد تغيرت الأزياء حتى التى كانوا يتزون بها فى منازلهم القديمة . ويقول راشدال [١] إنه « من المحتمل أن الرداء الجامعى فى جامعة أكسفورد اليوم لا يماثل زى العصور الوسطى » . ولم يعرف طالب جامعة بادوا فى العصر الوسيط شيئا يشبه موكب الاحتفالات المتنوعة الذى طاف شوارع المدينة فى صيف العام الماضى . [٢] ولو قدر لروبرت السوربونى [٣] Robert de Sorbon أن يعيش اليوم لاعترته الدهشة عند رؤية مثل هذه الأنماط والنماذج لتلك الأردية الفخمة الزاهية التى لا تمت إلى العصور الوسطى بصلة ، والتى وجدت مكدسة فى مسرح القاعة الكبرى بجامعة السوربون عندما تسلم الرئيس ويلسون Wilson الدرجة الفخرية من الجامعة المذكورة فى عام ١٩١٨ م .

---

(١) Op. cit., vol. III, p. 391 f.

(٢) لما كانت أولى طبعات هذا الكتاب بلغته الأصلية ترجع إلى سنة ١٩٢٣ م ، فلا بد أن هاسكنز يقصد صيف عام ١٩٢٢ م [المترجم].

(٣) روبرت السوربونى هو معرف لويس التاسع ملك فرنسا ومؤسس أشهر المعاهد الباريسية وهو معهد السوربون الذى شيده سنة ١٢٥٨ م لسكى يقيم فيه ١٦ طالبا تخصصوا فى دراسة اللاهوت ، وكان كل أربعة منهم يمثلون أمة من الأمم . وأخذ هذا المعهد بعد =

ولكننا ، مع ذلك ، نجد التقاليد الجامعية واضحة تماما فى أنظمة [جامعات العصور الوسطى] . فنجدها ، أولا ، فى إسم الجامعة نفسها باعتبارها مجتمعا من الأساتذة وطلاب العلم يقود المسيرة العامة للعلم والتعليم . ولن يجد عالم العصر الحديث الذى يتميز بالفردية شيئا آخر يستعيض به عن مثل هذا الاتحاد الذى هو من سمات وخصائص العصور الوسطى . ثم أن الإحاطة بطائفة من الأمور التى استقرت بصفة نهائية فيما يختص بمواعيد المحاضرات والموضوعات التى يتم الامتحان فيها فى امتحان يؤدى بدوره إلى الحصول على الدرجة العلمية — كل هذه المسائل تجعلنا ندرك إلى أى حد هى مطابقة لكثير من الدرجات العلمية مثل درجة الليسانس أو البكالوريوس باعتبارها مرحلة تؤدى إلى الأستاذية ، ثم درجتى الماجستير والدكتوراه فى الآداب أو القانون أو الطب أو اللاهوت . وتأتى بعد ذلك الكليات وهى أربع كليات أو أكثر ، بعمدائها وكبار موظفيها مثل الرؤساء والمديرين ، وذلك بصرف النظر عن البيوت الجامعية [التى اتخذت بالتدريج صفة المعاهد العلمية] حيث لاتزال مثل هذه البيوت الخاصة بإيواء الطلبة باقية .

وإن الجوانب الرئيسية فى التنظيم الجامعى واضحة لايخطىء الظن فيها ، وقد تم تناقلها من السلف إلى الخلف دون انقطاع وفى اتصال مستمر . وظلت باقية أكثر من سبعمائة سنة . وللمتساءل أن يقول : أى شكل من الحكومات قد عمر إلى مثل هذا المدى ؟ ومن المحتمل جدا ألا يكون ذلك هو فصل الخطاب ، فليس

= ذلك يتسع ويزداد عدد الطلاب المقيمين فيه . وقد أعطى روبرت إسمه لقسم الدراسات الأدبية بجامعة باريس الذى يعرف الآن باسم السوربون . أنظر ,.LaMonte, op. cit p. 571. ، وللمزيد من المعلومات عنه ، أنظر : نفس المرجع ، ص ٥٧٣ - ٥٧٤ ، وكذلك ص ٢١٢ و٢٦٥ وح٢ من هذا الكتاب . [المترجم].

هناك شىء فى هذا العالم [الذى نعيش فيه] يسيردون توقف . غير أن هذه الأنظمة كانت شديدة الصلابة والثبات وصالحة لاستخدامها والإفادة منها . ثم أنه من الممكن أيضا إساءة استخدامها . مثال ذلك جامعة برايس Bryce's University التى تشتمل على كلية « تتألف من مسز جونسون ومنى » ، أو « الجامعات الرائدة الإحدى عشر » التى تتميز بوضع خاص فى وسط الغرب الأوروبى . وفى أزمان متباعدة كان النقد يوجه إلى الجامعات إما لتعاليها وترفعها ، وإما لتكريس كل وقتها وجهدها لعملها ، وإما لكونها شديدة السهولة شديدة القسوة، ولقد بذلت جهود فعالة فى سبيل إصلاحها عن طريق إلغاء شروط الالتحاق بها ، أو التغاضى عن الأمور التى لاتؤدى مباشرة إلى الحصول على لقمة العيش . غير أنه لم يتسن الحصول على بديل للجامعة فى صميم عملها الذى يشتمل على تدريب طلاب العلم ، والمحافظة على التقليد القائم على الدراسة والبحث . وتكمن عظمة جامعة العصور الوسطى ، حسبما يقول راشدال (١) فى أنها نذرت نفسها للعلم ، ولم تختف عظمة الإلهام بعد من هذا العالم . ولقد قيل « إن جامعة العصور الوسطى هى المدرسة فى روحها الحديثة » . وسيكشف الفصل التالى كيف استطاعت الجامعات المبكرة القيام بأعباء هذا العمل الكبير .

---

(١) Op. cit., vol. III, p. 442.

بعض المراجع للفصل الأول

(أولا)

مراجع عامة عن جامعات العصور الوسطى والمدخل إليها

١ — المدارس التابعة للمؤسسات الدينية

Aspinwall, W.B., Les écoles épiscopales et monastiques de l'ancienne province ecclésiastique de Sens du VIe au XIIe siècle. Paris, 1904.

Clark, J.M., The Abbey of St. Gall. Cambridge, 1926.

Clerval, A., Les écoles de Chartres au moyen âge du Ve au XVIe siècle. Chartres, 1895.

Doren, R. Van, Etude sur l'influence musicale de l'abbaye de Saint-Gall (VIIIe au XIe siècle). Louvain, 1925.

Giesebrecht, W., De litterarum studiis apud Italos, 1845.

ولكتاب جيز برشت ترجمة باللغة الإيطالية تحمل إسم :

Giesebrecht W., L'istruzione pubblica in Italia nei primi secoli del medio evo. An Italian translation by C. Pascal. Florence, 1895.

Graham, R., "The Intellectual Influences of English Monasteries between the Tenth and Twelfth Centuries," Trans. Royal Historical Society, New Series, XVII (1903), pp. 23—64.

Joynt, M., The Life of St. Gall. A Translation of the Work of Walafrid Strabo with an Introduction on the History of the Abbey of St. Gaul and its Library. London, 1927.

Lhoumeau, C.S. de, L'abbaye de Saint-Léonard de Ferrières, ordre de Saint-Benôt, diocèse de Poitiers. Paris, 1926.

Loew, E.A., The Beneventan Script : A History of the South Italian Minuscule. Oxford, 1914.

Maître, L., Les écoles épiscopales et monastiques de l'Occident depuis Charlemagne jusqu'à Philippe Auguste. Paris, 1866.

Ozanam, A., "Des écoles et de l'instruction publique en Italie aux temps barbares," Documents indéits, 1850.

Salvioli, G., L'istruzione pubblica in Italia nei secoli VIII, IX, X. Florence, 1898.

Specht, F.A., Geschichte des Unterrichtswesens in Deutschland von den ältesten Zeiten bis zur Mitte des 13 Jahrhunderts. Stuttgart, 1885.

٢ – الخلفية الثقافية لجامعات العصور الوسطى

Delhaye, P., "L'organisation scolaire au XIIe siècle," Traditio, V (1947), pp. 211—268.

Ferguson, W.K., The Renaissance in Historical Thought. Boston, 1948.

أنظر بصفة خاصة الفصل الحادى عشر من الكتاب المذكور .

Haskins, C.H., The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge, Mass., 1928.

Panofsky, E., "Renaissance and Renascences," Kenyon Review, VI (1944), pp. 201—234.

Paré, G., Brunet, A. & Tremblay P., La renaissance du XIIe siècle: Les écoles et l'enseignement. Paris and Ottawa, 1933.

Powicke, F.M. (Pub.), Ways of Medieval Life and Thought. London (n. d.)

ويتضمن هذا الكتاب عدة مقالات سبق نشرها سنة ١٩٤٩ ، ومن أهمها المقالات الأربع التالية :

١ – « بولونيا ، باريس ، اكسفورد : ثلاث مدارس جامعة » (ص ١٤٩ – ١٧٩) .

٢ – « بعض المشكلات فى تاريخ جامعة العصور الوسطى » (ص ١٨٠ – ١٩٧) .

٣ – « جامعة العصور الوسطى فى الكنيسة والمجتمع » (ص ١٩٨ – ٢١٢) .

٤ – « أكسفورد » (ص ٢١٣ – ٢٢٩) .

٣ — جامعات العصور الوسطى بصفة عامة

Denifle, H., Die Entstehung der Universitäten des Mittelalters bis 1400, vol. I. Berlin, 1885.

كان دنيفل يعتزم إتمام هذا العمل الكبير فى خمسة أجزاء ، ولكنه توفى عام ١٩٠٥ دون أن يحقق أمنيتـه .

D'Irsay, S., Histoire des universités françaises et étrangères, vol. I : Moyen Age et Renaissance. Paris, 1933.

Rashdall, H., The Universities of Europe in the Middle Ages. A revised edition edited by F.M. Powicke and A.B. Emden. 3 vols. Oxford, 1936.

ويعتبر كتاب راشدال المؤلف الرئيسى فى جامعات العصور الوسطى ، ولا غنى عنه المتصدى لهذا الموضوع ، وبخاصة ما يتعلق بجامعة اكسفورد وحياة الطلبة .

Schachner, N., The Mediaeval Universities. New York, 1938.

Thorndike, L., University Records and Life in the Middle Ages. New York, 1944.

وهو يشتمل على أقيم مجموعة متضمنة المادة الأساسية الأصلية عن الجامعات مترجمة إلى اللغة الانجليزية .

(ثانيا)

الجامعات الإيطاليـة

١ — جامعـة بولونيا

Calcaterra, C., Alma mater studiorum : L'Università di Bologna nella storia della cultura e della civiltà. Bologna, 1948.

ويعتبر هذا الكتاب من أحدث ما كتب عن تاريخ جامعة بولونيا.

Cassani, G., Dell'antico studio di Bologna e sua origine. Bologna, 1888.

Cavazza, F., Le scuole dell'antico studio bolognese. Milan, 1896.

Chartularium Studii Bononiensis; Documenti per la storia della Università di Bologna dalle origini fino al secolo XV. (since 1907).

Chiappelli, L., Lo studio bolognese nelle sue origini e nei suoi rapporti colla scienza pre-irneriana. Pistoia, 1888.

Fitting, H., Die Anfänge der Rechtsschule zu Bologna. Leipzig, 1888.

Ghirardacci, C., Della historia di Bologna. 2 parts. Bologna, 1596, 1657.

Hessel, A., Geschichte der Stadt Bologna von 1116 bis 1280. Berlin, 1910.

Malagola, C., I rettore delle Università dello studio bolognese. Bologna, 1887.

Malagola, C., Monografie storiche sullo studio bolognese. Bologna, 1888.

Ricci, C., I primordi dello studio bolognese : nota storica. Bologna, 1888.

Sarti, M. & Fattorini, M., De claris archigymnasii bononiensis professoribus a saeculo XI usque ad saeculum XIV. 2 vols. Bologna, 1888—1896.

وعلى الرغم من قدم هذا الكتاب ، إلا أنه لا يزال يحتفظ بقيمته .

Sedgwick, H.D., Italy in the Thirteenth Century. 2 vols. Boston, 1912.

أنظر ما كتبه المؤلف عن جامعة بولونيا فى الجزء الأول من كتابه (الفصلان ١٦ — ١٧) .

Sorbelli, A., Storia della Università di Bologna : Il medioevo. Bologna, 1940.

ويعتبر هذا الكتاب ، هو الآخر ، من أحدث ما كتب فى تاريخ جامعة بولونيا .

Studi e Memorie per la storia della Università di Bologna. (since 1907).

Universitatis Bononiensis Monumenta. (since 1932).

Zaccagnini, G., La vita dei maestri e degli scolari nello studio di Bologna nei secoli XIII e XIV. Geneva, 1926.

٢ — جامعة سالرنو (١)

Kristeller, P.O., "The School of Salerno : Its Development and Its Contribution to the History of Learning," Bulletin of the History of Medicine, XVII (1945), pp. 138—194.

Harrington, J., The School of Salernum. Reprinted by F.H. Garrison, London, 1922.

وقدم لكتاب هارينجتون الكاتب فرنسيس ر. باكار Francis R. Packard بكلمة ليست بذات أهمية .

Hartmann, F., Die Literatur von Früh-und Hoch Salerno. Leipzig, 1919.

Renzi, S. de, Storia documentata della scuola medica di Salerno. 2nd ed. Naples, 1857.

٣ — جامعة نابسولى

Schipa, M., La fondazione dell'università di Napoli e l'Italia del tempo. Naples, 1924.

Torraca, F. & Others, Sotria dell'università di Napoli. Naples, 1924.

٤ — مدرسة بافيسا

Mengozzi, G., Ricerche sull'attività della scuola di Pavia nell'alto medio evo. Paris, 1924.

٥ — الجامعة الإيطالية فى العصور الوسطى

Coppi, E., Le università italiane nel medio evo, 3rd ed. Florence, 1886.

(ثالثا)

الجـــامعات الفرنسية

١ — جامعة افنيون

Caillet, R., L'université d'Avignon et sa faculté des droits au moyen âge (1303—1503). Paris, 1907.

Marchand, J., La faculté des arts de l'université d'Avignon. Paris, 1897.

(١) تم تسليط الأضواء أخيرا على مدرسة سالرنو بفضل الدراسات التى قام بها كل من جياكوزا Giacosa وسدهوف Sudhoff وتلامذته .

٢ ــ جامعة اورليانز

Bimbenet, J. E., Histoire de l'université de lois d'orléans. Paris, 1853.

٣ ــ جامعة باريس (١)

Allain, E., "L'université de Paris aux XIIIe et XIVe siècles," Revue du clergé français, IV (1895), pp. 193—206, 308—322.

Aspinwall, W.B., Les écoles épiscopales et monastiques de l'ancienne province ecclésiastique de Sens du VIe au XIIe siècle. Paris, 1904.

Bonnerot, J., "L'ancienne université de Paris, centre international d'études," Bulletin of the International Committee of Historical Sciences, I, Part V, no. 5 (1928), pp. 661—682.

Boulay, C.E. du (Bulcans), Historia universitatis parisiensis a Carolo Magno ad nostra tempora. 6 vols. Paris, 1665—73.

قام بنقد كتاب بولاى الكاتب أ. فرانكلين فى مؤلفه المعنون :

"Franklin, A., Les sources de l'histoire de France. Paris, 1877."

Boyce, G.C., The English-German Nation in the University of Paris during the Middle Ages. Bruges, 1927.

ويعتبر مؤلف بويس من أحسن ما كتب عن نظام « الأمم » فى جامعة باريس فى العصور الوسطى .

Budinsky, A., Die Universität Paris und die Fremden an der selben im Mittelalter. Berlin, 1876.

Crevier, J.B.L., Histoire de l'université de Paris depuis son origine jusqu'en l'année 1600. 7 vols. Paris, 1761.

Delègue, R., L'université de Paris (1224—1244). Paris, 1902.

Denifle, H. & Chatelain, E. (eds.), Chartularium Universitatis Parisiensis. (since 1889).

Denifle, H. & Chatelain, E. (eds.), Auctarium Chartularii Universitatis Parisiensis. (since 1893).

ويتضمن هذان الكتابان المادة الأصلية المتعلقة بنظام « الأمم » فى جامعة باريس .

---

(١) الحاجة ماسة إلى وضع مؤلف جديد عن تاريخ جامعة باريس فى العصور الوسطى .

Desmaze, C., L'université de Paris, 1200—1875 : La nation de Picardie; les collèges de Laon et de Presles; la loi sur l'enseignement supérieur. Paris, 1876.

Douarche, A., L'université de Paris et les jésuites (XVIe et XVIIe siècles). Paris, 1888.

ويتعرض هذا الكتاب لتاريخ جامعة باريس في العصور الوسطى .

Dubarle, E., Histoire de l'université de Paris. 2 vols. Paris, 1844.

Féret, P., "Les origines de l'université de Paris et son organisation aux XIIe et XIIIe siècles," Revue des questions historiques, LII (1892), pp. 337—390.

وقد جعل ب. فريه المقالة السالفة مقدمة لإنتاجه الضخم المعنون :

"Féret, P., La faculté de théologie de Paris. 4 vols. Paris, 1894-97.,

Follenay, Abbé P. de, Notice historique sur l'école épiscopale de Notre-Dame de Paris. Paris, 1878.

Gross, C., "The Political Influence of the University of Paris in the Middle Ages," American Historical Review, VI (1900—1901), pp. 440—445.

Halphen, L., "Les débuts de l'université de Paris," Studi medievali, VII (1929), p. 152 ff.

Halphen, L. & Others, Aspects de l'Université de Paris. Ed. by J. Calvet. Paris, 1949.

ويتضمن الكتاب عدة مقالات هامة بأقلام ل. هالفن ، و ب. جلوريه P. Glorieux ، و ج. دوبون - فريه G. Dupont-Ferrier ، و ج. ليبرا G. Le Bras ، و س. ساماران C. Samaran .

Lacombe, G., Prepositini cancellarii parisiensis (1206—1210) opera omnia, I, La vie et les oeuvres de Prévostin. Kain, 1927.

Liard, L., "La vieille université de Paris," Revue de Paris, May, 1908, pp. 85—110.

Luchaire, A., L'Université de Paris sous Philippe-Auguste. Paris, 1889.

Mackay, D.L., "Le système d'examen du XIIIe siècle d'après le De conscientia de Robert de Sorbon," Mélanges Ferdinand Lot (Paris, 1925), pp. 491—500.

Powicke, F.M., Stephen Langton. Oxford, 1928.

Richomme, C., Histoire de l'université de Paris. Paris, 1840.

وكتاب ريشوم مجرد عرض مختصر لمؤلف ديبارل E. Dubarle

Thurot, C., De l'organisation de l'enseignement dans l'université de Paris au moyen âge. Paris, 1850.

لا يزال كتاب ثورو – على الرغم من قدمه – من أحسن ما كتب عن جامعة باريس .

Valois, N., Guillaume d'Auvergne, évêque de Paris. Paris, 1880.

٤ – جامعة بروفانس

Belin, F., Histoire de l'ancienne université de Provence (Aix) 1400—1793, d'après les manuscrits et les documents originaux. Aix, 1892.

٥ – جامعة تولوز

Barbot, E.J., Les chroniques de la faculté de médecine de Toulouse du XIIIe au XXe siècles. 2 vols. Toulouse, 1905.

Gadave, R., Les documents sur l'histoire de l'université de Toulouse et spécialement de sa faculté de droit civil et canonique (1229—1789). Toulouse, 1910.

Saltet, L., "L'ancienne université de Toulouse," Bulletin littéraire ecclésiastique, 1912 ff.

٦ – جامعة السوربون

Barran-Dirigo, L. & Bonnerot, J., La Sorbonne : six siècles de son histoire par l'image. Paris, 1928.

Bonnerot, J., La Sorbonne : sa vie, son rôle, son oeuvre à travers les siècles. Paris, 1928.

Chambon, F. (ed.), Robert de Sorbon, De consciencia et de tribus dietis. Paris, 1903.

Franklin, A., La Sorbonne : ses origines, sa bibliothèque. Paris, 1875.

Gréard, O., Nos adieux à la vieille Sorbonne. Paris, 1893.

Longuemare, P. de, Notes sur quelques collèges parisiens de fondation normande aux XIIIe, XIVe et XVe siècles. Rouen, 1911.

Meric, E., La Sorbonne et son fondateur. Paris, 1888.

(رابعا)

الجامعات الإنجليزية

١ — جامعة اكسفورد

Boase, C.W., Oxford. London, 1887.

Brodrick, G.C., Memorials of Merton College. Oxford, 1885.

Brodrick, G.C., A History of the University of Oxford. London, 1894.

Emden, A.B., An Oxford Hall in Mediaeval Times, Being the Early History of St. Edmund Hall. Oxford, 1927.

Headlam, C., Oxford and Its Story. London, 1912.

Lang, A., Oxford : Brief Historical and Descriptive Notes. London, 1890.

Little, A.G., "The Franciscan School at Oxford in the Thirteenth Century," Archivum Franciscanum Historicum, XIX (1926), pp. 803—874.

Lyte, H.C.M., A History of the University of Oxford to 1530. London, 1886.

Mallet, C.E., A History of the University of Oxford, Vol. I : The Mediaeval University and the Colleges Founded in the Middle Ages. London & New York, 1924.

Percival, E.F. (tr.), Foundation Statutes of Merton College, 1270, with Subsequent Ordinances, from the Latin. London, 1887.

Salter, H.E., "The Medieval University of Oxford," History, N.S. XIV (1929), pp. 57—61.

Vallance, A., The Old Colleges of Oxford : Their Architectural History. London, 1912.

Vaughan, E.V., The Origin and Early Development of the English Universities to the Close of the Thirteenth Century, University of Missouri, Studies, Social Science Series, II, No. 2, 1908.

Willard, J.F., The Royal Authority and the Early English Universities. Philadelphia, 1902.

Wood, A.à., The History and Antiquities of the University of Oxford. Ed. by J. Gutch. 2 vols. Oxford, 1792—96.

٢ — جامعة كامبردج

Ball, W.W.R., The King's Scholars and King's Hall. London, 1918.

Cooper, C.H., Memorials of Cambridge. 3 vols. Cambridge, 1884.

Cooper, C.H., Annals of Cambridge. 5 vols. Cambridge, 1842–1908

Gray, A., Cambridge and Its Story. London, 1912.

Gray, A., Cambridge University : An Episodical History. London 1926.

Mullinger, J.B., University of Cambridge from the Earliest Times to the Royal Injunction of 1535, Vol. I. Cambridge, 1873.

ولا يزال هذا الكتاب حتى اليوم هو المرجع الأساسي عن جامعة كامبريدج .

Mullinger, J.B., History of the University of Cambridge. London, 1888.

Willis, R. & Clark, J.W., The Architectural History of the University of Cambridge and of the Colleges of Cambridge and Eton. 4 vols. Cambridge, 1886.

(خامسا)

الجامعات الألمانيـة

١ — جامعة ارفورت

Benary, F., Zur Geschichte der Stadt und der Universität Erfurt am Ausgang des Mittelalters. Gotha, 1919.

٢ — جامعة فينا

Aschbach, J., Geschichte der Wiener Universität im ersten Jahrhundert ihres Bestehens. 3 vols. Vienna, 1865—1888.

٣ — جامعة هايدلبرج

Stübler, E., Geschichte der medizinischen Facultät der Universität Heidelberg, 1368—1920. Heidelberg, 1926.

Thorbecke, A., Die älteste Zeit der Universität Heidelberg (1368—1449). Heidelberg, 1886.

٤ — الجامعات الألمانيـة بصفـة عامة

Döllinger, J. v., Die Universitäten sonst und jetzt. Munich, 1867.

ولهذا الكتاب ترجمة باللغة الإنجليزية تحت إسم :

"Döllinger, J.v., The Universities New and Old. Oxford, 1867."

Kaufmann, G., Die Geschichte der deutschen Universitäten. 2 vols. Stuttgart, 1888, 1896.

(سادسا)

الجـامعات الأسبانيـة

Arteaga, E. Esperabé, Historia de la universidad de Salamanca, Vol. I. Salamanca, 1914.

Braga, T., Historia da universidade de Coimbra. 4 vols. Lisbon, 1892—1902.

ويتناول الجزء الأول منه الفترة المبكرة من تاريخ جامعة كويمبرا ، التي تمتد من سنة ١٢٨٩ إلى سنة ١٥٥٥ م.

Fuente, V. de la, Historia de las universidades, colegios y demàs establecimientos de ensenanza en Espana. 4 vols. Madrid, 1884—89.

Reynier, G., La vie universitaire dans l'ancienne Espagne. Paris, 1902.

ويتناول هذا الكتاب — أساسا — تاريخ جامعة سالامنكا .

(سابعا)

الجامعات الأوروبية الأخرى

Delannoy, P., L'université de Louvain. Paris, 1915.

Essen, L. van der, Une institution d'enseignement supérieur sous l'ancien régime : l'université de Louvain (1425—1797). Brussels & Paris, 1921.

Essen, L. van der, & Others, L'université de Louvain à travers cinq siècles : études historiques. Brussels, 1927.

Noël, L., Louvain : 1891—1914. Oxford, 1915.

الفصل الثاني

أستاذ العصور الوسطى

الدراسات والكتب الدراسية :

الفنون السبعة الحرة ـ الكتب الدراسية فى الفترة المبكرة من التاريخ الوسيط ـ حركة إحياء التراث الكلاسيكى فى القرن الثانى عشر : صحوتها ثم خبوها ـ الاهتمام بالمنطق والقانون والبلاغة وغيرها من الدراسات المستجدة ـ أرسطو ومؤلفاته ـ فن تدوين المكاتبات والرسائل وأهميته ـ لم تعرف جامعات العصر الوسيط المعامل ، ولم يدرس فيها التاريخ والعلوم الاجتماعية ـ مناهج الآداب ـ صعوبة دراسة اللاهوت ـ دراسة الطب ـ الدراسات القانونية و« مجموعة قوانين جستنيان المدنية » ـ أهمية دراسة القانون الكنسى ـ مرسوم جراشيان ولواحقه ـ الكتب المدرسية والمراجع العامة ـ عدم الحاجة إلى المكتبات الجامعية .

التعليم والامتحانات :

أساتذة العصور الوسطى وميكانيكية العلم والتعليم ـ بطرس ابيلارد ـ جون أوف ساليسبورى ـ برنارد أوف كليرفو ـ أساتذة النحو والمنطق والعلوم الكلامية ـ طريقة التدريس وأسلوبه ـ قاعات الدراسة والمحاضرات ـ الامتحانات .

النظام الجامعى والحريات.

المركز الاجتماعى لأساتذة العصر الوسيط ـ مفهوم العصر الوسيط عن الحقيقة وحرية الفكر والتعبير عن الرأى ـ الاجتهاد العقلى وموقف الكنيسة اللاتينية منه ـ الفلسفة واللاهوت ، ومدى التدخل فى حرية العلم والتعليم .

تناولنافى الفصل السابق جامعة العصور الوسطى باعتبارها نظاما من الأنظمة ؛ ونتناولها الآن بصفتها مركزا ثقافيا. ويتضمن هذاالفصل عرضا لمناهج الدراسة فى الجامعة ، وطرق التدريس فيها، وأحوال أساتذتها وحرياتهم.ويلاحظ أن عنصر الاستمرار الذى يتضح تماما فى الأنظمة والقوانين ، نجده فى الغالب أقل وضوحا بالنسبة لفحوى التعليم ومضمونه. ومع ذلك فإن الاتصال هنا غير متقطع ؛ ثم إن أوجه الخلاف بين جامعات العصور الوسطى والأحوال السائدة فى الجامعات الحديثة أقل مما نظن أو نعتقد .

هذا ، وتتضمن الأسس التى ارتكز عليها التعليم فى العصور الوسطى المبكرة ـ حسبما رأينا ـ ما يطلق عليه إسم الفنون السبعة الحرة ، ثلاثة منها هى الأجرومية والبلاغة والمنطق وتكون ما يعرف بإسم «المجموعة الثلاثية» trivium . أما الفنون الأربعة الباقية فهى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى وتعرف بإسم «المجموعة الرباعية» quadrivium ، وكانت المجموعة الأولى هى الأكثر أصالة ، وبها يبدأ الطالب دراسته. بينما تعتبر المجموعة الثانية أساسية بمافيه الكفاية. وفى فترة انحلال العلم والتعليم القديم كان عددهذه الفنون محدودا،وكذلك كان الحال بالنسبة لمضمونها الذى كان يخضع لمقاييس ثابتة. وقد وصلت هذه الآراء والأفكار برمتها إلى العصور الوسطى بصفة خاصة فى مؤلف وضعه شخص يدعى مارتيانوس كابيلا [1] Martianus Capella ، وهو يرجع إلى أوائل القرن الخامس الميلادى . وقد تم ضغط المعرفة فى الفترة المتأخرة من العصر الكلاسيكى القديم حتى غدت جافة يابسة

(١) من رجال العلم المعروفين فى تلك الحقبة من الزمن ، ولمزيد من المعلومات عنه ، أنظر كتاب LaMonte, The World of the Middle Ages, pp. 81, 84.
أنظر أيضا ما سبق ، ص ٤١ و ٤٥ و ٤٧ من القسم الأول من هذا المجلد [المترجم] .

بما يتلاءم والمدارك المحدودة وقتها . وكانت هذه العصور تعد كذلك دون وعى منها للأزمنة التالية تلك الرزم الصغيرة المناسبة التى اعتبرت بمثابة القربان المقدس الذى يقدم للمشرفين على الموت viaticum ، وذلك خلال الأيام العاصفة من العصور المظلمة . وكانت تلك المعرفة كلها تقريبا موجودة فى عدد قليل من النصوص المختارة التى انتقل عن طريقها علم العالم القديم إلى العصر الوسيط . وبلغت الثقة فى هذه الكتيبات درجة كبيرة حتى أن قائمة بأسماء تلك التى كانت تستخدم فى أى عصر تمدنا بفهرس دقيق يكشف عن اتساع دائرة المعرفة ، كما يكشف عن طبيعة التعليم فى حد ذاته . وكان ذلك العصر هو عصر الكتاب بكل ما فيه من تقدير للكتب الأصلية الموثوق بها ، وقد نهج فى تعليمه نهج الكلمة المكتوبة .

كانت الكتب الدراسية فى المدارس الديرية والكاتدرائية فى الفترة المبكرة قليلة العدد وبسيطة فى محتوياتها ، وبخاصة كتب أجرومية اللغة اللاتينية وقواعدها لكل من دوناتوس Donatus وبريسكيان Priscian (١) ، بالإضافة إلى عدد من كتب

---

(١) دوناتوس وبريسكيان من المتخصصين فى أجرومية اللغة اللاتينية ، عاش أولهما فى القرن الرابع بينما عاش الثانى فى القرن الخامس . وقد تركا لنا عددا من المؤلفات فى أجرومية اللغة اللاتينية ، وهى تتضمن القواعد الأساسية لهذه اللغة مع شرح وتفسير لها بالعديد من المقتطفات من إنتاج الكتاب اللاتين القدامى أمثال فرجيل وهوراتيوس وأوفيد وشيشرون وجوفينال وسالوست وغيرهم . ويكفى القول إن الاقتباس من هؤلاء الكتاب فى مؤلفات كل من دوناتوس وبريسكيان جعل أسماءهم ، إن لم تكن كتاباتهم أيضا ، مألوفة لأجيال عديدة من الطلبة فى مدارس العصور الوسطى . أنظر عن ذلك LaMonte, op. cit., pp. 75, 82, 572 ; Painter, A History of the Middle Ages, p. 467. [المترجم].

القراءة الأولية . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا بالنسبة لكتيبات بوثيوس[1] Boethius فى المنطق والحساب والموسيقى ، فضلا عن كتاب صغير فى البلاغة وآخر فى المبادىء الأولية فى علم الهندسة ، ومجمل علم الفلك الذى وضعه بيده الوقور[2] Bede . ولم يكن هناك قطعا مؤلفات يونانية . وقد أخذت هـذه

(١) عن بوثيوس وإنتاجه ، أنظر ماسبق ، ص ٤٠ـ٤٣ من القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم] .

(٢) ولد بيده سنة ٦٧٣ م وتوفى سنة ٧٣٥ م عن ٦٢ عاما . وهو أحد تلامذة بيسكوب ، وقد تثقف على يديه وقرأ تآليفه الدينية والعلمية التى كان قد أحضرها معه من روما عند مقدمه إلى انجلترا . وقد جملته هذه الثقافة فوق مستوى معاصريه ومفكريهم ، وأصبح يمثل خلاصة النتاج الفكرى لغرب اوروبا فى الفترة الواقعة بين زوال الحضارة الرومانية القديمة عقب غزوات البرابرة وقيام النهضة الكارولنجية بإحياء الامبراطورية الرومانية أيام شارلمان . والمعروف أن بيده قضى حياته فى أحد الأديرة الإنجليزية وهو دير جارو منكبا على القراءة والدراسة والتحصيل وتربية النشىء . وامتاز بحاسة تاريخية أصيلة لم تكن معروفة فى هذا الزمن المبكر، حيث لم يكن من السهل التمييز بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الخيالية . وقد ألف كتابا هاما فى التاريخ الكنسى للأمة الانجليزية تناول فيه تاريخ الجزيرة وشعبها فى العصر السكسونى وانتشار المسيحية فيها . ومما يذكر أن كتابه هذا تضمن بعض الآراء الجديدة فيما يتعلق بتقدم الجنس البشرى عن طريق العلم والدين . ويعتبر بيده بحق أول مفكر انجليزى حر استطاع أن يخرج من ظلمات العصور الوسطى وأن يتحدث إلى العالم الجديد فى موضوعات شتى متنوعة وفى دقة ووضوح كبيرين . أنظر عن ذلك لغاير حسان سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ٤٣ و ٤٨ و ٤٩ . راجع أيضا : Woodward, E. L., History of England (London, 1957), pp. 25, 26; Whitelock, The Beginnings of English Society, pp. 11 - 16 ; Stenton, Anglo - Saxon England, pp. 10 f., 13 ff., 23 f., 185 ff. — أنظر أيضا ماسبق ، ص ٥١ـ٥٥ من القسم الاول من هذا المجلد . [المترجم] .

المجموعة الضئيلة من الكتب فى مختلف الفنون فى النمو والازدياد ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نهضة القرن الثانى عشر التى أضافت إلى الحصيلة والمعرفة العلمية فى الغرب كتاب الفلك لبطليموس Ptolemy وكل أعمال اقليدس Euclid وعلم المنطق لأرسطو (١) . هذا ، ونجد فى نفس الوقت أنه تحت فرع الأجرومية — أى قواعد اللغة — كان ثمة دافع قوى نحو قراءة وتعلم اللغة اللاتينية القديمة .

وتستحق حركة إحياء التراث الكلاسيكى هذه الذكر ، خاصة وأنها ليست معروفة بالقدر الكافى . وقد تركزت فى المدارس الكاتدرائية مثل مدرسة شارتر ومدرسة اورليانز حيث لاحت روح الدراسات الإنسانية فى شكل دراسة متقدة الحماس للكتاب القدامى ، وفى إنتاج الشعر اللاتينى الذى يمتاز حقا بجودته الفائقة ، وقد ذكر علماء الدراسات الإنسانية المتأخرين أن بعض كتابات أحد اولئك الشعراء وهو الأسقف هيلدبرت أوف لمان (٢) Hildebert of Le Mans كانت خاطئة غير صحيحة بالنسبة « للتراث الحقيقى القديم » . غير أن هذه الحركة اللامعة الخاصة بإحياء التراث الكلاسيكى القديم لم تعمر طويلا ، فقد تم القضاء عليها وهى لاتزال فى بدايتها نتيجة انتصار المنطق والدراسات التى تتميز بأنها

(١) هم ثلاثة من علماء العصر الكلاسيكى القديم ، أولهم بطليموس الإغريقى وله نصوص فى علم الفلك ، وثانيهم إقليدس وهو من علماء الرياضة ، وثالثهم الفيلسوف أرسطو . أنظر عن ذلك LaMonte, op. cit., pp. 238 f., 430, 560, 572. [المترجم]

(٢) هيلدبرت أوف لافاردين أسقف ليمان والذى أصبح بعد ذلك رئيس أساقفة تورز ، وهو من كبار المتحمسين لتراث الكلاسيكى القديم ، وممن أنتجتهم مدرسة شارتر الفرنسية التى اشتهرت بتدريسها للفنون السبعة الحرة وبخاصة الأجرومية والبلاغة . أنظر عن ذلك Painter, op. cit., pp. 447 f., 467. [المترجم] .

عملية أكثر من التراث القديم مثل القانون والبلاغة . وفى أواخر القرن الثانى عشر تناول جون أوف ساليسبورى[1] رجال المنطق المعاصرين له بالذم والقدح ، كما هاجم معلوماتهم السطحية غير المتعمقة فى الآداب . ولقـــد اختفت الدراسات الأدبية اختفاء تاما فى سياق الدروس الجامعية فى القرن الثالث عشر . وعندما وضع شاعر فرنسى يدعى هنرى داندلى Henri d'Andeli حوالى عام ١٢٥٠م قصيدته المسماه « معركة الفنون السبعة » « Battle of the Seven Arts » ، كانت الدراسات الكلاسيكية قد تقادم عليها العهد وهى تحارب فى معركة خاسرة ضد الدراســات المستجدة المستحدثة . وتعبر عن ذلك إحدى القصائد التى جاء فيها :

المنطق اتجه إليه الطلبة ،
أما الاجرومية فقد تناقص طلابها .
. . . . . .
لقد تعالى القانون المدنى فى أبهة ،
وسار القانون الكنسى متشامخا ،
والإثنان يتصدران كافة الفنون الأخرى .

وإذا كان إهمال كل من الآداب الكلاسيكية القديمة والأدب الشعبى يعتبر من الملامح المثيرة للدهشة فى سياق الدروس الجامعية فى دراسة الفنون ، فثمة حقيقة ماثلة ومثيرة للغرابة هى الأخرى ، ونعنى بها التركيز على المنطق أو علم اللسان . وكانت أقدم الأنظمة والقوانين الجامعية ، ألا وهى قوانين جامعة باريس الصادرة

---

(١) حول جون أوف ساليسبورى ، أنظر ، ماسبق ، ص١٠٦ وح١ من القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم] .

عام ١٢١٥م، تنص على الرجوع إلى كل مؤلفات أرسطو فى المنطق . وقد ظلت تلك المؤلفات خلال القرون الوسطى بمثابة العمود الفقرى فى مجموعة مواد الفنون المختلفة ، بحيث كان بوسع [الشاعر الإنجليزى] تشوسر Chaucer أن يتحدث عن دراسة المنطق باعتبارها أمراً ملازما للمواظبة على الحضور والاستماع داخل الجامعة (١) . وهذا صحيح إلى حد ما ، لأن المنطق لم يكن مجرد موضوع كبير جدير بالدراسة وقائم بذاته فحسب ، ولكنه نفـــذ إلى الموضوعات الأخرى باعتباره طريقة وأسلوبا ومنهجا . فاضفى على الفكر فى العصر الوسيط رنينا معينا وطابعا مميزاً . وقد أصبح علم القياس المنطقى والمناظرات والمحاورات ، ووسائل إدارة دفة النقاش ، سواء أكان ذلك فى صالح رسالة بعينها أم ضدها — أصبح كل هذا هو المظهر العقلى لذلك العصر فيما يتعلق بالقانون والطب كما هو الحال بالنسبة للفلسفة واللاهوت . وكان المنطق المعنى ، بلا شك ، هو منطق أرسطو . وسرعان ما تلا ذلك دراسة الأعمال الأخرى لهذا الفيلسوف التى تتابع الواحد منها تلو الآخر ، بحيث وجدنا أيضا مواداً مثل علم الأخلاق Ethics وعلم الميتافيزيقيا أى ماوراء المادة Metaphysics ، تدخل ضمن مناهج الدراسة فى جامعة باريس فى عام ١٢٥٤ م . فضلا عن مختلف المقالات والرسائل التى تتناول العلوم الطبيعية التى كان محرما على الطلبة دراستها فى بداية الأمر : وقد غدا أرسطو فى نظر

---

(١) استشهد المؤرخ هاسكنز فى كتابه ببيت من الشعر قاله جوفرى لتشوسر باللغة الانجليزية القديمة، وهو "That un-to logik hadde longe y - go." وترجمته « ظل (أى الطالب) مدة طويلة يدرس المنطق » . وهذا البيت هو البيت رقم ٢٨٦ من مقدمة لتشوسر لقصص كانتربرى المعروفة [المترجم] .

[الشاعر الإيطالى] دانتى اليجييرى (١) « أستاذاً لأهل العلم والمعرفة » . ويرجع الفضل فى ذلك إلى منهاجه الشامل وعلمه الغزير ومعرفته الواسعة . ولما كان أرسطو هو « أبا المعرفة المستمدة من المطالعة فى الكتب ، وعميد الشراح والمفسرين » ، فليس هناك كاتب آخر غيره يمكن أن تلجأ إليه العصور الوسطى التى كانت تقدر الكتاب المدرسى وتحترم العرف الجارى فيما يتعلق بالفكر السائد . وقد تم شرح وتفسير المذاهب والأفكار التى بدت خطراً على العقيدة ، مثل عدم فناء المادة ، أى أزليتها وخلودها . كما تم عن طريق هذا الفيلسوف الوثنى إبتداع أساليب ومذاهب لها قدرها ووزنها فى علم اللاهوت . وقد توارت عن الأنظار كل الأفكار ذات الطابع الأدبى عندما أصبح كل شىء يعتمد على الجدل والمحاجاة دون سواهما (٢) .

---

(١) ولد دانتى سنة ١٢٦٥ م وتوفى سنة ١٣٢١ م ، وهو من أعظم العباقرة الذين أنجبتهم العصور الوسطى . ولسنا نعرف الكثير عن سنى حياته الأولى ، وكل ما نعرفه أن وطأة الحرمان التى قاساها فى الصغر قد تركت آثارها فى مؤلفاته ومنها كتابه « الحياة الجديدة » وملحمته الشعرية الرائعة « الكوميديا الإلهية » . وقد انكب دانتى على الدراسة والاطلاع ، كما تشبع بفلسفة توما الأكوينى وتاريخ أوروسيوس وملاحم فرجيل وستاتيوس . وهو يعتبر بداية لحركة النهضة العلمية التى كانت إيذاناً بنهاية العصور الوسطى بعقلها وفلسفتها وأفكارها وبداية عصر جديد بأفكار ومبادىء جديدة مغايرة ، ونعنى بذلك عصر النهضة . أنظر عن ذلك Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance (London, 1944), p. 49 f. ; Coulton, Medieval Panorama, p. 207 ff. ; Hay, D., The Italian Renaissance in Its Historical Background (Cambridge, 1961), pp. 55 ff., 74 ff. [المترجم]

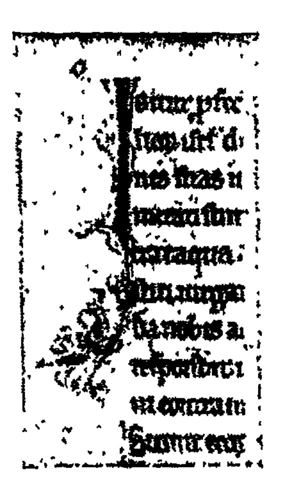
(٢) فيما يتعلق بأثر أرسطو والنهضة الأرسطالية الجديدة ، وفيما يختص بعهد التراجمة وانتقال التراث اليونانى إلى أوروبا المسيحية ، أنظر عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ٨٧ — ٩٢ . [المترجم] .

وإذا كانت دراسة آداب اليونان والرومان القدماء قد اقتصرت على نماذج ومنتخبات من الكتب المخصصة لإيضاح قواعد اللغة ، فقد كان مصير البلاغة مختلفا بعض الشيء ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تطبيقاتها العملية . ولم تتميز الحيـــاة الثقافية فى القرون الوسطى بالمقدرة التلقائية الذاتية أو الطاقة الواسعة غير المحدودة فى مجال التعبير الأدبى . وقليل هم الذين تمتعوا بقدرتهم على الكتابة ، وعدد أقل هم اولئك الذين كان بوسعهم تحرير خطاب ما . وأما الـكتاب المحترفون ومسجلو العقود الذين قام على عاتقهم العبء الأكبر فيما يتعلق بتدوين المراسلات فى العصر الوسيط ، فقد ربطوا بين فن تدوين الرسائل فى ذلك العصر وبين فن البلاغة التقليدى الشائع المستقر . وكانت المدارس والدواوين هى المكان الذى يتعلم فيه المرد كل مايتعلق بتحرير المراسلات وغير ذلك من الأعمال الرسمية . هذا ، وقد تنقل العديد من الأساتذة الذين كان يطلق عليهم باللاتينية لفظ dictatores من مكان إلى آخر وهم يقومون بتدريس هذا الفن القيم « الذى كان رجال الدين فى أمس الحاجة إليه ، والذى كان مناسبا للرهبان ومشرفاً للعلمانيين » ، حسبما جاء على لسان أحد رجال البلاغة .

وحوالى القرن الثالث عشر وجد مثل هؤلاء الأساتذة أماكن لهم فى بعض الجامعات ، وبخاصة فى ايطاليا وجنوب فرنسا . وقد أعلنوا عن بضاعتهم بأسلوب يمكن مقارنته بالمطالب التى يقتضيها سير العمل فى العصر الحديث من حيث كونه مختصراً وعملياً ، وبدون إضاعة الوقت عبثاً فى الحديث عن كتاب العصر الكلاسيكى الذين يفوقونهم . بل يجب أن يكون كل شيء جديداً سريعاً جاهزاً فى أى لحظة ، ومعداً للتطبيق والاستخدام فى نفس اليوم إذا اقتضت الضرورة . ومن قبيل ذلك

أن أستاذاً فى [جامعة] بولونيا أخذ يستخف بدراسة شيشرون(١) ، قائلا بأنه لم يكن بوسعه أن يتذكر أنه قرأ له ، وأخذ يعد بتدريب تلاميــذه على كتابة

لوحة رقم (٦)



خطاب مزخرف

ويلاحظ أن النساخ كانوا يزخرفون بعض الخطابات وبخاصة بداية الصفحات ومقدماتها مما يشجع على قراءتها . وكان يستخدم اللون الأحمر عادة فى زخرفتها . [مخطوطة لاتينية برقم ١٦ ٧٤٣ ــ ٤٦ بالمكتبة الأهلية بباريس] .

---

(١) حول شيشرون وسيرته وأعماله ومدى تأثر العصر الوسيط به ، أنظر المراجع التالية Cochrane, Christianity and Classical Culture, p. 38 ff.; Barrow, R.H., The Romans (Aylesbury & London, 1955), pp. 24, 69 ff., 155 ff. et sqq.; Wheeler, M., Rome Beyond the Imperial Frontiers (London, 1955), p. 15; Carcopino, J., Daily Life in Ancient Rome (Aylesbury, 1956), pp. 33, 50, 80, 1 20 f. et sqq. [المترجم] .

الرسائل بكافة أنواعها ، وتحرير المستندات الرسمية التى كان يطلب من مسجلى العقود والسكرتاريين وقتذاك تحريرها . وقد تخصص أمثال هؤلاء المعلمين ، كما سنرى فى الفصل التالى ، فى تدوين خطابات الطلبة ، وبخاصة الالتماسات التى تكشف عن الحذق والبراعة واللباقة من أجل الحصول على المال من الوالدين . وسرعان ما وضح للعيان فائدة اولئك المدرسين والحاجة العملية إليهم . ويقول أحد الكتاب « لنتخذ لنا مبحثاً اليوم مفاده أن تلميذاً فقيراً نابهاً يدرس فى جامعة باريس فى حاجة إلى أن يكتب إلى والدته فى طلب المصاريف الضرورية » ، أفلا يكون كل مستمع إليه واثقاً من أنه قد عثر فى هذا المكان على أقل تقدير على « بغيته وضالته المنشودة التى يسعى إليها ؟ » .

هذا ، وقد يستدعى أيضاً أستاذ البلاغة لكتابة مشروع لائحة للجامعة على غرار المنشور الدورى الصادر عام ١٢٢٩م بمعرفة أساتذة جامعة تولوز الجديدة، الذى أوضح تفوقها على جامعة باريس ، حيث يقوم اللاهوتيون بالتدريس من فوق المنابر وإلقاء العظات عند أركان الشوارع . أما المحامون فإنهم يمجدون جستنيان ، والأطباء يرفعون من قدر جالينوس[١] Galen . وهذا ما يمكن أيضاً أن يقال بالنسبة لأساتذة الأجرومية والمنطق والموسيقيين بآلاتهم الوترية . أما

---

(١) ارتكز الطب أساسا وقتذاك على أعمال جالينوس التى وصلت الى العالم اللاتينى عن طريق جيرار الكريمونى Gerard of Cremona الذى ذاع صيته فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر ، والذى توفى سنة ١١٨٧ . وقد قام جيرار بترجمة حوالى ٧١ كتابا معروفا فى الطب والفلك والرياضيات وغيرها ؛ أنظر من ذلك LaMonte, op. cit., pp. 559, 561, 572. [المترجم] .

فى باريس فقد حرم إلقاء محاضرات عن كتب الفلسفة الطبيعية ، وانخفضت الأسعار ، بينما الجمهور ودود متضامن . وأصبح الطريق الآن ممهداً باقتلاع جذور الهرطقة[١] التى حلت محلها أرض تفيض لبنا وعسلا ، وتربع باخوس [إله الخمر] على عرش حقول الكرم ، بينما جلست سيرس Ceres [إلهة الحنطة والحراثة] فى الحقول مستمتعة بالجو الهادىء الذى يتوق إليه كبار الفلاسفة فى ظل حرية تامة يتمتع بها كافة الأساتذة والطلاب . فمن بوسعه مقاومة مثل هذه الدعوة الصادرة من الجنوب ؟

وعلى الرغم من تنزيل الأجرومية والبلاغة إلى مرتبة ثانوية ، وعلى الرغم من أن الدراسات الخاصة بالمجموعة الرباعية لم تلق سوى النزر اليسير من العنـاية والاهتمام — إلا أن مواد الفنون كانت أساساً دروساً فى المنطق والفلسفة مضافاً إليهما العلوم الطبيعية بالقدر الذى يكفى لاستيعاب « كتب أرسطو فى الطبيعة » ، وذلك عن طريق أسلوب المطالعة المدرسية المتبع فى العصور الوسطى . وكانت الجامعات خالية من المعامل ، وظلت هكذا حتى نهاية العصور الوسطى بفترة طويلة . كذلك لم تعرف الجامعات مواد التاريخ والعلوم الاجتماعية إلا فى فترة متأخرة . وكان استخدام الشدة هو القاعدة المتبعة فيما يتعلق بالتمرين والتدريب على مجموعة قليلة من الكتب عليها آثار الإبهـام واضحة من كثرة الاستخدام وتقليب الصفحات . هذا ، وتؤدى دراسة الفنون ، عادة ، إلى الحصول على

---

(١) حول حركات الهرطقة فى العصور الوسطى ، أنظر Turberville, A. S., Mediaeval Heresy and the Inquisition (London, 1920), pp. 18 ff, 145 ff. ; Coulton, G. G., The Inquisition (London, 1929), p. 5 ff. [المترجم] .

درجة الماجستير خلال ست سنوات ، بينما يحصل الطالب على درجة البكالوريوس فى فترة ما أثناء دراسته الجامعية . وكان الحصول على براءة الجامعة فى الآداب يعنى الإعداد العام للدراسة المتخصصة اللازمة دوما لعلم اللاهوت والمألوفة لإعداد المحامين والأطباء . وهذا تقليد سليم لا غبار عليه ، لم يوجه إليه العالم الأمريكى إلا اهتماما ضئيلا للغاية .

وخلافا للفكرة الشائعة ، فقد كان طلبة اللاهوت قليلى العدد نسبيا فى جامعات العصور الوسطى ، لأن التدريب والتمرس على المسائل اللاهوتية التى تتيح لصاحبها الدخول فى سلك الكهنوت لم يأتيا إلا مع حركة الإصلاح الدينى المضادة.[١] وكانت شروط الالتحاق صعبة قاسية ، كما كان منهج الدراسات اللاهوتية نفسه طويلا . أما الكتب فكان ثمنها باهظا . حقا لقد كانت هذه الكتب فى مجموعها هى الكتاب المقدس ، وكتاب الجمل Sentences لبطرس اللبباردى .[٢] وكان الكتاب

---

(١) حول حركة الإصلاح الدينى المضادة Counter - Reformation ، أنظر Cragg, G. R., The Church and the Age of Reason (Bristol, 1960), pp. 99 f., 212, 257, 262. [المترجم] .

(٢) هو تلميذ ابيلارد ، وقد اتبع مذهبه باستخدام المنطق . وكان يشغل وظيفة أسقفية باريس ، وقد قام بنشر تعاليم أستاذه ومبادئه التى ضمنها فى كتابه المعروف باسم « كتاب الجمل » الذى غدا مصدرا رئيسيا فى دراسة علم اللاهوت فى الفترة الباقية من العصر الوسيط . ويعتبر بطرس اللمباردى — بحق — أول قادة الفكر الفلسفى النقدى فى العصور الوسطى . أنظر كسولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ص ٢٢٤ و ح ١ . راجع أيضا ، ماسبق ، ص ١٠٣ و ح ١ من القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم]

المقدس خلال القرون الوسطى يتألف من عدة مجلدات ، وبخاصة عندما تلحقه شروح وتعليقات . وكان نسخ هذه المجلدات باليد عملية مضنية باهظة التكاليف . وثمة طالب طموح فى جامعة اورليانز كان بحاجة إلى المال لشراء الكتاب المقدس والبدء فى دراسة علم اللاهوت ، نصحه والده بقوله إنه من الأفضل له أن يتجه نحو مهنة تدر عليه الربح ، وإنه فى أحسن الظروف عليه أن يجأر بالشكوى إلى رؤساء جامعة باريس من أن الطلبة يدرسون علم اللاهوت فى سن متأخرة ، الأمر الذى يجب أن يكون « توأم شبابهم » .

وبالمثل كان الطب يدرس فى الكتب وبخاصة فى مؤلفات جالينوس وهيبوقراط ، مع ترجمة العرب لها وشروحهم وتعليقاتهم عليها ، ومن بين هؤلاء الطبيب العربى ابن سينا (١) الذى تبوأ المكانة الأولى [فى جامعات الغرب] بعد القرن الثالث عشر . وفى الحقيقة كان ابن سينا شديد الارتباط بالشرق ، لأنه متأخرا

---

(١) اشتغل ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨ هـ/٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) بالطب وبرع فيه منذ شبابه ، ترك عدة مؤلفات فى هذا الميدان ، من بينها « القانون » وهو موسوعة من خمسة كتب ضمنها كل ما يتعلق بالطب ، ولم يترك بابا إلا طرقه وأفاض فيه . وإلى جانب « القانون » كتب عدة رسائل فى الطب مثل رسالة فى الادوية القلبية ، وأخرى فى النبض ، وثالثة فى القولنج ، وغير ذلك . وله أيضا أراجيز طبية ، منها « الارجوزة فى الطب » التى تبلغ ألف بيت اختصر فيها التعاليم الطبية . ولعل أشهر تآليفه على الاطلاق هو « القانون » الذى يشتمل على كل مايحتاج إليه الاطباء ، فكان بذلك أهم مرجع فى العصر الوسيط ، وأصبح يدرس فى جامعات الغرب . وقد قام جيرار الكريمونى بترجمة « القانون » فى طليطلة إلى اللغة اللاتينية . كذلك ترجمت له رسالة « الادوية القلبية » فى القرن الثالث عشر و« الارجوزة فى الطب » . ويكفى أن جامعات أوروبا اتخذت « القانون » مرجعا أساسيا لتعليم الطب . وكانت جامعة بولونيا هى أول من اعترف به رسميا كمرجع فى تدريس الطب فى القرن =

فى عام ١٨٨٧ م كان غالبية الأطباء المواطنين فى عاصمة الفرس « لا يعرفون عن الطب شيئا سوى طب ابن سينا » . (١) وإذا استثنينا بعض التقدم الذى أحرزه علما التشريح والجراحة فى عدد من مدارس الجنوب [الأوروبى] مثل بولونيا ومونتبلييه ، فلم تضف جامعات العصور الوسطى جديدا إلى المعرفة الطبية ، لأنها لم تكن من بين موضوعات الدراسة التى تتلاءم ومنهاجهم السائد من حيث التمسك بحرفية اللفظ والقياس المنطقى (٢) .

= الثالث عشر ، حيث أنشئت فى تلك الجامعة عام ١٢٦٠ م كلية للعلوم ، ومنذ ذلك الحين بدأ « القانون السينوى » يغزو جامعات أوروبا ومدارسها حتى أصبح يمثل نصف المقررات الطبية فى سائر الجامعات الاوروبية فى أواخر القرن الخامس عشر . وظلت موسوعة « القانون » هذه تتربع على عرش الجامعات حتى أوائل القرن السابع عشر عند مولد الطب القائم على المناهج العلمية الحديثة . أنظر احمد فؤاد الاهوانى : ابن سينا (القاهرة ١٩٥٨) ، ص ٢٧—٣٠ ؛ راجع أيضا صفحات ٣١ — ٣٣ و ٨٣ — ٨٤ من نفس الكتاب ، وكذلك Rosenthal, E. I. J., Political Thought in Medieval Islam (Cambridge, 1958), pp. 4 f., 19, 39, 116, 118, 132, 143 - 157 et sqq. ; Hitti, P. K , History of the Arabs (London, 1964), pp. 367-368 et sqq. ; Arnold, T. & Guillaume, A. (eds.), The Legacy of Islam (London, 1952), pp. 254 - 260, 350 - 354 et sqq ; Mahmud, S. F., The Story of Islam (Karachi, 1959), pp. 113, 128. [المترجم]

(١) Browne, E. G., Arabian Medicine (1921), p. 93.

(٢) قامت النظرية الكاثوليكية فى العصور الوسطى حول عصمة الكتاب المقدس من الخطأ ، والتمسك بالمعنى الحرفى للأحداث وقبول الأوصاف كما وردت فى الكتاب المقدس من حيث حرفيتها وفى أدق معناها . وعلى هذا كان الاتجاه نحو الرمزية أو الاجتهاد والتفسير على تمسك الناس بالمعنى الحرفى للأحداث ضئيلا للغاية فى العصر الوسيط . وقد عبر عن ذلك =

أما فيما يتعلق بدارسة القانون فتعتبر « مجموعة قوانين جستنيان المدنية » المعروفة باسم Corpus Juris Civilis هى أساس التعليم كله ؛ ذلك أن القانون المألوف فى اوروبا فى العصور الوسطى لم يكن على الإطلاق موضوعا لدراسة جامعية . وكان الكتاب الرئيسى فى هذا الصدد هو « شرح القوانين » أو « الديجست » Digest الذى يلخص ذروة ما بلغه علم القانون الرومانى . وقد أدت سيادة أساتذة القانون المدنى فى العصر الوسيط فى كتاب « شرح القوانين » إلى شهرتهم وتفوقهم . لقد أتوا بالمصادر المتعلقة بمجموعة القوانين المدنية كلها حيث تناولوا كل جملة أو عبارة واردة فيها بالشرح والتعليق فى عناية وتدقيق . وبذلك أماطوا اللثام عن عقلية قانونية تمتاز بصفائها ودقتها ، على غرار الفلاسفة المدرسيين فى القرون الوسطى . وبعد كل ماتقدم ، فإن « القانون إنما هو شكل من أشكال الفلسفة المدرسية فى العصر الوسيط » . غير أنه إذا كان الأسلوب المدرسى فى الفلسفة قد خفف من قبضته فى كثير من جامعات العصر الحديث ، إلا أن أعمال المفسرين والشراح التى ترجع إلى العصر الوسيط لاتزال باقية . وفى ذلك يقول راشدال (١) : « يمثل العمل فى مدرسة بولونيا فى كثير من النواحى والمجالات أروع وأفضل ما أنتجه الفكر الاوروبى الوسيط . وتمتاز عقلية العصور الوسطى ، فى الحقيقة ، باستعداد طبيعى ينم عن الرغبة فى دراسة تراث قانونى موجود بالفعل

= خير تعبير لاهوتى من مؤيدى الفكرة السكلسية وقتذاك هو القديس توما الأكوينى (١٢٢٠ — ١٢٧٤م) . أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٥٨ — ٦٠ . [المترجم] .

(١) Op. cit., vol. I, pp. 254 - 255.

والعمل على التوسع فيه . وإن اقتصار معرفة تلك العقلية بالماضى وبالعالم المادى المحسوس لم يكن، بحال ، عائقا أو حاجزا أمام سيادة علم يعنى بكل بساطة بعلاقات العمل وأمور الحياة اليومية . لقد اعتبر المشرعون والقانونيون مجموعة جستنيان مصدر ثقة يرجعون إليها . وكانت هذه أيضا هى نظرة اللاهوتيين إلى الكتابات المتعلقة بالقانون الكنسى والآباء الأول . وكذلك اهتم الفلاسفة بمؤلفات أرسطو التى كان من نعم الحياة أن حصلوا عليها بلغتها الأصلية . وكان المطلوب أن تكون تلك المؤلفات فى متناول الفهم فحسب ، وأن تكون الترجمة مطابقة للأصل بحيث يمكن الرجوع إليها والعمل على استكمالها ... وربما كانت أعمال أولئك الرجال هى الثمار الوحيدة التى حققها العلم خلال العصور الوسطى . هذا ، ويمكن أن يرجع إليهـــا فى العصر الحديث الأستاذ المتخصص فى أى فن من الفنون لقيمتها التاريخية فحسب ، أو لمجرد الأمل فى العثور على آراء وأفكار لها قدرها ووزنها ، أو لاحتمال الحصول على حلول للمسائل موضع الشك، أو بسبب الصعوبات والمشاكل التى لا تزال تواجه طلاب العلم فى العصر الحديث وتمسك بتلابيبهم . »

وقد كان القانون الكنسى وثيق الصلة بالقانون المدنى . كما كان ، لأسباب عديدة ، ضروريا لحصول الدارسين على درجة دكتور فى كلا هذين الفرعين Doctor utriusque juris ، (١) أو كما نقول « دكتور فى القانونين المدنى والكنسى » J.U.D. ، أو « دكتور فى القانون » LL.D. (٢) ولقد أدان اللاهوتيون القانون الكنسى بوصفه عملا « مدرا للربح » « lucrative » مما

(١) ترجمتها بالعربية « دكتور فى كلا القانونين » ، والمقصود بذلك القانون المدنى والقانون الكنسى [المترجم] .

(٢) أصلها باللاتينية legum doctor [المترجم] .

أدى إلى انصراف الطلبة عن العلم الحقيقى الأصيل الذى يؤدى بهم إلى المناصب الكنسية الرفيعة . وما أن حل القرن الثالث عشر حتى غدت كنيسة العصور الوسطى جهازا إداريا واسع النطاق بحيث احتاج إلى محامين لتولى شئونه . وكان أمام أى إنسان متفقه فى القانون الكنسى ومدرب تدريبا حسنا ، فرصة طيبه لبلوغ أعلى المراتب [الدينية]. (١) ولا غرابة فى أن القانون الكنسى قد اجتذب إليه الطموحين و الأثرياء بل والكسالى أيضا ؛ إذ قيل إن الطلبة الكسالى فى باريس كانوا يواظبون على حضور المحاضرات التى يلقيها أساتذة القانون الكنسى فى منتصف النهار أكثر من مواظبتهم فى المناهج الأخرى التى كانت تبدأ فى الساعة السادسة صباحا .وكان الكتاب المدرسى النموذجى فى القانون الكنسى هو مرسوم جراشيان Decretum of Gratian، مضافاإليه أوامر وقرارات ومراسيم البابوات اللاحقين ، وبخاصة المجموعة الكبرى التى أذاعها [البابا] جريجورى التاسع فى فى عام ١٢٣٤ م على الجامعات الرئيسية [فى الغرب] (٢) . وكانت الأساليب

---

(١) وردت هذه الأبيات باللاتينية فى الأصل الإنجليزى من كتاب هاسكنز (أنظر ص ٣٧ ح ٣) الذى قمنا بترجمته فى هذا القسم من المجلد ، وهى :

Sic heredes Gratiani
Student fieri decani,
Abbates, pontifices.

وترجمتها « وحتى يبلغوا المناصب الكبرى ويصبحوا رؤساء ومقدمى أديرة وأحبارا ، عليهم أن يدرسوا أولئك الذين جاءوا بعد جراشيان » [المترجم] .

(٢) كان البابا جريجورى التاسع قد أمر فى عام ١٢٣٤م بإعداد مجموعة رسمية جديدة للمراسيم البابوية نعرت باعتبارها امتدادا لنشاط المشرع الكنسى جراشيان . وقد أضيفت مجموعات أخرى مماثلة خلال القرن الرابع عشر . وكان آخر البابوات فى القرون الوسطى الذى أمر بذلك هو البابا يوحنا الثانى والعشرون فى سنة ١٣١٧ م. أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ، ص ٢٥١ . ولمزيد من المعلومات من جراشيان ومرسومه أنظر ، ماسبق، ص ١١١ـ ١١٢ من القسم الأول من هذا المجلد [المترجم]

المتبعة فى دراسة هذه النصوص هى نفس الأساليب المتبعة فى دراسة النصوص المتعلقة بالقانون المدنى . وقد نمت مجموعة المصادر الأدبية المكتوبة الخاصة بالقانون الكنسى التى ترجع إلى أخريات القرون الوسطى ، وكذلك الشروح والتفسيرات بالهوامش التى «أمدت الإنجيل والدكاترة العظام بالأهلية والاستحقاق» وفقا لقول [الشاعر الفلورنسى] دانتى اليجييرى .

وفيما يتعلق بالكتب المدرسية والمراجع العامة المطلوبة فى كافة هـــذه الموضوعات ، فقد أخذت الجامعة على عاتقها ضمان تزويد سريع تتوفر فيه الكفاية والدقة مع الثمن الزهيد ؛ ذلك أن تنظيم عملية تجارة الكتب كان من أقدم الامتيازات الجامعية وأكثرها أهمية . ونظرا لأن الكتب كانت باهظة الثمن ، فقد كانت — عادة — تؤجر مقابل ثمن معلوم يحسب بعدد الملازم فى كل كتاب ، وذلك بدلا من اقتنائها . وقد كانت عملية بيع الكتب — فى الحقيقة — مقيدة بقيود شديدة بهدف الحد من احتكار الأسعار ، فضلا عن الحيلولة دون تسربها خارج المدينة . وترجع أقدم تعريفة للكتب فى باريس إلى حوالى عام ١٢٨٦ م . وقد أثبتت فيها أسعار تأجير مائة وثمانية وثلاثين كتابا مختلفا . وبمرور الزمن أخذ كثير من الطلبة يتهافتون على اقتناء الكتب لأنفسهم ، كأن يقتنوا — مثلا — الكتاب المقدس أو بعض أجزائه على أقل تقدير ، أو يحصلون على جزء من كتاب « شرح القوانين » المعروف بالديجست ، وربمـــا يشترون « العشرين كتابا المغلفة باللون الأسود أو الأحمر » الوارد ذكرها فى قصيدة الشاعر تشوسر المسماة « متفقه من أكسفورد » Oxford clerk . وسواء أكان الطالب يستأجر الكتاب أم يمتلكه ، فقد كانت حركة الإمداد والتزويد واسعة ذات شأن . ومن بين آثار [جامعة] بولونيا أثر يمثل الطلبة وأمام كل منهم

كتاب . وطالما أن كل نسخة من هذه الكتب كانت تكتب باليد ، فقد كانت الدقة أمرا له أهميته الكبرى . وكان يوجد فى الجامعة مراجعون ومصححون لهذا الغرض ، حيث يقومون فى فترات دورية بفحص كافة الكتب المعدة للبيع فى المدينة . وكانت جامعة بولونيا ، فضلا عما تقدم ، تمون برصيد دائم من الكتب الجديدة ، استجابة للرغبة التى أبديت ومفادها أنه يجب على كل أستاذ أن يحول نسخة من محاضراته ومناقشاته إلى مكاتب النسخ لنسخها . وكانت الكتب الرئيسية فى القانون واللاهوت هى الثمرة الطبيعية لتلك المحاضرات الجامعية . هذا ، وبناء على عملية طلب التزويد التى كانت مركزة إلى حد بعيد فى الجامعات ، فليس مما يثير الدهشة أو الغرابة أن تصبح تلك الجامعات هى المراكز الرئيسية لتجارة الكتب وأعمال النسخ كما يتعين علينا أن نقول . وطالما كان بوسع الطلبة استئجار الكتب التى هم بحاجة إليها ، فقد غدت الحاجة إلى المكتبات أقل مما كنا نظن فى بادىء الأمر . وكان طبيعيا جدا ألا توجد مكتبة فى جامعة العصر الوسيط لفترة طويلة من الزمن . غير أنه ، بمرور الوقت ، كانت الكتب تعطى للطلبة ليطلعوا عليها ويفيدوا منها . وغالبا ما كان ذلك فى شكل هبات موقوفة على الكليات الجامعية ، حيث يمكن استعارتها خارجيا أو الاطلاع عليها فى الداخل. وحوالى عام ١٣٣٨ م كان كتالوج مكتبة السوربون ، وهى المكتبة الرئيسية فى باريس ، يضم ١٧٢٢ مجلدا ، ولا يزال عدد كبير منها موجودا فى المكتبة الأهلية فى باريس ، بينما تحتفظ كثير من معاهد أكسفورد وكلياتها بكتب ومصاحف كانت مكتباتها تقتنيها فى العصور الوسطى .

وإذا ما تركنا الكتب وبدأنا التحدث عن الأساتذة فإننا نلاحظ منذ أول وهلة أن العصور الوسطى قد أنجبت الكثير من الأساتذة الممتازين المرموقين .

وكانت ميكانيكية العلم والتعليم ووسائل تنظيمها لاتزال ، إلى حدما ، بسيطة ؛ فلم تكن تحوى شيئا فوق الطاقة . وعلى الرغم من ارتباطها الوثيق بالنصوص التى تدرس ، فقد كان هناك مجال واسع النطاق للعلم يبرز فيه شخصيته . وهكذا أصبح الكوين Alcuin ، قبل قيام الجامعات بوقت طويل ، هو الروح المحركة لإحياء العلم والتعليم فى بلاط الإمبراطور شارلمان وفى المدرسة الديرية فى مدينة تورز الفرنسية . كما أثار جربرت الريمى [١] Gerbert of Rheims الذى جاء بعده بقرنين من الزمان دهشة معاصريه لإفادته الحاذقة البارعة من تراث اليونان والرومان القدماء فيما يتعلق بدراسة البلاغة وعلم البيان ، وكذلك لقدرته على تدريس علم الفلك بطريقة ماهرة إن دلت على شىء فإنما تدل على ذكاء خارق ، حتى بدت كما لو كانت « إلهية ». [٢] هذا ، ومن العصر الذى بدأت فيه البذور الأولى للجامعات أمكن الحصول على فكرة واضحة ، إلى حد ما ، عن بطرس ابيلارد [٣] كأستاذ « يملأ حجرة الدراسة بجو مشوق خلاب. » فهو جسور مبتكر، لامع الفكر ، لاذع الجدل ، ممتلىء حيوية ونشاطا ، فضلا عن أنه كان قادرا على

---

(١) فيما يتعلق بكل من الكوين وجربرت الريمى، أنظر ماسبق، ص١٨ و ٥١ و ٥٤ ــ ٥٥ و٦١ ــ ٦٢ و٦٤ و٦٧ و ٧١ ــ ٧٢ و٧٥ و٧٧ و٨٣ و١١٤ و ١٥٥ من القسم الأول من هذا المجلد [المترجم] .

(٢) Richer of Reims, Histor., III, cc. 45—54. هذا، وتوجد مقتطفات مترجمة إلى اللغة الانجليزية فى كتاب هـ . تايلور Taylor, H. O., The Mediaeval Mind (Cambridge, Mass ,1925). [المؤلف] ولكتاب تايلور طبعة جديدة تقع فى جزءين (طبع نيويورك ، سنة ١٩٥٩) [المترجم] .

(٣) حول الفيلسوف بطرس ابيلارد وكتاب « نعم ولا » ، انظر ماسبق ، ص ٩٩ ــ ١٠٤ من القسم الأول من هذا المجلد [المترجم] .

إثارة عقول الجادين من الناس فيدفعهم إلى الضحك . » وتبدو طريقته المنظمة التى عرضها فى كتابه « نعم ولا » « Sic et non » شاملة لعناصر التأييد والجدل بهدف تفنيد وإثبات أو نفى ودحض قضايا ومسائل معينة ، وهى طريقة سرعان ماسار على منوالها جراشيان Gratian صاحب كتاب « التوفيق بين القوانين الكنسية المتعارضة » « Concord of Discordant Canons » ، ومعززاً إياها بكتاب « المنطق الجديد » لأرسطو . وبذلك أصبحت هى الطريقة السائدة فى المنهج المدرسى للقديس توما الأكوينى [1] St. Thomas Aquinas ، وظلت

---

(١) نعرف عن توما الأكوينى (١٢٢٠ — ١٢٧٤) أنه التحق فى سلك الرهبان الدومينيكان ولم يكن قد تجاوز العشرين من العمر . وقد تتلمذ على البرت الكولونى العظيم (١١٣٩ — ١٢٨٠م) ، وتنقل بين مدن ايطاليا وفرنسا إلى أن أصبح أستاذا فى جامعة باريس وهو فى سن الحادية والثلاثين . له مؤلفات عديدة ضمنها آراءه وأفكاره منها كتاب « شرح الأحكام » ورسالة « فى الوجود والماهية » اعتمد فيهما على كل من ابن سينا وابن رشد ، وكذلك « شرح الأسماء الإلهية لديونيسيوس » و« المجموعة الفلسفية » و« الشرح على أرسطو » ورسالة « فى وحدة العقل رداً على الرشديين » وأخرى « فى أزلية العالم رداً على المتذمرين » ، ثم كتابه الضخم المعروف باسم « المجموعة اللاهوتية » الذى لخص فيه مؤلفاته السابقة . أنظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط (القاهرة ١٩٥٧) ، ص ١٤٤ — ١٧٧ ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٥٨ وج ١ و٦٣ و ٢٢٥ وما يليها . أنظر أيضا Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History (New York, 1959), p. 116. هذا ، ويوجد عرض ممتاز لسيرة توما الأكوينى وفلسفته ومؤلفه « المجموعة اللاهوتية » بأقلام فريدريك هير F. Heer وفريدريك كوبلستون F. Copleston واتين جيلسون E. Gilson فى كتاب: Baker, D. N. & Fasel, G. W. (eds), Landmarks in Western Culture, vol. I (New Jersey, 1968), pp.. 249 — 282.

[المترجم]

تفرض نفسها على الفكر لمدة أجيال تالية . وهكذا كانت هذه الطريقة على أيدى ابيلارد ومن جاءوا بعده بمثابة قوة دافعة لحدة الذكاء ، وهى طريقة تتعارض على طول الخط مع منهج « نعم ولا » كما وضعه مؤلفه ، بحيث لم تترك مجالا فى ثناياها لحل وسط . لأن التفكير بهذا الأسلوب — حسبما أوضح رينان Renan — يؤدى ، عادة إلى اكتشاف الحقيقة .

ولتكوين فكرة عصرية حديثة عن مدرسى القرن الثانى عشر ، لانجد ما هو أفضل من المقتطفات التى يصف فيها جون أوف ساليسبورى رحلته Wanderjahre التى استغرقت عدة سنوات فى فرنسا فى الفترة الواقعة بين عامى ١١٣٦ و١١٤٧م ، وبصفة خاصة جولته فى كل من باريس وشارتر[1] . ولما كان جون قد تعلم أصول المنطق على يدى أبيلارد ، فقد ظل تحت تأثير اثنين من المدرسين لهذا الفن ، أحدهما كثير الشك والتشكك فى الدقائق والتفاصيل منطلق

(١) هذه المقتطفات مترجمة إلى الانجليزية فى كتاب بعنوان « صور من تاريخ الفكر فى العصور الوسطى » تأليف ر.ل. بول، أنظر Poole, R. L., Illustrations of History of Mediaeval Thought, 2nd ed. (London, 1920), pp. 203 — 212. وكذلك فى كتاب « قراءات فى تاريخ التعليم » تأليف ا.و. نورتون أنظر Norton, A.O., Readings in the History of Education (Cambridge, Mass., 1909), pp. 28 – 34.

وقد تناول ر.ل. بول هؤلاء الأساتذة بالدراسة والنقد والتحليل فى مقال عنوانه « أساتذة المدارس الجامعة فى باريس وشارتر فى عصر جون اوف ساليسبورى » ، ثم اعاد طبعه فى كتابه الذى يحمل اسم « دراسات فى علمى الكرونولوجيا والتاريخ » ، طبع اكسفورد سنة ١٩٣٤ م ، انظر

Poole, R. L., " The Masters of the Schools of Paris and Chartres in John of Salisbury's Time, " English Historical Review, XXXV (1920), pp. 321 — 342 ; idem, Studies in Chronology and History (Oxford, 1934), pp. 223 – 247.

اللسان يميل إلى الاقتضاب والإيجاز ويدخل فى الموضوع مباشرة ؛ أما الآخر فهو حاذق ، ذو دهاء ، غزير المادة ، مبينا أنه ليس فى الإمكان إعطاء إجابات بسيطة . « وبعد ذلك ذهب أحدهما إلى بولونيا ونسى ماكان يقوم بتدريسه ، حتى أنه عند عودته توقف عن ذلك النوع من التدريس . » وعندئذ توجه جون أوف ساليسبورى إلى شارتر ليتعلم النحو وقواعد اللغة على يدى كل من وليم أوف كونش [1] William of Conches والقديس برنارد أوف كليرفو . وهنا أثار الأسلوب الإنسانى فى تدريس الآداب ، وهو أسلوب واف متقن ، إعجاب جون الشديد ، إذ أنه دراسة متقنة للآداب تتضمن استظهار بعض المقتطفات المختارة وتعلم النحو عن طريق الانشاء وتقليد النماذج الممتازة ، إلى جانب زيادة لارحمة فيها المحسنات اللفظية المستعارة . تلك هى الصفات التى جعلت القديس برنارد « أغزر مصدر للأدب فى غالة [2] فى العصر الحديث . » وعند عودة جون أوف ساليسبورى إلى باريس بعد غيبة دامت اثنتى عشرة سنة ، وجد زملاءه القدامى على نفس الحال حيث هم من قبل ، وفى نفس الموقع الذى تركهم فيه . ويبدو وكأنهم لم يصلوا إلى تحقيق هدفهم فى شرح وتفسير القضايا والمسائل القديمة مثار البحث والجدل ، كما أنهم لم يضيفوا شيئا جديدا على الاطلاق إلى تلك القضايا ، وما زالوا تحت إيحاء تلك الأهداف التى كانت مصدر إلهامهم فيما مضى [3] . وهم لم يحرزوا تقدما إلا فى مسألة واحدة فقط ، وهى أنهم بدأوا

---

(١) قام وليم اوف كونش بتدريس التراث الكلاسيكى القديم بمدرسة شارتر التى كانت تعتبر أعظم مركز لتدريس العلوم الإنسانية فى القرن الثانى عشر . وقد بلغت هذه الدراسات ذروتها فى شخص جون اوف ساليسبورى. أنظر LaMonte, op. cit., p. 558. [المترجم].

(٢) المقصود بذلك فرنسا [المترجم] .

(٣) أى أنهم ظلوا كما هم وحيث هم دون ان يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام . [المترجم] .

يتجاهلون الاعتدال والمثابرة . فلم يعودوا يعرفون التواضع ، بل تغالوا فى هذا التجاهل إلى درجة بدا أن شفاءهم منه أصبح ميئوسا فيه . واستطرد جون قائلا : « وهكذا أكسبتنى الخبرة نتيجة واضحة هى أنه بينما يساعد المنطق والعلوم اللسانية [أى الكلامية] الدراسات الأخرى ، إلا أن هذه الدراسات إذا ظلت منفردة قائمة بذاتها فإنها تصبح عقيمة جدباء لاحياة فيها ولا تهز أعماق النفس لتقدم ثمارا فلسفية جديدة اللهم إلا نفس الأفكار التى يمكن التوصل إليها من أى مصدر آخر » .

وأما مدرسو القرن الثالث عشر الذين يتحدثون عن أنفسهم أكثر من اللازم فهم أساتذة النحو والمنطق والعلوم الكلامية ، من أمثال بونكومبانيو Buoncompagno فى بولونيا ، وجون أوف جارلاند (1) John of Garlande

---

(1) جون أوف جارلاند شاعر انجليزى وأستاذ فى علم النحو، ولد حوالى سنة ١١٩٥ م وتوفى حوالى سنة ١٢٧٢ م، وقد ترك إنتاجه أثره فى تطور اللاتينية العصور الوسطى. ولد فى انجلترا من أسرة عريقة ، ودرس فى أكسفورد على أستاذ يدعى جون أوف لندن ، ثم ذهب إلى باريس حوالى عام ١٢٠٢ م لمواصلة دراسته ، وتتلمذ هناك على يدى الين دى ليل Alain de Lille، وقام بعد ذلك بالتدريس فى باريس حتى عام ١٢٢٩ م حيث ذهب إلى جامعة تولوز الجديدة. ومن تآليفه فى الأجرومية وقواعد اللغة وترا كيبها كتاب « ملخص الأجرومية» المعروف باسم « Compendium grammatice » وكتاب « التركيبات اللغوية » « Liber de constructionibus » ; وله أيضا قاموس لغوى لاتينى باسم « Dictionarius » انشره ت. رايت T. Wright عام ١٨٥٧ م. وكذلك مؤلف باسم « كتاب السلوك المدرسى » « Morale scolarium » تناول فيه موضوعات شتى مثل السلوك العام وآداب المائدة والفضيلة ودفاع البابا ضد رذيلة السيمونية ، وقد قام بنشره ل. ج. بيتاو L. J. Paetow فى عام ١٩٢٧ م ، وأمدنا الناشر فى مقدمته للكتاب بنبذة عن حياة جارلاند ومؤلفاته . أنظر مقالة « جون أوف جارلاند » فى دائرة المعارف البريطانية (طبعة شيكاجو ، سنة ١٩٦٤) ، ج ٩ ، ص ١١٤٦ [المترجم] .

فى باريس ، وبونس أوف بروفانس Ponce of Provence فى اورليانز ، ولورنزو أوف أكويليا Lorenzo of Aquileia فى نابولى ، بل وفى كل مكان تقريبا . وسوف نتعرف جيدا على كتاباتهم المنتفخة الجوفاء فى مجالات أخرى . ولعل أهمها مايقصه علينا أودوفريدوس [1] Odofredus فى محاضراته عن كتاب « الديجست القديم » « Old Digest » فى بولونيا . فيقول : « فيما يختص بطريقة التدريس فقد راعى الدكاترة ، القدامى والحديثون ، وبخاصة أستاذى الشخصى ، الأسلوب التالى ، وهو نفس الأسلوب الذى سوف أتبعه . سأمدكم ، أولا ، بمختصرات لكل فصل من فصول الكتاب قبل البدء فى دراسة النص . ثانيا ، سأعطيكم بيانا واضحا ومفصلا قدر الاستطاعة عن فحوى ومضمون كل قانون وارد فى الكتاب . ثالثا ، سأقرأ النص مستهدفا من وراء ذلك تصحيحه . رابعا ، سأكرر باختصار فحوى القانون خامسا ، سأضع حلولا للمتناقضات الظاهرة مضيفا إلى ذلك أية مبادىء قانونية عامة يمكن استخلاصها من تلك النبذ المقتطفة ، وهى التى تعرف - عادة - باسم « القواعد » Brocardica ، وكذلك أية فوارق واختلافات أو مسائل عويصة quaestiones ذات نفع وفائدة قد تنشأ عن القانون هى وحلولها على قدر ما تمكننى العناية الإلهية . هذا ، وإذا بدا أن قانونا مايستحق الإعادة بسبب أهميته أو صعوبته ، فسأغتنم فرصة إعادته فى إحدى الأمسيات ، لأنى سأتناول هذه المسائل بالنقاش والمجادلة مرتين فى العام على أقل تقدير . وستكون

---

(١) هو مؤرخ إخبارى عاش فى أواسط القرن الحادى عشر (١٠٧٦م) . وللمزيد من المعلومات عنه ، أنظر LaMonte, op. cit., p. 575. وكذلك وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، ص ١٨٠ . [المترجم]

المناقشة الأولى قبل عيد الميلاد ، والأخرى قبل عيد القيامة إن شئتم ذلك . »

ويستمر أودوفريدوس قائلا : « وسأبدأ دائما بكتاب « شرح القوانين القديم » فى عيد القديس ميخائيل الذى يقع فى السادس من أكتوبر أو بعد العيد بثمانية أيام ، وانتهى منه تماما — بعون الله ومشيئته — مع كل شىء مألوف أو غير مألوف ، حوالى منتصف أغسطس . وسأتناول الكتاب المتضمن زبدة الشرائع والأحكام Code (١) دائما بعد حوالى اسبوعين من عيد القديس ميخائيل ، وأتمه — بعون الله — بكل ماهو مألوف وما هو غير مألوف ، حوالى أول أغسطس . وقد اعتاد الدكاترة ، فيما مضى ، ألا يلقوا محاضرات عن الفصول التى هى فوق مستوى إدراك الطلبة ومفهومهم ، ولكن سوف يستفيد منى جميع الطلبة حتى البلداء والمستجدون لأنهم سيستمعون إلى الكتاب بأكمله ، ولن يحذف منه شىء البتة كما كان متبعا هنا فيما مضى . وهكذا ، سيكون بوسع الجهلة الإفادة من شرح القضية وعرض النص . أما الطلبة الأكثر تقدما فسيكونون بالأحرى أكثر تضلعا ، وسيكون بمقدورهم التغلب على الآراء المتعارضة والمسائل العويصة المثيرة للحيرة . وسأتلو عليكم كل الشروح والتفسيرات ، وهذا ما لم يمارسه أحد من قبل . » ثم تعقب ذلك نصيحة عامة تتعلق باختيار الأساتذة وطرق التدريس ، يتلوها عرض عام لكتاب « شرح القوانين » المعروف باسم « الديجست » .

ويختتم أودوفريدوس هذا المنهج بقوله : « والآن ، أيها السادة ، قد بدأنا وانتهينا ، وقرأنا هذا الكتاب من أوله إلى آخره ، كما تعلمون أنتم يامن واظبتم

---

(١) المقصود مجلة أحكام جستنيان [المترجم] .

على حضور هذا الدرس . وإننا نتقدم بالشكر إلى الله وإلى أمه السيدة العذراء وجميع قديسيه . ومن التقاليد القديمة المتبعة فى هذه المدينة أنه عندما ينتهى كتاب مايقام قداس دينى من أجل الروح القدس ، وهو تقليد حميد ، ولذلك يجب الأخذ به . ولما كان من المتبع أن يتحدث الدكاترة عند الانتهاء من دراسة كتاب ما عن خططهم المقبلة ، فسأخبركم بجانب منها ، ولكننى لن أطيل عليكم الحديث . وأتوقع أن ألقى فى العام القادم محاضرات عادية بأسلوب قانونى حسن كما كنت أفعل دائما . ولكنى لن أقوم بإلقاء محاضرات فوق العادة (١) ، لأن الطلبة لايدفعون بسخاء . فهم يرغبون فى التعلم ولكنهم لايريدون دفع الثمن ، وذلك وفقا للمثل السائر : الرغبة فى اقتناء المعرفة مع الامتناع عن الدفع . وليس لدى ما أقوله لكم أكثر من ذلك ، سوى أن استودعكم مشمولين ببركة الله ورعايته ، راجيا منكم المواظبة على حضور القداس الدينى . » (٢)

هذا ، وبالرغم من أن المحاضرة الرسمية (٣) كانت لها أهميتها فى تلك الأيام الغابرة التى كانت فيها الكتب قليله العدد والتى لم توجد فيها معامل ، إلا أنها لم

---

(١) اى محاضرات ذات قيمة كبرى . [المترجم] .

(٢) أنظر عن ذلك Paris, Bibliothèque Nationale, MS. Lat. 4489 f. 102; F. C. von Savigny, Geschichte des römischen Rechts im Mittelalter (Heidelberg, 1834), III, pp. 264, 541, 553 ; cf. also Rashdall, op. cit., I, p. 218. هذا ، وطبقا لحاشية وردت فى الطبعة المنقحة لنفس الكتاب (ص ٢١٩ ح ٣) ، يتضح أن « هذه المقدمة كتبها بالفعل أحد تلامذة أودوفريدوس ويدعى بطرس برجروسى Petrus Peregrossi الذى كان يعمل مدرسا فى اورلياتز » .

(٣) يقصد النظامية [المترجم] .

تكن إطلاقا الوسيلة الوحيدة للتدريس . وإن استعراضا شاملا للتدريس بالجامعات [فى العصور الوسطى] ليحتاج إلى أن نضع فى الاعتبار تلك المحاضرات « السريعة السطحية » أو « غير المألوفة » ، التى ألقى كثير منها خريجون بدرجة الليسانس فحسب . وكذلك تلك المراجعات والإعادات التى كثيرا ما ألقيت فى بيوت الطلبة أو فى الكليات فى فترات المساء ؛ ثم تلك المجادلات التى تمهد للتجربة النهائية القاسية التى كانت تقام علنا لمناقشة رسالة التخرج (١) .

ولقد زالت منذ وقت طويل حجرات الدراسة التى كانت تلقى فيها هـذه المحاضرات . فإن لم يجد الأستاذ حجرة ملائمة فى بيته ، فقد يجد نفسه مضطرا لأن يستأجر قاعة فى مكان مناسب مجاور له . وفى باريس كانت معظم هذه القاعات تقع فى شارع واحد يطل على الضفة اليسرى المسماه فيكوس ستّرامنيوس Vicus Stramineus أو شارع دى فوار Rue de Fouarre المشهور باسم شارع دانتى . ويبدو أنه سمى كذلك بسبب الأرضية التى كانت مغطاة بالقش الذى كان الطلبة يجلسون عليه عندما يكتبون مذكراتهم . أما فى [جامعة] بولونيا فقد كانت حجرات الدراسة — إلى حدما — أحسن حالا . وقد كتب بونكومبانيو Buoncompagno عام ١٢٣٥ م يصف قاعة محاضرات نموذجية هادئة ونظيفة تطل نوافذها على منظر بديع خلاب ، وقد غطى جدرانهـا طلاء أخضر ، ولا توجد فيها تماثيل أو صور تصرف انتباه الطالب عن متابعة المحاضرات . وكان مقعد الأستاذ مرتفعا كى يرى الجميع ويراه الجميع فى نفس الوقت . وقد رتبت مقاعد الطلبة دائما حسب « الأمم » التى ينتمون إليها ووفقاً لشهرة الطالب وسمعته والطبقة

---

(١) المقصود امتحان التخرج [المترجم] .

التى ينتمى إليها . ويضيف بونكومبانيو إلى ذلك قولا له دلالته ومغزاه وهو : « لم يكن لى مثل هذا البيت على الإطلاق ، ولا أعتقد أن مثل هذا البيت قد بنى فى وقت ما . » وإن كل ما نعرفه من حقائق عن حجرة الدراسة فى جامعة بولونيا مستقاة ، أساسا ، من الآثار والصور المصغرة لأساتذة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والتى يظهر فيهما الأستاذ جالسا معتدلا أمام مكتب تحت مظلة مثبتة على قاعدة مرتفعة ، بينما جلس الطلبة أمام أدراج مستوية أو مائلة السطح وقد وضعت عليها كتبهم مفتوحة . وكان أمام الأساتذة ، سواء أكانوا أساتذة طب أو قانون ، مجلد مفتوح بصفة دائمة .

ويظهر طابع الامتحان النهائى ممثلا أحسن تمثيل فى [جامعة] باريس حيث وصفه عالم الأخلاق البشوش روبرت السوربونى (١) Robert de Sorbon مؤسس معهد السوربون فى كتابه [الذى ألفه باللاتينية] المسمى « الضمير ، De Conscientia » ، وذلك عندما قارن مقارنة لها مغزاها بين امتحان التخرج النهائى والدينونة الأخيرة . وقد اتخذ روبرت من طموح أيوب موضوعا له لأن « خصمه وغريمه قد ألف كتابا » . ثم حدد بجمل عناوينه وفقا لما هو سائد فى عصره . فيبدأ بقوله إنه إذا قرر شخص ما الحصول على إجازة الليسانس licentia legendi من باريس ، لا يمكن إعفاؤه من أداء الامتحان كما كان الحال بالنسبة لكثير من العظماء وعلية القوم الذين نالوا هذه الإجازة بصفة شخصية تقديرا لهم وإكراما . فكثيرا ما أخطر رئيس الجامعة أو شخص يكون موضع ثقته الطالب بالكتاب الذى سيمتحن فيه . والطالب الأحمق الضعيف حقا هو

---

(١) حول روبرت السوربونى والمعهد الذى ينسب إليه ، أنظر ماسبق ، ص ٢١٢ و ٢٦٥ ح ٢ و ٢٧٢ وح ٣ من هذا القسم من المجلد [المترجم] .

الذى يهمل الكتاب بعد معرفته به ، ثم يقضى وقته فى دراسة كتب أخرى غيره . وإنه كذلك لطالب أحمق مفتون ذاك الذى يفشل فى دراسة كتاب « الضمير » الذى سنمتحن فيه جميعا دون استثناء فى اليوم الآخر .

وفوق هذا وذاك، فإنه إذا حرم رئيس الجامعة شخصا ما من أداء الامتحان، فيجوز إعادة امتحانه بعد مضى عام . ومن الممكن إقناع رئيس الجامعة بالتراجع عن قراره إذا ما توسط للطالب المعارف والأصدقاء ، أو إذا قدم الطالب الهدايا أو أدى الخدمات المناسبة لأقارب المدير والممتحنين الآخرين . هذا ، بينما سيكون الحكم فى الدينونة الأخيرة نهائيا لا رجعة فيه، ولن تفيد الثروة ولن ينفع النفوذ . كذلك لن يكون لادعائه الجرىء بمقدرته كواحد من رجال الدين أو من العلمانيين أو بدرايته بكل أنواع الجدل والسفسطة — لن يكون لكل هذا أى أثر فى سحب قرار الدينونة الأخيرة . ثم أنه إذا فشل أى طالب أمام رئيس جامعة باريس فلن يعرف هذه الحقيقة سوى خمسة أو ستة أشخاص فحسب ، ولن يدوم فشله بل سيزول بمرور الوقت ، بينما يدمغ الله ، وهو الديان الأعظم ، الإنسان الخاطىء بالدليل والبرهان « فى جامعة كاملة حقا » وأمام العالم أجمع . كذلك لن يجلد رئيس الجامعة الطالب المرشح للحصول على إجازة التدريس ، ولكن فى الدينونة الأخيرة سينال المذنب عقابه بضربه بقضيب من حديد من وادى يهوشافاط[1] Jehosaphat وبطول الجحيم وعرضه . [2] ولن نستطيع

---

(١) نسبة إلى يهوشافاط بن آسا ملك يهوذا فى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، وحول سيرته وأخباره ومملكته وحروبه ، أنظر الكتاب المقدس – العهد القديم — سفر الملوك الأول : إصحاح ٢٢ ، وسفر أخبار الأيام الثانى : إصحاح ٢٠ . [المترجم] .

(٢) هذه الأفكار الخاصة بالدينونة واليوم الآخر والجحيم وألوان العذاب التى يلقاها المذنب، تناولها المؤرخ جورج جوردون كولتون فى كتابه « عالم العصور الوسطى » فى شىء من التفصيل والتعليل والتدقيق. أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ، ص ٥٥ — ٦٦ [المترجم] .

أن نفكر مثل الأولاد الكسالى فى مدارس الأجرومية عندما يتهربون من عقاب يوم السبت مدعين المرض أو التغيب بدون أعذار أو لكونهم أقوى جسمانيا من الأستاذ ، أو نعزى أنفسنا مثلهم بما معناه أننا بعد كل لهونا وعبثنا نستحق الضرب بالسياط . وامتحان رئيس الجامعة أيضا اختيارى ، فهو لايلزم شخصا ما بضرورة الحصول على الدرجة الجامعية ، بل ينتظر رغبة الطلاب أنفسهم . وقد يشعر أيضا بثقل مطالبهم المتلاحقة فى عقد الامتحانات لهم .

ثم أنه فى دراستنا لكتاب ضميرنا ووجداننا ، يجب ان نتشبه باولئك الطلاب الذين يسعون للحصول على إجازة الليسانس، فيقتصدون فى المأكل والمشرب ويثابرون ايضا على دراسة الكتاب الأوحد الذى يستعدون له ، ويبحثون فى كافة المراجع التى تتعلق به ، ويستمعون فقط إلى الأساتذة الذين يحاضرون فى هذا الموضوع ، حتى لنجد أنه من العسير عليهم إخفاء حقيقة استعدادهم للامتحان عن زملائهم . ولا يمكن أن يكون إعدادهم للامتحان حصيلة خمسة أيام أو عشرة ، بل هو ثمار جهد سنوات عديدة ؛ هذا فى حين أنه يوجد كثيرون من لايقضون يوما واحد أو حتى ساعة واحدة فى التأمل فيما اقترفوه من خطايا وذنوب . وفى يوم الامتحان يسأل رئيس الجامعة الطالب قائلا : « بماذا تجيب ياأخى عن هذا السؤال ؟ وماذا تقول بالنسبة لهذا الأمر أو ذاك ؟ » وسوف يكتفى الرئيس بمعرفة محصلة الطالب للألفاظ الموجودة فى الكتب دون فهم أو إدراك لمعناها ، وذلك خلافا « للديان الأعظم » الذى سيستمع إلى كتاب ضميرنا من أوله إلى آخره دون أخطاء . هذا ، بينما يطالب رئيس الجامعة الطالب بسبع أو ثمان قطع فحسب من الكتاب الذى سيمتحن فيه ، ويعتبر الطالب ناجحا إذا استطاع الإجابة عن ثلاثة أسئلة من أربعة . وثمة فارق آخر هو أن رئيس

الجامعة لايترأس دائما الامتحان بصفة شخصية ، وذلك حتى يتمكن الطالب الذى يشعر بالرهبة أمام علمه الغزير أن يجيد الإجابة أمام الأساتذة الذين ينيبهم المدير عنه . ولا يمكن فى هذا المجال أن نذكر شيئا عن الإجماع العام للبحث أو الرسالة التى يتقدم بها الطالب من جميع الحاضرين [١] ، وهو الإجراء الأخير الهام الذى لاتزال الجامعات الألمانية تأخذ به حتى اليوم .

وكان يوجد فى جامعة بولونيا فى بادىء الأمر « امتحان صارم رهيب » يؤديه الطالب أمام عدد من الدكاترة وقد أقسم كل منهم أن يعامل الطالب المتقدم للامتحان « كما لو كان ابنه الشخصى » . ثم يتبع هذا الامتحان إمتحان آخر على وصفه أحد الطلاب فى خطاب له بعث به إلى ذويه حيث يقول : « رتلوا للرب أنشودة جديدة وامتدحوه بالصنج والطبول . رنموا بالدفوف ذات الرنين العالى لأن إبنكم قد أجاد المناقشة التى حضرها جمع غفير من الأساتذة والطلبة ، وأجاب كذلك عن كل الأسئلة دون الوقوع فى أية أخطاء ، ولم يستطع أحد أن يتغلب على مجادلاته . وفضلا عن ذلك ، فقد أقام مأدبة فاخرة شرفها الأغنياء والفقراء ، ولم يحدث أن أقيمت مثلها من قبل . ولقد بدأ [إبنكم الطالب] فى الوقت المناسب بإلقاء المحاضرات التى أحبها الجميع ، حتى لقد هجر الطلبة حجرات الدراسة الأخرى ، وتوافدوا جماعات يملأون حجرته . » ويحدثنا أيضا نفس هذا الشخص البليغ عن طالب فاشل لم يستطع أن يفعل شيئا أثناء المناقشة ، بل جلس على كرسيه كمتوة ، بينما أطلق عليه الحاضرون لفظ « حاخام » وذلك على سبيل التهكم والسخرية . وقد قدم فى وليمته طعاما لايشجع على تناول المشروبات ، واضطر إلى استئجار عدد من الطلبة لحضور فصوله والاستماع إليه .

---

(١) يقصد الممتحنين . [المترجم] .

وعندما نتناول المركز الاجتماعى لأساتذة العصور الوسطى ، يجب علينا أن ننظر إليه فى ظل نظام اجتماعى لعصر يختلف عن العصر الذى نعيش فيه . حينئذ ربما نجد أن أقرب الأمور إلى ظروفنا فى العصر الحديث ما كان سائدا فى مدن ايطاليا ، حيث يوجد الدليل فى العصور الوسطى ، كما هو الحال الآن ، على ذلك المركز الممتاز الذى كان يتمتع به العديد من أساتذة الطب والقانون المدنى . وكثيرا ما وصل علماء اللاهوت وأساتذة القانون الكنسى إلى رتب ومراكز رفيعة فى الجهاز الكنسى ، مثل وظائف الأسقفية والكاردينالية . وإن اولئك الذين وصلوا إلى أعلا المراتب والدرجات السامية من بين الفلاسفة ورجال اللاهوت كانوا قطعا أساتذة فى الجامعات ، من أمثال توما الأكوينى والبرت العظيم [1] Albertus Magnus وبونافنتورا [2] Bonaventura — هذا الرعيل من الدكاترة الذين كان يغلب عليهم الطابع الملائكى . فكان لا يمكن التغلب عليهم أو دحض آرائهم وحججهم ، كما كانوا ذوى حذق ومهارة ودهاء ، ومعروفين

---

(١) حول البرت العظيم (١١٩٣ — ١٢٨٠ م) أنظر فشر (هـ٠١٠ل) : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى — ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور ابراهيم أحمد العدوى — جـ ٢ (القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٢٦٩ ؛ راجع أيضا Stone, D., France in the Sixteenth Century (New Jersey, 1969), p. 16; Calmette, J., Le Moyen Age (Paris, 1948) , p. 601. [المترجم] .

(٢) كان القديس بونافنتورا (١٢٢١—١٢٧٤م) معاصرا لتوما الأكوينى . وهو من جماعة الإخوان الفرنسيسكان ، وكان رئيسا لهذه الجماعة والكاتب الرسمى لسيرة القداس فرنسيس الأسيسى . وهو — بلاشك — أبرز الإخوان الفرنسيسكان واكثرهم تضلعا فى علم اللاهوت . ونجد مثلا واضحا لذلك فى تعليقاته على كتابات بطرس المباردى . انظر عن ذلك LaMonte, op. cit., p. 566. — وللمزيد من المعلومات عن حياته ومنهجه ، أنظر عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٩٤—١٢٨ . [المترجم] .

العالم أجمع . وعلى الرغم من أنهم كانوا ينتمون إلى جماعة الإخوان الدومينيكان[١] أو جماعة الإخوان الفرنسيسكان [٢] ، الا أن هذا لم يبعدهم عن العالم الدنيوى سوى بعدا جزئيا .

وإذا كان مركز الأساتذة الاجتماعى واحترامهم لأنفسهم يتضمن أيضا

---

(١) مؤسس جماعة الإخوان الدومينيكان هو القديس الأسبانى دومنيك St. Dominic وكان تأسيس هذه الجماعة سنة ١٢١٥ م بهدف مكافحة تيار الهرطقة الذى ظهر فى الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية وخارجها فى اواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى . ومن مبادئهم الوعظ والإرشاد بين الناس حتى اشتهروا أيضا بإسم الإخوان المبشرين . ووجه الشبه قريب بينهم وبين الإخوان الفرنسيسكان فى التقاليد وطريقة الحياة وفى الامتزاج بالعالم الخارجى : انظر عن ذلك Baldwin, M. W., The Mediaeval Church (New York, 1953), p. 60 f.; Painter, op. cit., p. 318 ff. [المترجم] .

(٢) مؤسس جماعة الإخوان الفرنسيسكان هو القديس فرنسيس الأسيسى (حوالى ١١٨١ — ١٢٢٦ م) ، وهو يعتبر من الشخصيات البارزة التى أسهمت فى تطور حركة الفكر وتحرر الروح والنفس البشرية فى الحقبة الوسيطة من التاريخ . ولم يكن هدف أعضاء هذه الجماعة التى أسسها والتى انتسبت إليه البقاء فى أديرتهم لأداء فرائض العبادة والصلاة فحسب ، وإنما السعى فى الأرض للوعظ والتبشير وتعليم الناس ، مع الفقر والاكتفاء بالكفاف من العيش الذى يمكنهم الحصول عليه بالكد والعمل اليدوى إذا كان ذلك متوفرا أو بالتسول إذا لم يكن هناك سبيل للكسب : أنظر فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، جـ ١ (القاهرة ١٩٥٠) ، ص ٢٣٤ وما بعدها. Heer, F., The Medieval World : Europe 1100 — 1350 (London, 1962), p. 79 ff.; Downs, op. cit., p. 139 ff.; cf. also Monnier, L. le, Histoire de Saint François d'Assise, 2 vols., Paris & Lyon, 1906. وبخاصة الجزء الأول ص ١٣٤ وما بعدها و١٣٦ وما بعدها و٢١٧ وما بعدها والجزء الثانى ص ١ وما بعدها و٨٩ وما بعدها من الكتاب المذكور [المترجم

إدارتهم لشئون الجامعة حسبما يؤكد دعاة الإصلاح ، فقد كان العصر الوسيط هو العصر الذهبي لسلطة الأساتذة وهيمنتهم . فلقد كانت الجامعة نفسها مجتمعا للأساتذة أكثر منها مجتمعا للطلبة . ولما لم تكن لها فى ذلك العصر أوقاف أوهبات توقف عليها لها وزنها وقيمتها ، فلم يوجد بها مجالس وكلاء أو قيمين ، كما لم يكن ثمة نظام يماثل نظام إشراف الدولة [على الجامعة] كما هو معروف الآن فى أوروبا وفى أجزاء عديدة من الولايات المتحدة . ولم تكن هناك ، إطلاقا ، إدارة جامعية بالمفهوم الحديث من هذا الاصطلاح . وكان الأساتذة يستنفدون جل وقتهم فى اجتماعات الجامعة المختلفة . لقد كانت الجامعة مستقلة بذاتها إلى حدما ، وكانت لها شخصيتها التى تتمتع بكل احترام وتقدير . وبذلك لم تتعرض لبعض عيوب نظام يسمح للوكلاء والقيمين أو نواب الملك بالتحدث عن أساتذة الجامعة كما لو كانوا « رجالهم المأجورين » . وأما عما إذا كانت حرية الأستاذ تعتبر مكمولة فى ظل هذا النظام ، فهذا موضوع آخر . فلقد كان لهيئة الأساتذة القدرة على ممارسة سلطة تامة فى نطاق عملهم ، وإن لم تمتد سلطتهم الى حد السيطرة على الرأى والتحكم فيه . ولم يكن تحكم الزملاء إلا نوعا من « تحكم الجار الذى يعيش فى البيت المجاور » ، وهو ما يبدو أن العالم لم يستطع أن يتجنبه أو يتحاشاه .

تبقى بعد ذلك مسألة حرية الفكر بالنسبة للأستاذ وحقه فى أن يقوم بتدريس الحقيقة كما يراها هو ، وهى التى أصبحنا نطلق عليها الحرية العلمية . فمن الواضح أن الكثير يعتمد فيما يتعلق بهذا الخصوص على مفهومنا للحقيقة . فإذا كانت الحقيقة شيئا نتوصل إليه عن طريق البحث ، فلا بد أن يكون البحث حرا من القيود . ولكن إذا كانت الحقيقة شيئا قد كشفت المصادر النقاب عنه من قبل ،

فمن الواجب تناولها بالشرح والتفسير فحسب . وليس هناك مدعاة للقول بأن الأمر الثانى كان هو مفهوم العصور الوسطى عن الحقيقة ووسائل تدريسها . وكان الرأى السائد « أن الإيمان يسبق العلم ويحدد أبعاده ويصف أحواله » . [١] وقد قال أنسيلم [٢] Anselm « إنى أومن لكى أفهم ، ولكنى لا اقتنى المعرفة كى أحصل على الإيمان . » [٣] وبناء على ذلك ، إذا كان للعقل حدوده وطاقاته ، فواجب العقل أن يكون متواضعا . فقد قال البابا جريجورى التاسع [٤] « لا تتركوا أساتذة جامعة باريس وطلابها يبدون كفلاسفة ، ولكن دعوهم يجاهدون فى سبيل الإيمان » هذا ، وتكشف كثير من القصص والروايات التى لها دلالتها عن أخطار الغطرسة الفكرية والاعتماد على العقل فحسب ؛ إذ تسلط الأضواء على أساتذة فقدوا مكانتهم ومراكزهم بسبب خيلائهم وغرورهم . فنجد إتين دى تورناى Etienne de Tournay ، بعد أن أثبت عقيدة الثالوث « بكل وضوح وبطريقة يبدو فيها التناسق والانسجام وبكاثوليكية خالصة » ، يؤكد أنه يمكنه بكل سهولة وبكل بساطة أيضا هدم هذا الإثبات . وكانت مسيحية العصور

(١) Alzog, J. B., Manual of Universal Church History (Cincinnati, 1876), II, p. 733.

(٢) حول انسيلم وأفكاره ، أنظر ماسبق ، ص ٩٩ و١٠٤-١٠٥ و١٠٧ من القسم الأول من هذا المجلد [المترجم] .

(٣) وهو بذلك يعبر عن وجهة نظر الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى ، وهى أن العقيدة والإيمان يسبقان الفكر والعقل [المترجم] .

(٤) شغل جريجورى التاسع الكرسى البابوى من سنة ١٢٢٧ م إلى سنة ١٢٤١ م ، وهو الذى أصدر مرسومه المعروف لصالح جامعة باريس سنة ١٢٣١ ، وله آراء وأفكار فيما يتعلق بسيادة الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية [المترجم] .

الوسطى المستقيمة تنظر شذرا إلى مجرد الاجتهاد العقلى ، ذلك لأن الكثير من مناقشات المدارس الجامعة لم تؤد إلى أية نتيجة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد اتضح أن العقل الذى يفكر فى أمر ما بحرية تامة ، قد يقع بسهولة فى الهرطقة . لذلك أقامت كنيسة العصور الوسطى [فى الغرب] نوعا خاصا من المحاكم عرفت باسم محاكم التفتيش مهمتها اكتشاف أمر البدع والهرطقات وإدانتها ومعاقبة مبتدعيها (١) .

هكذا كانت الأحوال العامة للأساتذة . فماذا كان ، إذن ، الموقف على حقيقته ؟ كانت الحرية ، فى الواقع ، مكفولة بوجه عام ، فيما عدا ما يتعلق بالفلسفة وعلم اللاهوت. لقد كان الأساتذة يتمتعون بحرية تامة فى إلقاء المحاضرات والمناقشات فى القانون والطب والنحو والرياضيات . ولم يصادفوا أية متاعب لأنه لم تكن توجد مشاكل اجتماعية بمفهومها الحديث ، كذلك لم يكن تدريس العلوم الاجتماعية كما هو الحال الآن . وبقدر معرفتنا لم يدان أى أستاذ فى العصور

---

(١) لقد عانى المصلحون والهراطقة الدينيون فى الغرب العصور الكثير من صنوف الاضطهاد والتنكيل ، وبخاصة خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد . فقد امتازت هذه الفترة بظهور محاكم التفتيش الدينية خلال بابوية كل من جريجورى التاسع وانوسنت الرابع ، والتى كانت تنزل بمن تحوم حوله شبهة الهرطقة أو الخروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية شتى صنوف التعذيب . أنظر فى ذلك Bell, M. I. M., A Short History of the Papacy (London, 1921), p. 171 ; Turberville, op. cit., pp. 145 ff. — راجع أيضا على مظهر : محاكم التفتيش (القاهرة ١٩٤٧) ، ص ٤٩ وما بعدها . [المترجم] .

الوسطى لأنه يشير بحرية التجارة أو حرية استخدام الفضة (١) أو الاشتراكية (٢)، أو ما إلى ذلك من أمور . وفوق هذا وذاك ، بينما كان من الجائز أن تحرق علنا الرسائل والمقالات الفردية كما كان يحدث فى العصر المتأخر للإمبراطورية الرومانية ، إلا أنه لم توجد رقابة منظمة على الكتب قبل القرن السادس عشر .

وننتقل الآن إلى الحديث عن الفلسفة واللاهوت . لقد كانت المشكلة تكمن ، بطبيعة الحال ، فى علم اللاهوت . أما الفلسفة فقد كانت حرة طليقة غير مقيدة

---

(١) اعتبرت كنيسة العصور الوسطى التجارة عملا مرذولا وكسبا غير حلال ، ولهذا قاومتها وحاربتها دون رفق أو هوادة . وكان الربح الناتج عنها ، فى نظرها ، خطرا على الحياة الروحية ، ولذلك وقع التجار تحت طائلة القوانين الكنسية . وما يقال عن التجارة يقال أيضا عن الربا ، وهو إقراض المال مقابل فوائد . وكان الربا ، فى نظر الكنيسة ، خطيئة مميتة باعتباره هو الآخر محرما صراحة فى الكتاب المقدس . وكان هذا هو موقف كثير من البابوات والمفكرين واللاهوتيين من هاتين المشكلتين ، من أمثال البابا جريجورى التاسع والقديس توما الأكوينى. ولكن مع ظهور التجارة النامية فى أوروبا اعتبارا من القرن الثانى عشر ، وما ترتب على ذلك من ظهور مشكلات الربح والربا التى أصبحت مسألة حياة أو موت بالنسبة لحرية التجارة ، استدعى الأمر البحث عن وسائل وحلول تتفق والأوضاع الجديدة التى طرأت على المجتمع الغربى فى أواخر القرون الوسطى ، وأصبح الاتجاه الغالب هو التساهل والتسامح والتخفيف فى وقت كانت فيه أوروبا تمر بفترة تغير وانتقال من العصر الوسيط إلى عصر النهضة ، وفى وقت كان فيه كل شىء فى تغير تدريجى مستمر . أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ، ص ٢٨٧ — ٣٠٣ ؛ راجع أيضا Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe (London, 1961), p 14 f., 28 f. [المترجم] .

(٢) حول الاشتراكية فى المسيحية ، أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٨٨ وج٢ ، ٢٩٤ ج١ ، ٣١٦ وج ١ . [المترجم]

طالما لم تمس المسائل اللاهوتية . هذا من جهة ، ولكن من جهة أخرى كانت الفلسفة مهيأة تماما لأن تمس المسائل اللاهوتية وتتعرض لها . وكانت الحرب قائمة بصفة متقطعة طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر بين اللاهوت المسيحى والفلسفة الوثنية ممثلة فى مؤلفات أرسطو . وقد بدأها بطرس أبيلارد عندما حاول تطبيق منهجه المنطقى على البحث اللاهوتى . واستمر الحال على هذا المنوال عندما شجع معاصره جيلبرت دى لابوريه [1] Gilbert de la Porrée على الإكثار من استخدام منطق أرسطو فى التأمل فى المسائل اللاهوتية . وفى نهاية القرن الثانى عشر كانت العقول قد تشربت تقريبا هذا « المنطق الجديد » New Logic . ثم جاءت بعد ذلك كل من الفلسفة العقلية [2] والفلسفة الطبيعية لأرسطو مع تعليقات العرب عليها . وقد كانت دراستها ممنوعة رسميا فى جامعة باريس فى عامى ١٢١٠ م و ١٢١٥ م . وفى عام ١٢٣١ م طلب البابا [3] أن « تفحص [هذه الأفكار] وتطهر من كل شك فى أى خطأ وارد بها . » ولكن فى عام ١٢٥٤ م أصبحت هذه الدراسات جزءا من المنهج الدراسى فى الآداب . ولم يتم تصحيحها أو تنقيتها ، وإنما أصبحت مسايرة لمفهوم الإيمان المسيحى . وبعد ذلك بجيل كانت هناك انتكاسة بظهور الرشدية [4] Averroism ، مؤكدة مذهب أزلية المادة وعدم فنائها وتحديد الأجرام السماوية لما يحدث على الأرض

---

(١) جيلبرت دى لابوريه يعتبر من أبرز تلامذة الفيلسوف بطرس أبيلارد ، وقد أدين بالهرطقة بسبب الآراء التى كان ينادى بها ، انظر LaMonte, op. cit., p. 565. [المترجم]

(٢) وتعرف أيضا باسم ميتافيزيقيا ، أى علوم ماوراء المادة [المترجم] .

(٣) هو البابا جريجورى التاسع [المترجم] .

(٤) نسبة إلى ابن رشد ، وحول الرشدية اللاتينية وأثرها فى الغرب أنظر عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ١٦١ــ١٦٥ [المترجم] .

من أفعال . ولقد أدان أسقف باريس فى عام ١٢٧٧ م مائتين وتسعة عشر خطأ لهذه الجماعة (١) ، وهو نفس الأسقف الذى انتهز الفرصة لإعلان أسفه لإقحام طلبة الآداب أنفسهم فى المسائل اللاهوتية . وخلال هذه الفترة كانت آراء أرسطو وأفكاره كلها تعلم وتدرس فى [جامعة] باريس . كما استخدم توما الأكوينى طريقته فى بناء صرحه الضخم لعلم اللاهوت المدرسى . وقد اختص آخرون بتأمل فلسفى واسع النطاق ، وكان باستطاعتهم عندما تواجههم المتاعب إنقاذ أنفسهم بالالتجاء مرة أخرى إلى المذهب القائل بأن ما يصدق فى الفلسفة قد لا يصدق فى اللاهوت ، وأن العكس هو الآخر صحيح .

هذا ، وفيما يتعلق بموضوع حرية التعليم ، فقد أطلعت على جميع المستندات الخاصة بالقرن الثالث عشر المحفوظة فى دار الأرشيف والسجلات فى باريس Paris Chartularium ، ولم أعثر على ما هو جديد خلاف ما ذكرت من محاجاة ومجادلات عظيمة . ففى عام ١٢٤١ م فحص رئيس الجامعة وأساتذة اللاهوت بها مجموعة من عشر مخالفات وأدانوها ، وهى عبارة عن سلسلة من المقالات والقضايا العويصة المجردة التى تتعلق بإثبات جوهر الطبيعـــة الإلهية والملائكة والمقر الفعلى للأرواح الممجدة فى العالم الآخر ، سواء أكان ذلك فى السماوات العليا أم فى السماء الشفافة . ويبدو أن أستاذا يدعى ريموند Raymond كان قد سجن عام ١٢٤٧ م لأخطاء ثبتت عليه ، وذلك وفقا للمشورة التى أبداها أساتذة اللاهوت . كما حرم أستاذ آخر يدعى جون دى بريسكان John de Brescain من حقه فى التدريس بسبب أخطاء معينة فى المنطق « بدت أقرب

---

(١) وهى مقالات كان يتم فحصها وإعلان ما بها من ابتداع ومخالفة للدين [المترجم] .

ما تكون إلى الهرطقة الآريوسية . » (١) وبذلك اختلطت الموضوعات المتعلقة بطبيعتى المسيح اللتين وضع حدودهما الآباء [الأول فى المسيحية] (٢) .

(١) نسبة إلى كاهن سكندرى يدعى اريوس Arius، وقد انتشرت بدعته إلى ماوراء الحدود المصرية داخل الامبراطورية الرومانية الشرقية وخارجها ، وبين الأمم الجرمانية بصفة خاصة، وتتلخص بدعته فى أن المسيح مخلوق وهو يشبه الله الأب، ولكن طبيعته تختلف عن طبيعة الأب الذى كان موجودا قبله، غير أن عمل الأب انتهى بخلق الابن بنفحه من روحه القدس فى العذراء مريم ، وهذا الابن خلق العالم . وقد تصدى لأريوس فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد عام ٣٢٥ م فى مدينة نيقية تحت رئاسة الإمبراطور قسطنطين الكبير أثناسيوس السكندرى الذى أصبح فيما بعد بطرياركا على الاسكندرية، ودحض حجج اريوس حتى قرر المجمع خطأ نظريته وحرمان اريوس من الكنيسة واعتبار حركته هرطقة . أنظر عن ذلك Chadwick, H., The Early Church (London, 1969), pp. 129 f., 133 ff.; Stanley, D., Lectures on the History of the Eastern Church (London, 1924), pp. 130, 143, 155 ff. [المترجم]

(٢) كان ذلك فى المجمع المسكونى الرابع المعروف بمجمع خلقيدونية الذى عقد عام ٤٥١ م بدعوة من الإمبراطور البيزنطى مارشيان (٤٥٠—٤٥٧م) ، للنظر والبحث فى مسألة الطبيعتين والمشيئتين والطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح . وكانت هذه المسألة تعتبر وقتها من أخطر المسائل التاريخية . وقد أخذ الحزب الأوروبى فيها بالقول الأول ، بينما ظل الحزب المصرى محافظا على مبدأ الطبيعة والمشيئة الواحدة بالرغم من انحياز أغلبية المجمع للرأى الآخر . ويلاحظ أن النزعات السياسية اتخذت مكانا لها وراء الجدل الدينى لأول مرة فى تاريخ هذا المجمع وما أصدره من تعاليم وقرارات أثارت موجة من الجدل والخلافات المذهبية التى اهتز لها كيان العالم المسيحى بعنف. انظر عن ذلك Ostrogorsky, History of the Byzantine State, pp. 55, 59, 72, 96 f.; Baynes, N. H. & Moss, H. St. L. B. (eds.), Byzantium (Oxford, 1953), pp. 99 ff., 215 ; Bury, J. B., History of the Later Roman Empire, vol. II (New York, 1958), pp, 65, 357 ff. [المترجم]

وحوالى عام ١٢٥٥ م كانت باريس تغلى غليانا بسبب ما أطلق عليه اسم « الإنجيل الخالد » [1] Eternal Gospel . وهو عبارة عن رسالة تتضمن رؤيا رمزية تتنبأ بعهد جديد للروح يبدأ فى عام ١٢٦٠ م ، وهو العام الذى يجب أن يبطل فيه العمل بالعهد الجديد ويعزل البابا وهيئة رجال الدين . وعندما اعتنقها بعض الأفراد المتقدمين من جماعة الإخوان الفرنسيسكان ، أصبحت هذه العقائد مجالا لصراع طويل مع الجماعات الرهبانية التى من مبادئها التسول فى طلب الصدقة والإحسان ، ولكن دون الوصول إلى نتائج حاسمة قاطعة . وفى عام ١٢٧٧ م وصل إلى باريس منشور يحتوى على ثلاثين مخالفة فى الآداب أدانتها جامعة أكسفورد ليس باعتبارها هرطقة ، وإنما لأنها كانت تكفى لعزل الأستاذ الذى يقوم بتدريسها . ولكن عندما نجد الأساتذة فى الجامعات يلغون حالات الإسم ونهايات الأفعال فى اللغة اللاتينية [2] [أى عندما يتحدثون بصيغة الغائب]، فإننا نشعر بعطف أكثر نحو الطلاب السيىء الحظ أكثر من إشفاقنا على الأساتذة المعزولين أنفسهم . وإن هذا ليذكرنا بالتعريف الحديث للحرية العلمية بأنها « من حق الفرد أن يعبر عما يفكر فيه ، ولكن دون التفكير فيما يقوله شخص ما ! » .

---

(١) هو عبارة عن سفر رمزى من أسفار العهد الجديد يتميز بغموضه الشديد ، وقد وضعه شخص يدعى يوحنا اللاهوتى من جزيرة بآتموس فى عهد الإمبراطور دوميشيان Domitian ، وفيه يدعى كاتبه أنه يكشف عن مستقبل المسيحية بعد زوال مملكة المسيح الدجال . أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ، ص ٥٥ و ح ٢ . [المترجم] .

(٢) كأن يقول باللاتينية ego currit, tu currit ، أى بصيغة الغائب ، وترجمتها « أنا يجرى ، أنت يجرى » ، وهكذا . وذلك بدلا من التصريف العادى وهو « أنا أجرى ego curro » و « أنت تجرى tu curris » ، وهكذا [المترجم] .

هذه هى الأمثلة الملحوظة فقط فيما يتعلق بالتدخل فى حرية التعليم عندما يغوص الفرد فى زوبعة التأملات اللاهوتية ، وكان ذلك فى أكثر فترات تاريخ العلم حيوية ونشاطا . وهنا يجب أن نقرر أنه كان يوجد قدر كبير من الحرية الحقيقية . ولقد ثارت كل المصاعب والمشاكل تقريبا مما كان يعتبر هرطقة تمس المسائل اللاهوتية ، أو إفراطا فى التطفل فى المسائل والأمور اللاهوتية من جانب اولئك الذين كان ينقصهم التدريب والتعمق فى علم اللاهوت . وأما اولئك الذين ارتبطوا بوظائفهم ارتباطا وثيقا ، فيبدو أنهم قد تركوا وشأنهم بصفة عامة. وكما أجاب المشرع العظيم كوجاس Cujas [1] فى القرن السادس عشر عندما سألوه إن كان على المذهب البروتستانتى أم المذهب الكاثوليكى ، فرد بأن هذا الأمر ليس من اختصاصهم [2] . وحتى فيما يتعلق بمجال الدراسات اللاهوتية والفلسفية الذى كان موضع رعاية أكثر من غيره ، فمن المشكوك فيه أن وجد الكثيرون أنفسهم وقد ضيق الخناق عليهم . ولم يشعر الناس بالقيود المتعلقة بحرية إبداء الرأى مثلما نشعر بها الآن ، بعد أن تقبلوا مبدأ سيادة القانون باعتباره نقطة البداية [فى أى أمر من الأمور] . فلا يعتبر هذا الحاجز عائقا بالنسبة لاولئك الذين لايودون الخروج منه . وإن العديد من الحواجز والعقبات التى كانت تبدو غير محتملة فى عصر زاد فيه الشك والإلحاد ، لم يشعر رجال العلم فى

---

(١) هو المشرع والقانونى المعروف جاك كوجاس (١٥٢٠ — ١٥٩٠ م) . وللمزيد من المعلومات عنه أنظر Stone, op. cit., pp. 136 , 138, 169. [المترجم] .

(٢) وباللاتينية : « Nihil hoc ad edictum praetoris » ، وترجمتها الحرفية : « إن هذا ليس من اختصاص السيد الرئيس » . [المترجم] .

ظلها بأنها حواجز أو موانع . فهو حر من يشعر فيما بينه وبين نفسه بأنه حر طليق .

وعلاوة على ذلك ، فمن السهل على اولئك الذين اعتادوا على التناقضات الواسعة والفجوات العميقة فى وجهات النظر المتباينة فى العالم الحديث ، أن يكونوا صورة زائفة غير حقيقية عن تطابق الفكر واتساقه فى العصر الوسيط . فلم تكن الفلسفة المدرسية ذات طابع واحد ، وإنما كانت متعددة الجوانب والزوايا كما يذكرنا مؤرخوها على الدوام . ولقد ثارت المنازعات واحتدم الجدل والنقاش بين المدارس المختلفة . وكانت الخلافات فى الآراء حادة عنيفة ، مثلما كانت بين الإغريق القدماء ، أو كما هو الحال فى عصرنا الحالى . وإن بدت الاختلافات فى معظم الأحيان عقيمة عديمة الأهمية والجدوى أو غير حقيقية لمن ينظر إليها من بعد ، إلا أنه بوسعنا أن نضعها فى قالب حديث . وذلك ، على سبيل المثال ، بالاتجاه إلى المشكل القديم الخاص بطبيعة التصورات الكلية التى فرقت بين الإسميين Nominalists والواقعيين Realists فى العصور الوسطى . فهل الكليات هى مجرد أسماء ، أم أن لها وجود جدى مستقل عن تحققها ؟ [1] وقد يبدو الأمر برمته سقيما إذا اعتبرنا المسألة مسألة منطق فحسب ، ولكنه مثير حقا بمجرد أن يصبح

---

(١) المقصود بذلك مشكلة الكليات ، ومفادها هل توجد الكليات من حيث هى خارج الذهن ، أم هل توجد داخل الذهن ، أم أنها لا توجد على الإطلاق ، ويوجد الجزء فحسب ؟ وقد كان على رأس الإسميين وليم اوكهام ومدرسته وعلى رأس الواقعيين توما الأكوينى ومدرسته [المترجم] .

مسألة حياة . ذلك أن جوهر حركة الإصلاح الدينى (١) يكمن بدون شك فيما إذا كنا ننظر إلى الكنيسة من وجهة نظر إسمية أم من وجهة نظر واقعية . وتعتمد المشكلة الرئيسية المتعلقة بالسياسة ، إلى حد كبير ، على وجهة النظر الإسمية أو الواقعية للدولة . ولا شك أنه فى سبيل وجهتى النظر الخاصتين بهذه المشكلة مات الملايين من الناس « بطريقة فظة » وبدون وعى ، وفى معظم الحالات وهم غير مدركين لنقاط الخلاف العميقة للسلطة السياسية التى حاربوا من أجلها ، ولكنهم مع ذلك يفهمونها عندما يعبر عنها بشكل ملموس متماسك ، وذلك بوضع مصلحة الدولة فوق مصلحة الأفراد .

وهكذا ، كثيرا ماعالج أستاذ العصور الوسطى الاهتمامات والمصالح الإنسانية الدائمة فى زمنه وبأسلوبه الخاص ، عندما شحذ عقول الناس وأبقى على التقليد العلمى المتصل حيا متقدا .

---

(١) المقصود بذلك الحركة اللوثرية فى القرن السادس عشر نسبة إلى زعيمها مارتين لوثر الذى نادى بالخروج على كل ما انتجته الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية من تعاليم وأفكار فى وقت كانت فيه هذه الكنيسة قد فقدت سيطرتها العالمية وزالت هيبتها وقدسيتها وأخذ الناس ينفضون من حولها ويتشككون فيها بسبب الاغلال الذى دب فى كيانها . وقد كان لهذه الثورة البروتستانتية المعارضة آثارها فى قيام ما عرف فى تاريخ الكنيسة الرومانية باسم حركة الاصلاح الكاثوليكى فى القرن السادس عشر ، والتى أعادت الى الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب بعض ما كان له من مكانة وهيبة فى بداية المسيحية . أنظر عن ذلك Mackie, J. D., The Earlier Tudors (Oxford, 1966), p. 337 f. et sqq.; Vidler, A. R, The Church in an Age of Revolution (London & Beccles, 1968), pp. 215, 239, 258; Cragg, The Church and the Age of Reason, pp 93 ff, 101, 103, 212, 215, 228 f., 276 f. [المترجم].

بعض المراجع للفصل الثانى (١)

Artz, F.B., The Mind of the Middle Ages, A.D. 200—1500: A Historical Survey. New York, 1954.

ويتضمن كتاب ف.ب. أرتز قائمة ممتازة بالمراجع المتعلقة بالفكر فى العصور الوسطى .

Bolgar, R.R., The Classical Heritage and Its Beneficiaries. Cambridge, 1954.

Boyce, G.C., "American Studies in Medieval Education," Progress of Medieval and Renaissance Studies, XIX (1947), pp. 6—30.

Breen, Q., "The Twelfth-Century Revival of the Roman Law," Oregon Law Review, XXIV (1944—1945), pp. 244—287.

Castiglioni, A., A History of Medicine. New York, 1941.

Cavazza, F., Le scuole dell'antico studio bolognese. Milan, 1896.

ويعتبر كتاب ف. كافازا أفضل ما كتب عن حجرات الدراسة فى جامعة العصور الوسطى .

Chambon, F. (ed.), Robert de Sorbon's De conscientia. Paris, 1903.

Crombie, A.C., Augustine to Galileo : The History of Science, A.D. 400—1650. London, 1952.

Cubberley, E.P., Syllabus of Lectures on the History of Education, with Selected Bibliographies. New York, 1902.

يتضمن كتاب أ.ب. كبرلى قائمة مفصلة بالمراجع المتعلقة بالتعليم .

Drane, A.T., Christian Schools and Scholars. New York, 1909.

Duhem, P., Le système du monde de Platon à Copernic. 5 vols. Paris, 1913—1917.

Eckstein, F.A., Lateinischer Unterricht. Leipzig, 1882.

Eckstein, F.A., Lateinischer und griechischer Unterricht im Mittelalter. Ed. by H. Heyden. Leipzig, 1887.

---

(١) أنظر قائمة المراجع المذيل بها الفصل الثامن من كتاب كولتون (ج.ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة – ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف – ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ٢٣٨ – ٢٤٦ ، فهى تتضمن مراجع فى تاريخ الحضارة والثقافة فى العصر الوسيط بعامة ، ومراجع متخصصة فى حرية الفكر وفى الحياة العقلية ، بها فصول عن العلم والتعليم وتبادله .

Gilson, E., History of Christian Philosophy in the Middle Ages. New York, 1955.

Grabmann, M., Geschichte der scholastischen Methode. 2 vols. Freiburg, 1909—1911.

Grabmann, M., Mittelalterliches Geistesleben, Abhandlungen zur Geschichte der Scholastik und Mystik. 3 vols. Munich, 1926—1956.

Graves, F.P., A History of Education During the Middle Ages and the Transition to Modern Times. New York, 1910.

Haskins, C.H., Studies in the History of Mediaeval Science. Cambridge, Mass., 1927.

Haskins, C.H., "The Early 'artes dictandi' in Italy," Studies in Mediaeval Culture (Oxford, 1929), pp. 170—192.

Haskins, G.L., "The University of Oxford and the 'ius docendi'," English Historical Review, LVI (1941), pp. 281—292.

Highet, G., The Classical Tradition. New York & London, 1949.

Laistner, M.L.W., Thought and Letters in Western Europe, A.D. 500—900. London, 1957.

Leach, A.F., Educational Charters and Documents, 598—1909. Cambridge, 1911.

Leach, A.F., Some Results of Research in the History of Education in England with Suggestions for Its Continuance and Extension. Oxford, 1915.

Liebeschuetz, H., Medieval Humanism in the Life and Writings of John of Salisbury. London, 1950.

Masius, H., Die Erziehung im Mittelalter. Stuttgart, 1892.

Monroe, P., Syllabus of a Course of Study on the History and Principles of Education. New York, 1911.

ويتضمن مؤلف ب. مونرو قائمة بالمراجع الخاصة بالتعليم .

Monroe, P. (ed.), A Cyclopedia of Education. 4 vols. New York, 1911—13.

Norton, A.O., Readings in the History of Education : Mediaeval Universities. Cambridge, Mass., 1909.

ويشتمل كتاب ا.ا. نورتون على دراسة قيمة عن كتاب « نعم ولا » للفيلسوف بطرس ابيلارد.

Paetow, L.J., The Arts Course at Medieval Universities with Special Reference to Grammer and Rhertoric. Urbana, III, 1910.

Paetow, L.J. (ed. & tr.), Henri d'Andeli's La bataille des VII arts. Berkeley, Cal., 1914.

Paulsen, F., Das deutsche Bildungswesen in seiner geschichtlichen Entwickelung. Leipzig, 1906.

Poole, R.L., Illustrations of the History of Mediaeval Thought and Learning. London, 1920.

Post, G., "Alexander III, the 'licentia docendi', and the Rise of the Universities," C.H. Haskins Anniversary Essays. (Boston, 1929), pp. 255—277.

وتحدث ج. بوست فى مقاله عن « إجازة التدريس فى الجامعة » .

Post, G., "Master's Salaries and Student-fees in the Mediaeval Universities," Speculum, VII (1932), pp. 181—198.

بينما تناول فى هذه المقالة موضوع المصروفات الجامعية ومرتبات الأساتذة .

Post, G., Giocarinis, K. & Kay, R., "The Medieval Heritage of Humanistic Ideal i "scientia donum Dei est, unde vendi non potest'," Traditio, XI (1955), pp. 195—234.

Richardson, H.G., "Letters of the Oxford dictatores," Oxford Historical Society, n.s., V (1942), pp. 329—450.

Riesman, D., The Story of Medicine in the Middle Ages. New York, 1936.

Sandys, J.E., A History of Classical Scholarship, Vol. I. Cambridge, 1921.

Sarton, G., Introduction to the History of Science. 3 vols. Baltimore, 1927—1948.

Schmid, K.A., Enzyklopädie des gesammten Erziehungs-und Unterrichtswesens. Ed. by W. Schrader. 10 vols. Gotha & Leipzig, 1876—87.

Sikes, J.G., Peter Abailard. Cambridge, 1932.

Smith, D.E., History of Mathematics. Boston & New York, 1923—1925.

Specht, F.A., Geschichte des Unterrichtswesens in Deutschland von den ältesten Zeiten bis zur Mitte des 13 Jahruunderts. Stuttgart, 1885.

Taylor, H.O., The Mediaeval Mind. 2 vols. New York, 1959.

ويعتبر كتاب هـ. ا. تايلور من المراجع العامة التى تتميز بأهميتها البالغة فيما يتعلق بموضوع العلم والتعليم فى العصور الوسطى . هذا ، وقد اعتمد شارل هومر هاسكنز فى كتابه « نشأة الجامعات » على الطبعة الرابعة من مؤلف تايلور ، وهى طبعة كامبريدج سنة ١٩٢٥ .

Taylor, W.J., A Syllabus of the History of Education. Boston, 1909.

Thorndike, L., History of Magic and Experimental Science. 6 vols. New York, 1923—1941.

Vinogradoff, P., Roman Law in the Middle Ages. Oxford, 1929.

Watson, F. (ed.), An Encyclopaedia and Dictionary of Education. 4 vols. London, 1921—22.

Webb, C.C.J., John of Salisbury. London, 1932.

ويعتبر مؤلف وب من أفضل ما كتب عن جون أوف ساليسبورى حتى الآن .

Wieruszowski, H., "Ars dictaminis in the Time of Dante," Medievalia et Humanistica, I (1943), pp. 95—108.

Wieruszowski, H., "Arezzo as a Center of Learning and Letters in the Thirteenth Century," Traditio, IX (1953), pp. 321—391.

Wulf, M. de, History of Mediaeval Philosophy, Vol. I, trans. from the 6th French ed. by E.C. Messenger. New York, 1952.

الفصل الثالث

طالب العصور الوسطى

مصادر معلوماتنا عن طالب العصور الوسطى :

الصعوبات التى تكتنف معالجة موضوع حياة الطالب فى العصور الوسطى - مصادر معلوماتنا عنه : سجلات المحاكم ، اللوائح الجامعية ، الحوليات ، عظات المبشرين ، قصائد الشعراء - أهمية هذه المصادر فى الكشف عن حياة الصخب واللهو التى انغمس فيها بعض الطلبة ، وحياة البؤس والشقاء التى كان يحياها البعض الآخر .

كتاب الطالب :

قاموس الطالب - دليل الطالب - كتاب فن المحادثة - تقويم هايدلبرج - بعض المختصرات الأولية للسلوك والآداب - كتيب فى فن الحديث والمجاملات وكيفية قضاء الطالب يومه الدراسى - كتابا التأدب وآداب المائدة - كتاب الإتيكيت وآداب السلوك .

خطابات الطلبة ومراسلاتهم :

رسائل الطلبة تسلط الأضواء على ظروف الحياة الجامعية - معظمها مجرد نماذج صماء وقوالب جامدة - خلوها من العنصر الشخصى أو الفردى - « طلب المال هو أغنية الطالب الأولى » — مختلف الحجج والأعذار التى يتعلل بها الطالب للحصول على المال من الأهل والأقارب .

أشعار الطلبة وقصائدهم :

الطلبة المتجولون - الجوليارديون والشعر الغنائى الجولياردى - المواضيع التى يتناولها هذا الشعر : الخمر ، النساء ، الحياة المنطلقة المتحررة ، الهجاء ، التهكم على الجهاز الكنسى البابوى - تقييم الشعر الجولياردى والشعراء الجوليارديين ، ونماذج من أشعارهم .

خاتمـة :

حياة الطالب المثالى المجد الوقور ، ومدى كشف شعر العصر ووثائقه عنها ـ أهمية الوثائق والمستندات المتعلقة بالجانب التعليمى فى الجـامعة فى الـكشف عن حياة الطالب ـ الـكتاب الجامعى ـ الإنتاج الأدبى للطلبة يعبر عن صوت المجموع وليس صوت الفرد ـ أوجه الشبه والخلاف بين طالب الأمس وطالب اليوم .

لقد قال الأساتذة أكثر من مرة « تعد الجامعة مكانا مريحا للغاية لو أنها لم تكن الطلبة . » وإذا كنا قد تحدثنا حتى الآن عن الجامعات من وجهة نظر الأساتذة ، فقد جاء دور الحديث عن الطلبة . وسواء اعتبرنا هؤلاء شرا لابد منه ، أو نظرنا إليهم باعتبارهم السبب الرئيسى فى وجود الجامعة ، فمن المؤكد أننا لا نستطيع تجاهلهم أو أن نغض الطرف عنهم . فلم تكن جامعة العصور الوسطى كتيبة من الضباط ، بل كانت « مجتمعا من المدرسين والدارسين » ، أو من الأساتذة وطالبي العلم . لذا يجب أن نوجه عنايتنا إلى هذا العنصر الثانى الأكثر عددا .

لقد بدا طالب العصور الوسطى فى صورة أكثر غموضا من مدرسيه ، لأنه كفرد أقل وضوحا ولفتا للنظر . وعلى هذا يجب أن ننظر إليه فى مجموع الطلبة . وفضلا عن ذلك ، فإن المجتمع الطلابى يختلف اختلافا بينا من حيث الزمان والمكان ، ومن هنا تبدو العموميات والتعميمات فى هذا الصدد صعبة . فما ينطبق على عصر ما أو جامعة بذاتها ، قد لا ينطبق على العصور والجامعات الأخرى . ويكفى القول إننا إذا نظرنا إلى الجامعات الأمريكية التى تعتبر أحدث عهدا من غيرها ، نجد الاختلافات شاسعة بين طلبة جامعة هارفارد فى القرن السابع عشر وبين طلبة جامعتى وليم ومارى فى القرن الثامن عشر وجامعة كاليفورنيا فى القرن التاسع عشر وجامعة كولومبيا فى القرن العشرين . فمن المستحيل ، إذن ، أن نعطى صورة صادقة مما استطعنا جمعه بدون تمييز من المصادر المختلفة المتنوعة . ويبدو أننا لا نستطيع أيضا أن نصف حياة الطالب فى العصر الوسيط وصفا دقيقا ما لم ندرس ظروف كل جامعة من جامعات هـــذا العصر دراسة زمنية كرونولوجية . ولم يحاول أحد معالجة هذا الموضوع الأولى معالجة متسقة منظمة .

وليس أمامنا الآن أكثر من أن نشير إلى المصادر الرئيسية التى استقينا منها معلوماتنا، وما تلقيه من أضواء على حياة الطالب.

وقد استطعنا، لحسن الحظ، أن نحصل على كمية وافرة من المادة التى تعالج شئون الطلبة بطريقة مباشرة تقريبا، وذلك من الشذرات المتناثرة [فى المصادر والأصول] التى خلفتها لنا العصور الوسطى. فهناك، أولا، سجلات المحاكم التى احتفظت من وقت إلى آخر بنبذ حية معبرة عن الحياة فى العصور الوسطى، وذلك ضمن التفاصيل الجوهرية لحوادث الاضطراب والشغب البسيطة والإساءات المتكورة الحدوث. مثال ذلك قضية الطالب البولونى الذى هوجم فى قاعة الدرس بسيف محدب، الأمر الذى ترتب عليه إلحاق أضرار بالغة وخسارة فادحة بأولئك [الطلاب] الذين تجمعوا للاستماع إلى محاضرة دكتور فى القانون رفيع القدر عظيم المكانة. ومثال آخر ذلك الطالب الذى هاجمه أحد الكتبة فى عام ١٢٨٩م فى الشارع أمام قاعة المحاضرات، فأصابه بجرح فى رأسه نتيجة قذفه بحجر، فتفجر الدم بغزارة من رأسه، بينما قدم زميلان لمساعدته مقدمين النصح له قائلين: «هيا .. أضربه .. أضربه ..»، وما أن وقعت الجريمة حتى ولوا الإدبار. وهكذا تروى ملفات المدعين العموميين فى اكسفورد الكثير عن أعمال العنف الدموية التى وقعت فى المدينة، وكذلك حوادث الشغب والفوضى بين طلاب الجامعة. هذا، ويكشف السجل الذى نشر حديثا لعامى ١٢٦٥ و ١٢٦٦م كيف شرع طلبة بولونيا بهمة فى الحصول على المال بالالتجاء إلى الاقتراض أو بيع الكتب الدراسية.

وهناك بطبيعة الحال، لوائح الجامعة والكليات التى تثبت الأمور الممنوعة والمحرمة، والغرامات الموقعة على المخالفات، والتى تنظم كذلك موضوعات المناقشة، وتحدد شكل ولون غطاء الرأس والأرواب، تلك الملابس الجامعية

التى كان الطلبة يرتدونها ، والتى تبدو لنا اليوم من مخلفات العصور الوسطى ، والتى بدت فى شكل حديث تماما عندما اتخذت فى وقتنا هذا طابعها الأمريكى المعروف، كذلك حرصت تلك اللوائح على أن تتضمن المسائل القانونية الهامة ؛ ومثال ذلك المادة التى تحرم على طلبة أى كلية جامعية قذف الكنيسة بالحجارة ، أو العقوبات المتدرجة فى جامعة ليبزيج التى كانت توقع على الطالب الذى يتناول شيئا ليقذف به أستاذه . ويستوى فى ذلك من يقذف أستاذه ولا يصيبه ومن يقذفه ويحدث به إصابة تلحق به الضرر. وكثيرا ما يتوقف كتاب الحوليات عند سرد رواياتهم عن أعمال الملوك والأمراء ليقصوا شيئا عن الطلبة وتصرفاتهم ، ولو أنهم ركزوا انتباههم ، كما تفعل الصحف الحالية التى خلفتهم فى العصر الحديث ، على ثورات عصيان الطلبة وأفعالهم الخارجة على القانون ، أكثر من توجيه اهتمامهم إلى الروتين اليومى المستمر للحياة الأكاديمية .

ويأتى بعد ذلك دور مبشرى العصر . فقد كان الكثيرون منهم أساتذة أيضا ، وقد تضمنت عظاتهم الكثير من التلميحات عن عادات الطلبة وطباعهم . ونستطيع أن نتخذ من مبشرى باريس فى هذا العصر دليلا كافيا على عدم صحة الوهم القائل بأن جامعة العصور الوسطى قد كرست نفسها لدراسة الإنجيل والتربية الدينية ، هذا إن كنا بحاجة إلى دليل آخر بالإضافة إلى ما تقدم . يقول أحد هؤلاء المبشرين « إن قلب الطالب كان متمرغا فى حمأة الوحل ، متعلقا بالدنيويات ووسائل إشباع رغباته منها . » لقد كان الطلاب « كثيرى التخاصم والتشاحن حتى أنهم لم يعرفوا السلام. وأينما ذهبوا وحيثما حلوا ، وسواء أكان ذلك فى باريس أم فى اورليانز ، فقد كانوا يقلقون أمن البلد الذى يحلون به ، كما كانوا يقلقون راحة زملائهم ، حتى أن الجامعة نفسها لم تسلم منهم . » وتجول الكثيرون منهم فى الشوارع والطرقات وهم مسلحين يهاجمون المواطنين ويقتحمون المنازل ويهينون

النساء موجهين لهن ألفاظ الشتائم والسباب . وكان النزاع والخصام يثور بينهم من أجل الكلاب والنساء وأمور أخرى عديدة . فكانوا يقطعون الأصابع بسيوفهم أو بالسكاكين التي يحملونها في أيديهم، ويندفعون دون أن يحمى شيء قمة رءوسهم الحليقة ، حيث ينغمسون في صراعات لا يستطيع الفرسان المسلحون صدها أو دفعها . ويسرع مواطنوهم من الطلبة إلى نجدتهم ، وسرعان ما نجد أمما بأكلها من الطلبة مشتركة في المعركة . وهكذا نجد مبشري باريس يصفون لنا الحالة السائدة في الحي اللاتيني ، فيميطون اللثام عن الكثير من أنشطة الطلبة المختلفة المتعددة الألوان . فنسمع صيحاتهم وأغانيهم التي يتغنون بها في الشوارع على دفوفهم وقيثاراتهم . وهاك أغنية تقول :

الوقت يمضي ،
ولم أعمل شيئا .
الوقت أزف ،
ولم أفعل شيئا . (١)

وتجدنا نسمع « شتائمهم وألفاظهم البذيئة » ، وصفيرهم ، وتصفيقهم ،

---

(١) واص هذه الأبيات بالفرنسية القديمة :

Li tens s'en veit,
Et je n'ei riens fait ;
Li tens revient,
Et je ne fais riens,

Cf. Haskins, C. H., The Rise of Universities (New York, 1960), p. 63 ; Funck — Brentano, F., Le Moyen Age, p. 195.
[المترجم] .

لوحة رقم (٧)



طالبان يطالعان ويتناقشان

[نحت على قبر بدير القديس دنيس بفرنسا]

وصيحات إعجابهم المدوية عند الاستماع إلى العظات والمناقشات . ونراهم وهم يسخرون من جارة لشعرها المستعار ، أو يخرجون ألسنتهم ، ويكشرون المارة ويشوحون لهم بوجوههم . كما نرى الطالب وهو يدرس عند نافذة حجرته يتحدث عن مستقبله مع زميله فى الغرفة . ونراه أيضا وهو يستقبل والديه عند زيارتهما له ، أو عندما يرعاه زملاؤه أثناء مرضه ، أو عندما يرتل المزامير فى جنازة أحد الطلبة . كذلك نراه عندما يزور أحد زملائه من الطلبة ، ويطلب منه زيارته قائلا له : « لقد قمت بزيارتك ، والآن فلتتفضل عندى فى دارى . »

وهكذا نجد جميع النماذج ممثلة . فهناك الطالب الفقير الذى لا صديق له سوى القديس نيقولا [١] ، وهو يحاول الحصول على صدقة يقدمها له أحد الناس ، أو يحصل على راتب زهيد بحمل المساء المقدس أو بنسخ الكتب للآخرين بخط جميل غير دقيق . وقد نجده فقيرا معدما لا يستطيع شراء الكتب أو الوفاء بمصاريف دراسة أحد مناهج العلوم اللاهوتية . ومع ذلك فهو ، عادة ، متفوق على من هم أحسن حالا منه من أقرانه الذين لديهم وفرة من الكتب التى لا يلقون عليها نظرة واحدة على الإطلاق . وهناك أيضا الطالب المتيسر الذى يملك إلى جانب كتبه ومكتبه شمعة تضىء حجرته وفراشا وثيرا مريحا تعلوه مرتبة ناعمة وعليه أغطية تدل على الترف الذى يعيش فيه ، ونجده يقع تحت عوامل الإغراء وينغمس فى الولع الذى اشتهرت به العصور الوسطى بارتدائه الثياب الفاخرة تحت زيه الجامعى وغطاء الرأس ، وفى حجرته أيضا دولاب الملابس البسيط ـ تلك الأمور التى حددتها اللوائح الجامعية .

وإلى جانب الطلبة البؤساء والمتيسرين ، نجد أيضا الطلبة الكسالى والمتسكعين

---

(١) كان القديس نيقولا St. Nicholas أسقفا على ميرا Myra فى ليسكيا فى عهد الإمبراطور الرومانى دفلديانوس . وهو محل تقديس الإغريق واللاتين على السواء ، ويعرف عند الغربيين باسم سانتا كلوز Santa Claus . ويقع عيده فى السادس من ديسمبر من كل عام . وقد اضطهد وعذب بسبب عقيدته وظل فى السجن حتى عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير الذى تميز بالتسامح حيال المسيحية وأتباعها . ويقال إنه حضر مجمع نيقية المسكونى الذى عقد سنة ٣٢٥ برئاسة الإمبراطور قسطنطين ، وإن كانت لا توجد أدلة كافية على ذلك . أنظر مقالة نيقولا (القديس) فى دائرة المعارف البريطانية (طبعة سنة ١٩٦٤) ، ج ١٦ ، ص ٤١٦ ، وكذلك Crump & Jacob, Legacy of the Middle Ages, p, 147. [المترجم] .

الطائشين الذين لاهدف لهم يسعون إليه ، وهم يهجرون مدرسا وينضمون إلى مدرس آخر ، أو وهم يتنقلون من مدرسة إلى أخرى . فهم لايستمعون إلى مناهج تامة كاملة أو إلى محاضرات منتظمة . كما نجد آخرين لايعنيهم سوى أن يطلق عليهم اسم طلبة وهم ينعمون بالدخل الذى يتقاضونه فى فترة التحاقهم بالجامعة ، فيذهبون إلى حجرة الدراسة مرة أو مرتين فحسب كل أسبوع ، ويفضلون اختيار المحاضرات الخاصة بالقانون الكنسى التى تسمح لهم بوقت كاف للنوم فى فترة الصباح . ويتناول كثير منهم الكعك فى الوقت الذى يجب أن يتواجدوا فيه فى الدراسة ، أو نجدهم يغطون فى النوم فى حجرات الدراسة نفسها، ثم يمضون بقية وقتهم فى الشراب فى الحانات أو بنـاء الحصون فى أسبانيـــا Castella in Hispania . وعندما يحين الوقت لمغادرة باريس يعودون إلى آبائهم ومعهم المؤلفات الضخمة المجلدة بجلد العجول ذات الهوامش العريضة والأغلفة الحـمـــراء الجميلة ليظهروا لذويهم مقدار علمهم . وبذلك نجدهم يعودون إلى آبائهم بأحمال مليئة بالحكمة وعقول خاوية منها . ويتساءل المبشر قائلا : « أى معرفة هذه التى قد يسرقها اللصوص وتلتهمها الفيران والعثاء ويعطبها الماء وتأتى عليها النيران ؟ » ثم يقدم لنـا مثلا عندما يسقط جواد الطالب فى النهر حاملا كل كتبه معه .

وهناك أيضا عدد من هؤلاء الطلبة لايعودون إلى أوطـانهم بالمرة ، بل يستمرون فى الاستمتاع بحمق وغباء بثمار دخولهم ومعاشاتهم وحتى فى أثناء العطلات عندما يعود الأغنياء مع خدمهم راكبين جيادهم والفقراء مترجلين إلى أوطانهم تحت شمس محرقة ، يبقى كثير من المتسكعين فى باريس مما يؤدى إلى إلحاق الضرر بهم وبالمدينة نفسها .وعلينا أن نتذكر أن باريس فى العصور الوسطى

لم تكن « أم العلوم » التى لا تبارى فحسب ، بل كانت أيضا مكانا للترفيه الحسن والرمالة الطيبة ومختلف المتع والمباهج، كما كانت ملاذا مفضلا ليس فقط للشغوفين بتحصيل العلم بل أيضا للكهنة الريفيين فى عطلاتهم . ولذا فليس مما يدعو إلى الغرابة أو الدهشة أن يمد طلاب العلم أحيانا فترة إقامتهم دون مبرر ، أو يتباكون عند رحيلهم عنها بعبارات أكثر بلاغة من المعتاد .

ولم يغفل شعراء العصر شأن الطلبة . ومن بين هؤلاء الشاعر [الفرنسى] وليم رتبف [1] Guillaume Rutebeuf الذى يعطينا صورة عن باريس فى القرن الثالث عشر تشابه تلك التى زودنا بها الوعاظ الدينيون . هذا ، بينما نجد جان دى هوتفيل [2] Jean de Hauteville فى القرن السابق له يصور تعاسة

---

(١) عاش وليم رتبف فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى (١٢٤٥ — ١٢٨٥ م) . ونراه فى إنتاجه الشعرى يسخر سخرية مريرة من الجهاز الكنسى البابوى الذى دب فيه الفساد . ففى إحدى قصائده يهاجم الفكرة الصليبية قائلا فى صراحة تامة إنه من الحماقة والغباء أن يخاطر الإنسان فى اوروبا فى حرب تتسم بالطابع الدينى خارج بلاده مادام بوسعه أن يتصل بالله فى وطنه وهو بين أهله وعشيرته، وأن يعيش فى نعمة ويسر وسلام. أنظر جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، ط . ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧)، ص ٩٨—٩٩ و ٣٠٥ و٣٣٦ —٣٣٧ ؛ جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبى والرأى العام الغربى (الاسكندرية ١٩٦٨)، ص ٤٩—٥٠ . أنظر أيضا Masson, G., Mediaeval France (London, 1888), p. 96 f. [المترجم] .

(٢) جان دى هوتفيل شاعر نورمانى عاش فى أواخر القرن الثانى عشر ، وقد ألف قصيدة باللغة اللاتينية سداسية الوزن تعرض فيها لمفاسد العصر الذى عاش فيه وبخاصة جشع وتكالب أصحاب الدرجات العليا فى السلك الكنسى . انظر عن ذلك Larousse de XXe siècle, t. IV (Paris, 1931), p. 168. [المترجم]

الطالب الفقير المثابر الذى يقع فى سبات عميق وهو منكب على كتبه ، كما يهجو نيجل [١] Nigel الطلبة الإنجليز الذين يتلقون العلم فى باريس فى شخصية حمار [٢] يدعى برونيللوس Brunellus ، والذى أشار إليه [الشاعر الإنجليزى المعروف] تشوسر باسم « دون بيرنل » [٣] « Daun Burnell » . فهو يقص علينا كيف أنه أمضى هناك سبع سنوات يدرس دون أن يتعلم كلمة واحدة . وفى نهاية المرحلة ينهق تماما كالحمار مثلما كان يفعل فى بدايتها ، ثم يترك المكان فى آخر الأمر وقد اتخذ قرارا أن يصبح راهبا أو أسقفا . وإن أفضل وصف يمتاز بدقته لحياة طالب هو وصف تشوسر الذى لا يوجد مثيل له لطالب علم من اوكسنفورد Oxenford خاوى الوفاض رث الثياب غير متعلق بحطام الدنيا ، فهو يقول :

كان يفضل أن يكون عند مقدمة فراشه
عشرون كتابا مجلدة بجلدة سوداء أو حمراء

---

(١) تتلمذ نيجل على أنسيلم اوف لون Anselm of Laon ، وأصبح أسقفا على ايلى Ely سنة ١١٣٣ م ، وتوفى سنة ١١٦٩ م . أنظر مقالة « نيجل » فى دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٦٤) ، ج ١٦ ، ص ٤٣٧ [المترجم]

(٢) كان الحمار يرمز منذ عهد الإغريق القدماء وفى الأساطير والأمثال القديمة الى بلادة الذهن والجهل والغباء . ومن هنا جاءت تعبيرات وحكم وأمثال عديدة . أنظر من ذلك Murray, J. A. H. (ed.), A New English Dictionary on Historical Principles, vol. I (Oxford, 1888), p. 498. [المترجم] .

(٣) جاء ذكر هذه الشخصية فى قصيدة بعنوان « متفقه من اكسفورد » Oxford clerk ، والمقصود بلفظة « دون بيرنل » الأستاذ الحمار ، وذلك تهكما على الطلبة الحمقى الأغبياء . [المترجم] .

من كتب أرسطو وفلسفته ،
يفضلها عن الثياب الثمينة وآلات الطرب المرحة .
... ...
وكان حديثه عادة يدور حول فضائل الخلق ،
ويجد لذة فى أن يتعلم ، كما كان يجد لذة فى أن يعلم . (١)

ولكن ، بعد كل ما تقدم فإن أحدا لا يعرف عن حياة الطالب أكثر من الطلبة أنفسهم. ولذا أود أن أقتبس من المصادر الأدبية التى كتبها الطلبة فى العصور الوسطى ، أو من تلك التى كتبت عنهم . وإن ما خلفوه من تراث علمى يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أنواع هى : كتاب الطالب ، وخطاباته ، والشعر الذى كان يقرضه . ولنبدأ فى التأمل فيها على التوالى .

أما عن « كتاب الطالب » فى العصور الوسطى الذى يتضمن النصائح والمشورة ، فهو لا يتطلب الوقوف طويلا أمامه . فثمة مقالات رسمية عن كل

---

(١) وفيما يلى نص الأبيات المذكورة بالإنجليزية القديمة :

For him was lever have at his beddes heed
Twenty bokes, clad in blak or reed,
Of Aristotle and his philosophye,
Than robes riche, or fithele, or gay sautrye
. . . .
Souninge in moral vertu was his speche,
And gladly wolde he lerne, and gladly teche.

أنظر Haskins, op. cit., pp. 65-66. — وهذه الأبيات قالها تشوسر فى مقدمته لقصص كانتربرى ، وهى كلها تدور حول طلبة العلم فى العصر الوسيط الذين يدورون فى دائرة الدين . وأرقام أسطر هذه الأبيات فى مقدمة قصص كانتربرى هى ٢٩٣ - ٢٩٦ و ٣٠٧ - ٣٠٨ [المترجم] .

واجبات الطلبة ، وقد تميزت بما اعتاد عليه العقل فى الدراسة فى العصور الوسطى. ولكن النصائح والتوجيهات التى احتوتها ما هى إلا نصائح وتوجيهات تتميز بعموميتها الشديدة ، ويمكن تطبيقها من عصر إلى آخر . وكان يعوزها الأمثلة الملموسة التى تجعل عظات العصر تنبض بالحياة باعتبارها مصادر ذات فائدة فى الكشف عن الحياة الجامعية .

وثمة نموذج أكثر أهمية وإقناعا من كتاب الطالب ، ألا وهو « قاموس الطالب » الذى يدين بوجوده إلى متانة مركز اللغة اللاتينية باعتبارها اللغة الدولية السائدة فى دوائر العلم والتعلم فى القرون الوسطى . فقد كانت المحاضرات والكتب الدراسية المقررة مكتوبة كلها باللغة اللاتينية . وأكثر من ذلك ، كان الطلبة ملزمين باستخدام اللاتينية فى أحاديثهم ومحادثاتهم. وقد وضعت هذه القاعدة للحد من التخاطب ، وحتى تكون دافعا لهم على تحصيل العلم فى ذات الوقت . وكان يتم تنفيذها بتوقيع العقوبات على المخالفين وبواسطة مخبرين كان يطلق عليهم لفظ « ذئاب » .

هذا ، والطالب المستجد ، أو ذو المنقار الأصفر كما كان يطلق عليه فى الأحاديث الخاصة بالعصور الوسطى ، قد يجد نفسه غير مزود بما يجعله مفهوما فى مجتمعه الجديد . وتيسيرا له فقد أعد له أستاذ من جامعة باريس فى القرن الثالث عشر يدعى جون أوف جارلاند[1] John of Garlande كتابا بالمفردات اللغوية التى تساعده على وصف مختلف الأشياء . وقد تم تبويبه حسب الموضوع ، كما تم تخصيص أجزاء كبيرة منه للأشياء التى يراها الطالب أثناء تجواله فى شوارع

(١) حول جون أوف جارلاند ، انظر ماسبق ص ٣١٤ وح١ من هذا الكتاب [المترجم].

باريس . (١) وهكذا ، يقود الكتاب قارئه من حى إلى آخر ، ومن حرفة إلى أخرى ، ومن مكتبات بارفى نوتردام Parvis Notre — Dame وسوق الدواجن القائم فى الشارع الجديد المجاور إلى موائد الصيارفة وحوانيت الصاغة عند الجسر الكبير وإلى صانعى الأقواس عند بوابة القديس لعازر (٢) . ولم يغفل المؤلف فئات العمال Ouvrières التى يحتمل جدا أن يتعرف إليها الطالب . فهناك السروجية وصانعو القفازات والفراء ، وهناك أيضا الإسكافيون والصيادلة ، الذى قد يستخدم الطالب سلعهم وبضائعهم جميعا . هذا ، إلى جانب مكتبه والشموع وأدوات الكتابة التى تعتبر من مستلزمات دراسته . وكان للطالب صلات كثيرة مستمرة ببائعى الطعام والشراب الذين انتشر وكلاؤهم يعرضون بضائعهم بلجاجة وإلحاح ونشاط فى شوارع الحى اللاتينى وبين أزقته ودروبه ، وهم يقدمون السلع الرخيصة للطلاب ويخدمهم . كما وجد باعة النبيذ الجائلون يصيحون معلنين عن عيناتهم لمختلف أنواع الأشربة التى توجد فى الحانات . وثمة بائعو الفاكهة يغشون الطلبة فى الخس والجرجير والكريز والكمثرى والتفاح الأخضر . وفى الليل كان هناك باعة فطائر الحلوى بسلالهم المغطاة بعناية وهم يبيعون الرقاق والكنافة والمحشيات التى كانت رهانا مألوفا بين الطلبة فى مباريات النرد التى كانوا يلعبونها . وكان من عادتهم أن يدلوا بالسلال التى يربحونها من

---

(١) وهو أشبه ما يكون بكتب الأدلة التى يستخدمها السياح فى العصر الحديث [المترجم] .

(٢) هذه الأماكن والبقاع محددة على خريطة « باريس فى عصر فيليب أوغسطس » ، وكذلك خريطة « باريس فى العصور الوسطى » بآخر القسم الأول من هذا المجلد . [المترجم] .

نوافذهم عندما يستطيع أحدهم إلقاء « الرمية » المحظوظة فى لعب النرد وهى « ستة » . وكان لدى صانعى الفطير والحلوى pâtissiers كثير من السلع الدسمة التى تتناسب مع أذواق الطلبة كالكعك المحشو بالبيض والجبن وفطائر لحم الخنزير ولحم الدجاج والشمابين المتبلة بالفلفل . وكثيرا ما لجأ خدم الطلبة إلى الشوائين rôtissiers ليس فقط للحصول على الحمام والأوز والطيور الأخرى المشوية على سياخهم ، بل أيضا للحصول على لحم البقر والخنزير والضأن النيء والمتبل بالثوم وبعض الصلصات المركزة . ولكن مثل هذا النوع من الطعام لم يكن للطلبة الفقراء الذين دفعتهم أكياس نقودهم الفارغة إلى تناول الكرشة وأنواع السجق المختلفة التى قد تنشب بسببها بسهولة معركة تؤدى إلى « ذبح الجزارين أنفسهم على أيدى الطلبة الحانقين الساخطين . »

ونترك هذا القاموس الذى يحتفظ به الطالب إلى كتاب من نوع آخر وهو « كتاب فى فن المحادثة » . وكانت هذه الطريقة لتعلم اللغات الأجنبية طريقة قديمة ، فهى من مخلفات مصر القديمة ، وهناك شواهد على ذلك . وما زالت مثل هذه الكتب توقع فى شباكها السائح الغافل غير الحذر الذى يعد العدة لزيارة أوروبا ، كأن يذهب مثلا إلى مدينة اوليندورف Ollendorff . ويبدو أن هذه الطريقة قد هيأت لكتاب العصر الوسيط المتأخر فرصة استثنائية لربط تعلم اللغة اللاتينية بالنظام الأكاديمى السائد . وقد تركت لنا آثارا ومخلفات من المدرسة والجامعة على السواء يمكن تصفحها ومطالعتها .

ولعل أمتع هذه الكتب المدرسية هو الذى يحمل عنوان « كتاب الطلاب الذين يعتزمون الالتحاق بالجامعات الطلابية والإفادة منها » . وبينما الكتاب فى شكله العام قد صمم لطلبة جامعة هايدلبرج [الألمانية] فى سنة ١٤٨٠ م ،

إلا أنه أمكن تكييفه بإجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه ليناسب أى جامعة من الجامعات الألمانية ، حتى أننا نستطيع أن نطلق عليه إسم « تقويم هايدلبرج » . وقد رتبت فصوله الثمانية عشرة بهدف إعداد الطالب من شهادة الثانوية العامة إلى الدرجة الجامعية . ثم أنه يزوده بمعلومات عن كثير من الموضوعات التى لا أهمية لها . فعندما يصل الشاب [إلى الجامعة] يقيد إسمه ويذكر أن والديه يتمتعان بظروف طيبة معقولة ، وأنه قد حضر للدراسة وتلقى العلم . ثم إذ به يجابه بالتقاليد الألمانية التى تسبب إزعاجا له ، فهى تعتبر الطالب حيوانا قذرا له قرون وأنياب لابد وأن يقتلعها زملاؤه الفضوليون الذين يستمعون أيضا إلى اعترافه بآثامه وخطاياه ، ثم يلزمونه بإقامة عشاء جيد كفارة له . وبعد ذلك يبدأ دراساته بحضور ثلاث محاضرات يوميا ، ويتعلم كيف يناصر الإسمية nominalism ضد الواقعية realism ، (١) وكيف يقف مع مسرحيات تيرانس (٢) Terence الكوميدية ضد القانون ، ويناقش مزايا الجامعات المختلفة وثمن الطعام ونوع الجعة السائدة فى المدن الجامعية . ثم نجده يتشاحن

---

(١) فيما يتعلق بالإسمية والواقعية ، أنظر ماسبق ص ١٠٥ وح٢ و ٣٣٥ من هذا الكتاب . [المترجم] .

(٢) هو بوبليوس ترنتيوس افر Publius Terentius Afer ، ولد حوالى سنة ١٨٥ ق . م وتوفى حوالى سنة ١٥٩ ق . م . وهو يعتبر أعظم كتاب الرومان فى كتابة المسرحيات الكوميدية بعد بلاوتوس Plautus . ومعلوماتنا عن سيرته وحياته مستقاه مما ذكره عنه سوتونيوس Suetonius (ق ٢ م) . ونعرف أنه ولد فى قرطاجنة ، ثم ذهب إلى روما كعبد يعمل فى منزل السناتور ترنتيوس لوكانوس Terentius Lucanus الذى قام بتعليمه وتحريره من ربقة العبودية . وقد نجح تيرانس فى اكتساب صداقة عدد من النبلاء الرومان الذين أدوا له مساعدات جليلة . وله العديد من المسرحيات أولاها مسرحية باسم =

مع زميله فى الحجرة لأنه وجد كتابا موضوعا فى غير مكانه ، أو وهو يندفع عند سماع أول رنين لناقوس تناول الغذاء حيث يبدأ الحديث بين الطلاب عن القيمة الغذائية لحم البقرى والفول . ونجده أيضا وهو يسير فى الحقول بعيدا عن النطاق الجامعى متتبعا طريق الفلاسفة المشهور الذى اجتذب إليه الأجيال العديدة من شباب هايدلبرج . ونجده يتبادل الملاحظات [مع زملائه] باللغة اللاتينية عن الطيور والأسماك أثناء تجواله . ثم نجد بعد ذلك المناظرات والمحاورات القصيرة ، مثال ذلك طالب العلم الذى يخالف اللوائح فيقترض نقودا ويعيدها [إلى من اقترضها منه] ، أو الطالب الذى يقع فى شراك الحب ثم يفيق منه ، أو ذلك الذى يذهب لسماع راهب ايطـــالى بدين مفرط السمنة وهو يعظ ، أو يشاهد الحواة والمشعوذين أو يتابع المباريات بين الفرسان فى ساحة السوق . ومنه يعرف أيضا أن أيام الشعر[1] آتية ، فهو يحس بها تدور فى رأسه . وأخيرا يخبره والده بأن الوقت قد حان للحصول على درجته الجامعية

== « اندريا » Andria ، وقد توجه بعد انتاج آخر مسرحياته وهو فى سن الخامسة والعشرين إلى الشرق ، ولم يعد ثانية إلى الغرب . ومما يذكر أن اللغـة اللاتينية التى كتب بها تيرانس والتى تميزت بسهولتها وبساطتها ، فضلا عن النغمة الأخلاقية التى تبدو واضحة فى مسرحياته ، جعلته من الكتاب المفضلين فى العصور الوسطى . هذا ، وقد نهجت هرتسويت Roswitha الراهبة فى دير جاندرزهايم فى القرن العاشر نهج تيرانس فى ست مسرحيات كوميدية مسيحية الطابع . أنظر مقالة « تيرانس » فى دائرة المعـارف البريطانية ، ج ٢١ (طبع شيكاجو ، ١٩٦٤) ، ص ٩٤٧ ـ ٩٤٨ ؛ راجع أيضا Blakeney, E. H., A Smaller Classical Dictionary (London, 1923), pp. 522—528. [المترجم] .

(١) يطلق عليها لفظ « dog — days » ، وهى تقع بين أواخر يوليو ونهاية سبتمبر من كل عام ، أى أنها بين تموز وأيلول [المترجم] .

ليعود إلى وطنه . وعندئذ يعتريه القلق والاضطراب ، « فقد واظب على عدد قليل من المحاضرات » ، وعليه أن يقسم أنه قد حضر بانتظام ، وهو لم يبذل الكثير من الجهد . وقد تعرض لعداوة كثير من الأساتذة ، ويثنيه أستاذه عن دخول الامتحان لأنه يخشى عار الرسوب ولكن عادته فى هذه المحاورة يؤكد له باقتباس مناسب من أوفيد [1] Ovid ، بأن توزيع الهدايا بحكمة وحذر قد يفعل الكثير. فما هى إلا قروش يستطيع بها كسب عطف الجميع. ويطلب منه الاتصال بأهله لإمداده بمبالغ أكثر ، ثم يدعو أساتذته إلى وليمة فاخرة . فإن عاملهم معاملة حسنة فلن يخشى النتيجة . وهكذا تلقى هذه النصيحة ضوءا عجيبا على مستويات العصر التربوية . ويبدو أنها كانت عادة متبعة ، لأن الكتاب ينتهى بمجموعة من نماذج دعوات الأساتذة للولائم والحمامات المجانية التى تسبقها .

فإذا كان طلبة الجامعة قد احتاجوا لمثل هذه المختصرات الأولية للسلوك والآداب ، فمن الواضح أنه كان لها فى المدارس الأدنى من الجامعات مجالا رحبا

(١) أوفيد شاعر لاتينى ولد سنة ٤٣ ق. م من أسرة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة . درس الخطابة ، واستكمل تعليمه فى أثينـا ، ثم سافر إلى صقلية وآسيا . وقد عاش فى عصر الإمبراطور اوغسطس وتمتع بعطفه ورضاه . ثم نفى سنة ٩ ق. م إلى منطقة البحر الأسود ، وربما كان ذلك بسبب قصيدة غرامية له تسمى « فن الغزل » أو بسبب علاقته الغرامية بجوليا ابنة اوغسطس. وتوفى فى المنفى سنة ١٧ م وله من العمر ٦٠ عاما ولأوفيد أعمال كثيرة متعددة وباقية . أنظر مقالة أوفيد فى كتاب Warrington, J, Everyman's Classical Dictionary (London, 1969), p. 376; Barrow, The Romans, pp. 119, 121; Carcopino, Daily Life in Ancient Rome, pp. 116, 171, 178, 219. [المترجم] .

فسيحا ، حيث اتخذت طابعا شعريا باللغة اللاتينية يتطبع بسرعة فى ذاكرة التلميذ. ويبدو أن مثل هذه الكتيبات المدرسية الأولية كانت شائعة فى مدارس المدن فى ألمانيا فى أواخر القرن الخامس عشر ، والتى أبرز أهميتها بما فيه الكفاية المؤرخون الحديثون المعنيون بالتعليم الثانوى. ففى أثناء ترحالهم من مدينة إلى أخرى ، مثلهم فى ذلك مثل الطلبة المتجولين (١) فى عصر سابق ، أصبح هؤلاء الأولاد الألمان فى حاجة ملحة لمراعاة أصول الأخلاق والقواعد العامة فى آداب السلوك ، مع العمل على تزويدهم بها . وكانت بداية الحكمة عند الطالب تتمثل فى تذكر الخالق وطاعة الأستاذ . وكان على الطالب مراعاة سلوكه وتصرفاته فى الكنيسة، وأن يرفع صوته أثناء الترانيم والتراتيل.(٢) وكان الحضور الإجبارى إلى الكنيسة والترنيم مع زمرة المرتلين يعتبر من السمات المألوفة لهذه المدارس.

(١) يقصد الشعراء المتجولين فى بروفانس جنوبى فرنسا والمعروفين بإسم التروبادور Troubadours ، وكذلك الشعراء المعروفين باسم التروفير Trouvères فى الشمال . وقد ظهرت أشعار التروبادور فى أواخر القرن الحادى عشر، وهى مأخوذة عن الشعر العربى الأندلسى الذى عرف بالغزل الرقيق والرثاء الباكى. ويرى كثير من المؤرخين أن «تروبادور» أصلها لفظة عربية هى « دور طرب » ثم قدمت الصفة على الموصوف فأصبحت « طرب دور» وأخيرا حرفت إلى « تروبادور » كما حدث بالنسبة لكثير من الألفاظ العربية التى وجدت مكانها فى اللغات الأجنبيـة . أنظر سعيد عاشور : المدنية الاسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، ص ٧٢ وما بعدها ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ، ص ١٣٥ . راجع أيضا Crump, C. G. & Jacob, E. F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages (Oxford, 1951), pp. 190, 405 ; Coulton, Medieval Panorama, pp. 207, 208 ; wallon, H., Saint Louis (Tours, 1879), p. 364 ff. [المترجم] .

(٢) المقصود بذلك المردات . [المترجم]

وعلى الطالب، أيضا، الاحتفاظ بالكتب نظيفة، والمبادرة بدفع مصاريف المدرسة. كذلك يجب عليه غسل الوجه واليدين فى الصباح؛ أما الحمامات فكان لا يزورها بدون الحصول على إذن بذلك. ولم يكن مسموحا للفتيان بالانزلاق على الجليد أو اللعب بكرات الثلج. وكان يوم الأحد هو اليوم المخصص للهو. وكان اللعب فى فناء الكنيسة فقط حيث وجب على الفتيان عدم لعب النرد أو كسر الأحجار من الجدران أو إلقاء أى شىء على الكنيسة. وكانت اللاتينية هى اللغة التى يتحدثون بها، سواء أثناء اللعب أو فى البيت.

ويوجد كتيب آخر يرجع إلى القرن الخامس عشر، وهو أكثر تنسيقا وأحسن تنظيما مما سبق، ومحفوظ فى نسخة خطية توجد بالمكتبة الأهلية فى باريس (١). يقول مؤلفه: «لما كان سخف الشباب وغباؤهم لا يمكناهم من التقدم فى معرفة اللغة اللاتينية اللهم إلا من الوجهة النظرية فحسب»، لذلك فقد أعد المؤلف لمساعدتهم مجموعة من النماذج التى تتضمن العبارات وأساليب الحديث التى يكثر الطلبة من استخدامها. وهى تبدأ بذكر ما يتعلق بالمجاملات فى الحياة المدرسية، وأن طاعة الأستاذ وتبجيله هما بداية الحكمة. فيجب على الفتى أن يتعلم كيف يقدم التحية لأستاذه، وكيف يستأذنه عند الانصراف، ثم كيف يعتذر عن الخطأ الذى ارتكبه، وكيف يدعو أستاذه لتناول الغذاء أو العشاء مع والديه. ويوجد نحو ستة نماذج من مثل هذه العبارات. كذلك يتعلم كيف يستطيع الإدلاء بالإجابات الصحيحة لأولئك الذين يختبرون معلوماته «حتى لا يبدو غبيا أبلها أمام والديه». فإذا سأله الأستاذ مثلا «أين كنت هذه الغيبة الطويلة؟»، فعليه أن يكون على

---

(١) MS. Lat. n.a. 619, ff. 28–35.

استعداد ليس فقط بأن يدعى أنه كان يقاسى من صداع لم يستطع تجنبه أو أنه لم يستطع الاستيقاظ فى الميعاد ،بل عليه أيضا أن يعبر عن أسباب التأخير المعروفة جيدا للصبى القروى ، كأن يقول إنه كان يتولى أمور البيت ، أو إنه كان يرعى الماشية ، أو إنه كان منوطا بتقديم ماء الشرب للجواد ، أو إنه قد احتجز لحضور حفل زفاف أو لجمع الكرم أو كتابة الفواتير ، أو تحضير الجعة وتقديمها للضيوف وهى التى اعتاد الصبية الألمان على عملها .

وفى المدرسة بعد التزود بالغذاء الروحى فى درس ترانيم الصباح، يأتى الغذاء الجسدى . فقد كان هذا يقدم ، عادة ، بعد ساعات الدراسة « لأن قوة الفضيلة المتقدة القادرة على الإبداع يعوقها — عادة — الامتلاء والشبع الحديث » . وأثناء الحديث فى فترة الغذاء أو أثناء اللعب فى الفناء « كان الطلبة يميلون إلى التخلى عن المصطلحات اللاتينية والتحدث باللغة الأم » . وكان الذى يتحدث اللغة الألمانية ينعته الأستاذ الحازم بلفظ « الحمار » (١) رمزا للحمق والجهل البالغين . ويحاول كل من يحمل هذا اللقب جاهدا أن ينزعه عن نفسه ليلقب به آخر ، وهكذا .ويأخذ الحوار بين الطلبة والأستاذ الشكل التالى :يقول أحد الطلبة متسائلا بالألمانية : « من الذى يريد أن يشترى قلما ؟ » ويرد آخر بالألمانية كذلك : « أنا أريد أن أشترى قلما . » فيعقب الأستاذ باللاتينية : « أنت إذن الحمار » ، ويستطرد قائلا : « آه .. يالك من أحمق غبى ! » (٢) وكان الضحية يعرض على

---

(١) أنظر ، ماسبق ، ص٣٥٣ ح٢من هذا الكتاب . [المترجم] .

(٢) ونص الحوار كما ورد فى كتاب هاسكنز كالآتى : «Wer wel ein Griffel kouffe[n] ? » « Ich wel ein Griffel kouffen. » « Tecum sit asinus. » « Ach, quam Falsus es tu !», cf. Haskins, op. cit., p. 73. [المترجم] .

الذى خدعه أحيانا أن يلتقيا بعد صلاة المساء ، وهنا يبدأ هزر تعود عليه طلبة المدارس حيث يتبارى فيه الطالبان . ولما كان التضارب باللكمات ممنوعا فى المدرسة ، فقد تعلم الفتيان كيف يتحدثون عن عداءهم وخصوماتهم ، وكيف يدونون شكاياتهم فى حوار باللغة اللاتينية . ويبدأ الحديث كالآتى : « لقد كنت خارج المدينة بعد أن حل الظلام ، ولعبت مع العلمانيين يوم الأحد ، وذهبت للسباحة يوم الإثنين ، وتغيبت عن صلاة الصباح واستغرقت فى النوم أثناء القداس ». ثم يشكو قائلا : « أستاذنا المبجل .. لقد لطخ هذا الفتى كتابى وهو يصيح ورائى أينما ذهبت وهو يسبنى ويلعننى . »

وبالإضافة إلى المجادلات الرسمية ، كان الطلبة يتناقشون فى الأحداث الجارية مثل معركة فى الشارع ، أو زفاف ابن عم ، أو الحرب المتوقع نشوبها مع دوق سكسونيا ، أو الوسيلة التى يمكن الوصول بها إلى إرفورت Erfurt فى ألمانيا حيث ينتوى أحدهم الذهاب هناك عندما يبلغ السادسة عشرة من العمر للدراسة فى الجامعة . وكانت التجربة القاسية التى يعانى منها الطالب فى يومه الدراسى هى سؤال الأستاذ له فى النحو اللاتينى الذى يصل إلى حد الأحاجى والألغاز ، وذلك عندما يأتى الدور على كل طالب لسؤاله « auditio circuli » . وكان على التلاميذ أن يتلوا على أستاذهم ماحفظوه من تكوينات وتصاريف . فيبدأ الكسالى فى الارتعاش عندما تحين ساعة الدرس . وكان الطلبة يتمنون ألا يحضر الأستاذ قائلين : « عنده ضيوف » ، و « لكن سيتركونه فى الوقت المناسب » ، و « قد يذهب إلى الحمامات » ، و « لكنه لم يمض على ذهابه إليها منذ آخر مرة أسبوع كامل » ثم يقولون : « ها هو قد حضر . أذكر إسم القط فإذا به

ينط » (١) ويرتسكن الطالب المرتجف فى النهاية على أمنيته الوحيدة بأن يجلس بجوار طالب يعد بأن يلقنه .

«وعندما ينتهى التسميع غيابيا ويلقى الأستاذ الدرس ، يبدو البشر على وجوه الطلاب لاقتراب ساعة العودة إلى المنزل» . فينغمسون فى حديث فارغ « سنحذفه من هنا خشية أن يكون وسيلة للإساءة » ، وعلى أية حال ، يخفف احتدام الجدل بين الطلبة ، والذى يسبق انصرافهم ، من حالة البهجة والمرح فيما بينهم . وهى عبارة عن مناقشة « حادة حامية من أجل النصر » ، حتى يضمن أحدهم الفوز ، بينما يحتفظ الآخر بلقب « الحمار » asinus حتى اليوم التالى .

وبعد انتهاء اليوم الدراسى يذهب الفتيان للعب فى فناء الكنيسة . والألعاب التى جاء ذكرها هى الأطواق والبلى على مايبدو والكرة ، ويكون ذلك فى فترة الصوم الكبير . وثمة نوع آخر من اللعب الذى يدخل فيه الحساب . ويميز المؤلف هنا بين الأطواق التى ترمى والأطواق التى تدحرج ، وهى عبارة عن كرات من الخشب أو الحجر . ولكن لب الموضوع سرعان مايصبح أمرا شديد العمق بالنسبة لمقدرة الطالب فى اللغة اللاتينية ، وفى غمرة هذا الموضوع يصل الكتاب إلى نهاية فجائية مبتورة .

وكان كتاب الطالب يتناول فى بعض نماذجه موضوعا يعالجه نوع آخر من كتيبات العصور الوسطى ، وهو كتيب عن الأخلاق وآداب السلوك ويحمل عنوان

---

(١) وهو نفس المثل العامى الشائع عندنا فى العربية وفى معظم اللغات الأوروبية الحديثة . [المترجم]

« كتاب التأدب » « The Book of Urbanity » ، أو « كتاب آداب المائدة » « The Courtesies of the Table » إلى آخر مثل هذه المسميات . ولقد حظيت هذه الكتيبات بشعبية كبيرة اعتبارا من القرن الثالث عشر فصاعدا . ومع ذلك ، لم يصل أى من هذه الكتيبات فى صقله إلى ماوصل إليه كتاب « الإتيكيت » أوكتاب « آداب السلوك الحديث » الذى يتميز بدقته وإحكامه . فاولئك الذين لم يحسنوا استخدام السكين والشوكة لايمكنهم أن يحسنوا التفاعل الاجتماعى . وعلى هذا فإن قراء كتيبات العصور الوسطىكانون لايزالون يتعثرون وهم يخطون الخطوات الأولى فيما يختص بآداب السلوك . فقد ورد فيها : إغسل يديك فىالصباح ، وإن كان لديك متسع منالوقت فاغسلوجهك أيضا. واستخدم منشفة المائدة ومنديلك ، وتناول الطعام بثلاثة أصابع ، ولا تزدرد الطعام ازدرادا . ولا تكثر من الضجيج أو التشاحن عندما تجلس إلى مائدة الطعام ، ولا تحملق فى جارك أوفى طبقه ، ولا تنتقد الطعام ، أو تنظفأسنانك بسكينك » . وإن مثل هذه القواعد فى الآداب وغيرها من القواعد التى لاتزال تعتبر من المبادىء الأولية فى أصول الإتيكيت ، كانت من المبادىء العامة التى ورد ذكرها فى هذا العصر باللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية . وكانت لا تزال فى المهد ، ولكنها كانت دائما مكتوبة بالشعر [ليسهل استذكارها] . وكانت تضاف إليها بين وقت وآخر لمسة من لمسات العصر . مثال ذلك : نظف العظام بسكينك ولكن لاتكسرها ، وعندما تكون قد انتهيت منها إلقها فى سلطانية أو على أرضية الحجرة !

وإذا كانت مراسلات طلاب العصور الوسطى قد حفظت لنا التفاصيل الحقيقية العارضة ، فليس هناك ماهو أفضل منها لإمدادنا بصورة حية نابضة عن

ظروف الحياة الجامعية . ولـكن العصر الوسيط كان بالنسبة لنا ، لسوء الحظ ، من بعض النواحى والوجوه ، عصر النماذج والأشكال والقوالب المختلفة فيما يتعلق بـكتابة الخطابات ، مثلما هو الحال فى غير ذلك من الأمور . ولم يـكن تدوين خطاب ما ، فى نظر الناس ، تعبيرا عن مشاعر الفرد وأحاسيسه وتجاربه أكثر من كونه عملية نسخ نشطة لخطاب شخص آخر بعد إدخال التعديلات الضرورية عليه ليناسب الظروف الجديدة . وإذا كان الخطاب قد احتوى شيئا جديدا أو مسألة شخصية، فلم تكن هناك فرصة كبيرة للحفاظ عليه ، طالما أنه لن يـكون ذا قيمة أو فائدة لمن يأتى بعد ذلك مستقبلا من كتاب الخطابات ، « فبقدر ما كان يعتنى بالشكل بقدر إهماله للفحوى والمضمون » . والنتيجة ، إذن ، أن المئات من خطابات الطلاب التى وصلت إلينا فى مخطوطات العصور الوسطى قد جاءت فى صورة مجموعات لنماذج وأشكال أو خطابات كاملة خلت غالبيتهـا من العنصر الشخصى أو الفردى . ومن أجل هذا كانت تلك المراسلات تعكس المظاهر والسمات الأساسية والعامة للحياة الجامعية بأمانة وإخلاص أكثر من أى شىء آخر .

وكان طلب المال هو أبرز هذه العناصر وأوفرها فى مراسلات طلاب العصور الوسطى.(١) « فقد كانت أغنية الطالب الأولى هى طلب المال » ، كما يقول والد متضجر فى خطاب له باللغة الإيطالية . ويستمر الخطاب : « ليس هناك خطاب على الإطلاق لا يتضمن طلب النقود . » وكان كيفية ضمان هذه الحاجة الأساسية

---

(١) أنظر فى هذا الموضوع الكتاب التالى Furck — Brentano, op. cit., p. 196 f. [المترجم] .

لحياة الطالب ، بلا شك ، واحدة من أهم المشاكل التى واجهت طالب العصور الوسطى . وكان أمام الطالب كثير من النماذج التى وضعها أصحاب البلاغة أمامه ليثبتوا بها المزايا العملية لفنهم . وكانت هذه الخطابات على وجه العموم موجهة إلى الوالدين ، وفى بعض الأحيان كانت توجه إلى الإخوة والأعمام والأخوال وإلى رعاة الطلبة من رجال الدين . وثمة أحد التمارين التى نسخها الطلاب كان يحتوى على اثنتين وعشرين ذريعة مختلفة للتقرب من رئيس الشمامسة فى هذا الموضوع الحساس . ففى العادة يعلن الطالب أنه فى مثل هذا المركز العلمى سعيد وفى حالة جيدة ، وإنما هو فى حاجة ملحة إلى المال من أجل شراء الكتب والوفاء بالمصاريف الأخرى الضرورية . وثمة مثال من أكسفورد بانجلترا يغلب عليه الطابع الفردى خلاف غيره من مراسلات العصر ، وهو مكتوب بلغة لاتينية رديئة على غير العادة ، وفيه يقول كاتبه :

« تحية وسلاما من فلان إلى سيده الموقر فلان . قد كتبت هذا لأحيطك علما أننى أدرس فى أكسفورد بمثابرة لا حد لها . ولـكن المال يقف ، إلى حد بعيد ، عقبة كأداء فى سبيل تقدمى ، لأنه قد مضى الآن شهران منذ أن أنفقت آخر درهم أرسلته إلى . إن المعيشة فى المدينة باهظة التـكاليف ، وتستلزم مطالب عديدة . فعلىّ أن أستأجر مسكنا لإقامتى ، وأن أشترى بعض الضروريات والمستلزمات ، وأن أفى بما تتطلبه أمور أخرى كثيرة لا أستطيع تحديدها بالتفصيل الآن . ومن أجل ذلك ألتمس من أبوتكم ، بكل احترام وبما يدفعكم به العطف الإلهى ، مساعدتى لـكى أتمكن من إتمام ماقد بدأته بداية حسنة ، لأنه يجب أن تعلم أنه بدون

سيرس [1] Ceres [إلهة الحنطة والحراثة] وباخوس [2] Bacchus [إله الخمر] لايستطيع ابو لو Apollo [إله الشعر والموسيقى والطب] أن ينمو ويحيا .»

فإذا كانت يد الوالد ممسكة ، وجدت ثمة أسباب خاصة لحثه على الدفع ، كأن يقول له إن المعيشة فى المدينة تكلف كثيرا كما كانت المدن الجامعية دائماً ، أو إن تكاليف المعيشة كانت مرتفعة بصفة استثنائية بسبب شتاء قاس أو حصار تعرضت له المدينة أو نتيجة نقص فى المحصول أو بسبب العدد الغير عادى للطلاب ، أو أن الرسول الأخير الذى أوفده إليه قد سلبت منه النقود أو ولى بها هاربا ، ولم يعد بوسع الإبن أن يقترض من زملائه أكثر من ذلك ، أو أن يقترض من اليهود [3] ، وهكذا . وكانت آلام الطالب ومحنه مصورة بلغة مثيرة مشفوعة بالتماسات عديدة موجهة إلى كبرياء الوالدين ومحبتهم . ففى بولونيا نسمع عن الوحل المخيف الذى لابد للشاب أن يشق طريقه وسطه وهو يتسول من باب إلى باب صائحا : « ياأيها السادة الطيبون » [4] ، ثم يعود إلى بيته خالى اليدين . وفى أحد النماذج النمساوية يكتب طالب من أعماق السجن حيث الخبز اليابس الجاف ، وماء الشرب وقد اختلط بالدموع ، والظلام الدامس وقد بلغ من حلكته أنه يمكن

---

(١) هى إبنة زحل . [المترجم] .

(٢) هو إله الخمر عند قدماء اليونان والرومان . [المترجم] .

(٣) اشتهر يهود أوروبا فى العصور الوسطى بالاتجار وإقراض المال للناس بالربا الفاحش . [المترجم] .

(٤) المقصود طلب الصدقة والإحسان ، أى التسول الموقت بمطالب الحياة فى محيطه العلمى الجديد . [المترجم] .

الإحساس به . وهناك طالب آخر يقول فى خطاب له إنه يرقد على القش بدون غطاء ، ويذهب بدون حذاء أو قميص ، ويأ كل ما لايستطيع ذكره . وهى قصص ابتدعت وصممت لتوجه إلى أخت له ، وهو يطلب ردا على الخطاب [الذى بعث به إليها] ومعه مائة قطعة من التورنوا الفرنسى sous tournois وزوجان من الملاءات وعشرة أذرع من قماش فاخر ، وأن ترسل هذه الأشياء كلها دون علم زوجها . وهاك موجز مركز محبوك لطالبين من شارتر بفرنسا : « لقد قمنا بشرح عدد قليل من الكتب ، ولكنا مدينون بالمال . » .

وكان الرد المناسب على مثل هذه الطلبات ، بالطبع ، خطابا رقيقا يفيض بالحب ويثنى على مثابرة الشاب وانكبابه على العمل ، ومع الخطاب حوالة مالية بالمبلغ المطلوب . وفى بعض الأحيان ينصح الراسل الطالب بالاعتدال فى مصروفاته ، قائلا له إنه كان من الواجب عليه أن يعيش مدة أطول بالمبلغ الذى كان قد تسلمه من قبل ، كما يجب عليه أن يتذكر حاجات أخواته ومطالبهم ، وكان الواجب أن يعول والديه بدلا من محاولة ابتزاز النقود منهما ، إلى آخر هذه العبارات . ويعتذر والد أحد اولئك الطلبة ـ وهو يقتبس من هوراتيوس [١]

---

(١) هوراتيوس أو حورس شاعر لاتينى ولد سنة ٦٥ ق . م ، وكان أبوه من الأحرار ، وقد تلقى تعليمه فى روما فى مدارس لها شهرتها وصيتها الذائع . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى أثينا لدراسة الشعر والفلسفة اليونانية . وقد حضر معركة فيليبى سنة ٤٢ ق . م ، ثم قفل عائدا إلى روما . واسترعت قصائده نظر الشاعر المعروف فرجيل مما سهل له أمر التقرب من الإمبراطور اوغسطس . ومن أعماله المتبقية قصائده فى النقد الاجتماعى ، وهى فى قالب من السخرية والتهكم . وهناك أيضا قصائده الغنائية . وقد توفى هوراتيوس سنة ٨ ق . م عن ٥٧ سنة . أنظر عن ذلك المراجع الأجنبية التالية

Horace — بسبب عجز كرمه عن إعطاء الثمار . وكثيرا ما يحدث أيضا أن يكون الوالد أو العم قد بلغته تقارير سيئة عن الطالب الذى يجب عندئذ أن يكون مستعدا لإنكار مثل هذه الوشايات فى سخط وحنق ، وهى التى يعتبرها من تلفيق أعدائه الذى لا أساس له من الصحة . وهاك مثال يكشف عن اللوم والتعنيف الأبوى مأخوذ من مجموعة ممتعة [من المراسلات] تعزى إلى منطقة فرانش كونتيه [1] Franche - Comté :

« يبعث ب من بزانسون Besancon بفرنسا إلى إبنه ج الذى يقيم فى مدينة اورليانز بتحياته مقرونة بالحماس والغيرة الأبوية . وهكذا مكتوب إن الكسول فى عمله هو أيضا أخ للمبذر المتلاف . فلقد اكتشفت حديثا أنك تعيش حياة ملؤها الفسق والكسل ، وأنك تؤثر الإباحة وقلة الحياء والانطلاق على التقيد والمحافظة ، وتفضل اللعب على العمل ، وتعزف على القيثارة بينما الآخرون منهمكون فى دراساتهم . وعلى هذا فإنك لم تقرأ سوى مجلد واحد فى القانون ، بينما قرأ زملاؤك الذين هم أكثر منك كداً واجتهاداً العديد من الكتب . لذلك فقد قررت أن أنبهك هنا بأن ترجع كلية عن طرقك الفاسدة العابثة التى تتسم باللامبالاة حتى لا يدعوك أحد بعد ذلك بأنك مضياع . وهكذا يتحول العار الذى لحق بك إلى سمعة حسنة طيبة . »

Warrington, op. cit., p. 282 f. ; Barrow, The Romans, pp. 24, 84 = f., 115 et sqq. ; Carcopino, Daily Life in Ancient Rome, pp. 116, 155 et sqq. [المترجم] .

(١) فرانش كونتيه منطقة يحدها من الشمال اللورين ومن الشرق الايلزاس وسويسرا ومن الغرب دوقية برجنديا ومن ناحية الجنوب كل من برس Bresse وبجى Bugey [المترجم]

ونجد فى النماذج المحفوظة فى بروفانس بفرنسا مدرسا يكتب لوالد طالب بأنه بينما ابنه الطالب يتقدم فى دراساته ، إلا أنه طائش شرس نوعا ما ، ولكن يمكن تقويمه بالنصح والعظة الحكيمة . وبالطبع فقد طلب الأستاذ ألا يعرف الطالب أن هذا الخبر قد نقله هو إلى والده . لذلك كتب الوالد إلى ابنه يقول :

« لقد علمت من مصدر معين جدير بالثقة ، وليس عن طريق أستاذك مع أنه ما كان يجب عليه أن يخفى عنى مثل هذه الأمور ، علمت أنك لاتدرس فى حجرتك ولا تسلك فى المدارس كما يجب أن يفعل الطالب الجيد . ولكنك تلعب وتتجول هنا وهناك وتعصى أستاذك ، وتنغمس فى الرياضة وفى بعض الأفعال الشائنة التى لا أهتم الآن بتوضيحها فى خطابى . » ثم يتبع ذلك بالنصح المعتاد الذى يهدف إلى التقويم والإصلاح .

ثم نجد غلامين فى اورليانز يصفان وصولهما إلى هذا المركز العلمى قائلين :

« تحية وطاعة بنوية من الإبنين م . و س . إلى والديهما العزيزين المحترمين السيد م . مارتر M. Martre وزوجته السيدة م . لقد حررنا هذا لنحيطكما علما أننا ، بفضل الله ورحمته ، نتمتع بصحة جيدة فى مدينة اورليانز ، وأننا نكرس أنفسنا كلية للدراسة ، وأن نعى ونتفهم كلمات كاتو Cato [1] . وإنه لما

---

(١) المقصود هنا كاتو الأكبر ، ولد فى ٢٣٢ ق٠ م وتوفى فى ١٤٧ ق٠ م عن ٨٥ سنة . وهو سياسى رومانى معروف اشترك فى الحرب البونية الثانية فى الحملات ضد انتيوخس الثالث ملك سورية ، كما ساهم فى الحياة العامة ، وكان من الداعين إلى تدمير قرطاجنة ، وهو ، =

يستحق الثناء أن يتعلم الإنسان شيئا ، فنحن نقيم فى سكن مريح ، على مقربة من المدارس ومحلة السوق ، حتى نستطيع أن نذهب إلى المدرسة يوميا دون أن تبتل أقدامنا . كما أن لنا رفاقا طيبين يعيشون معنا فى نفس المنزل ، وهم متقدمون جدا فى دراساتهم ، ولهم عادات ممتازة ، وهذه ميزة نقدرها حق التقدير ، لأنه كما يقول صاحب المزامير " طـــوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار "(١) » .

ولم يستطع مثل هؤلاء الشباب الانتهاء من حياتهم العلمية بسرعة . وكانوا يطلبون ، مرة بعد أخرى ، إذنا بأن تمد لهم فترة دراستهم . وقد تنشب الحرب ، وقد يموت الآباء والإخوة ويتطلب الأمر تقسيم التركة ، ولكن الطالب يرسل دائما فى طلب تأجيل العودة . فهو يرغب « فى أن تطول خدمته فى محلة بالاس Pallas » . وعلى أية حال ، لايستطيع الطالب الرحيل قبل عيد القيامة ، لأن أساتذته قد بدأوا برامج هامة من محاضراتهم . وقد يستدعى طالب من

= فضلا عن ذلك ، خطيب مفوه كتب عن الحياة الريفية ، وله مؤلفات تاريخية فقدت ولم تصلنا ، أنظر Warrington, op. cit., p. 131 ; Cochrane, Christianity and Classical Culture, pp. 30, 32 ff., 37; Barrow, op. cit., pp. 61 ff., 162 ; Carcopino, op. cit., pp. 50, 64, 84 et sqq. [المترجم]

(١) أنظر العهد القديم — مزامير — المزمور الأول: العدد الأول . وجدير بالذكر أن هذه الفكرة توجد فى سفر المزامير على امتداد إصحاحاته ، وبخاصة الإصحاح الأول حيث يفرق داود النبى صاحب المزامير بين الرجل الصالح البار والرجل الطالح الشرير . [المترجم] .

سيينا [1] Siena للعودة إلى وطنه كى يتزوج من سيدة شديدة الفتنة والإغراء . فيجيب بأنه يعتبر هجره لقضية العلم فى سبيل إمرأة ضربا من الحماقة والغباء ، لأن الشخص قد يستطيع الحصول على زوجة فى أى وقت ، ولكن العلم إذا افتقده مرة ، فلن يستطيع استعادته أو تعويضه .

ومع ذلك ، فإن وقت الرحيل لابد وأن يأتى آخر الأمر . وحينئذ تكون مشكلة الطالب الكبرى هى المال لدفع المصاريف اللازمة للتقدم للامتحان ؛ وكان يطلق على هذا المشروع وقتذاك الوليمة التى تقام بمناسبة العودة . وعلى هذا يلتمس طالب من جامعة باريس من صديق له أن يوضح لوالده أنه « طالما أن سذاجة عقل أى فرد من العامة لاتستطيع إدراك مثل هذه الأمور » ، كيف أنه فى النهاية بعد دراسة طويلة لا يعترض طريقه شىء سوى المال اللازم لإعداد المأدبة التى تقف عقبة فى سبيل حصوله على درجته العلمية . فمن أورليانز يكتب د . بوتيريل D. Boterel إلى أقاربه الأعزاء فى مدينة تورز قائلا إنه منهمك فى دراسة المجلد الأخير فى القانون ، وعند الفراغ منه سيكون بوسعه التقدم لنيل

---

(١) سيينا مدينة ومركز أسقفية توسكانيا بإيطاليا ، وبها جامعة تأسست سنة ١٢٠٣م تقتصر على كليتى القانون والطب . وهى مدينة يرجع تاريخها إلى أقدم العصور ، وقد كانت مستعمرة رومانية زمن الإمبراطور أوغسطس . أما المدينة الحالية فهى ترجع برمتها إلى العصر الوسيط . وكانت مركزا أسقفيا منذ القرن السابع الميلادى ، وربما قبل ذلك التاريخ . هـذا ، ويرتبط تطور تاريخ سيينا ارتباطا وثيقا بنمو الكنيسة اللاتينية وازدياد نفوذ الأسقفية بها . أنظر مقالة « سيينا » فى دائرة المعارف البريطانية ، جـ ٢٠ (طبع شيكاجو ، ١٩٦٤) ، ص ٦٢٠ — ٦٢٣ [المترجم] .

درجته الجامعية إذا ما أرسلوا إليه مبلغ مائة جنيه فرنسى (١) لتغطية المصاريف اللازمة . هذا ، وقد ذكرنا شيئا عن التقدم للامتحان فى بولونيا فى الفصل السابق (٢) .

وإذا كانت خطابات الطلبة ومراسلاتهم قد امتدت طوال العصور الوسطى المتأخرة ، فقد كانت الأشعار التى قرضها طلبة العصور الوسطى ، أو بالأحرى أفضلها ، على العكس من ذلك . إذ اقتصرت على فترة زمنية قصيرة نسبيا ، تشمل على وجه التقريب السنوات الواقعة بين عامى ١١٢٥ م و١٢٢٥ م ، تلك الفترة التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بالطابع الكلاسيكى لنهضة القرن الثانى عشر . وكان هذا الشعر ، إلى حد بعيد ، هو نتاج طلاب العلم المتجولين فى هذا العصر . لقد كان من نتاج طلبة لايزالون يدرسون ومن طلبة سابقين ومن أساتذة كذلك، وهم الذين كانوا يتنقلون من مدينة إلى أخرى سعيا وراء العلم ، وما زالوا مستعدين لمغامرات أبعد من ذلك . وهم طلاب علم بالإسم فحسب ، ولكن حياتهم بعيدة كل البعد عن حياة البحث والجرى وراء العلم . يقول المؤرخ ج . أ . سيموندز J. A. Symonds « إنهم بعيدون عن أوطانهم ولا يشعرون بأية مسئوليات ، جيوبهم فارغة وقلوبهم خاوية ، وهم مهملون يبحثون عن المتعة،

---

(١) يطلق عليه بالفرنسية livre ، وهو العملة التى كانت متداولة فى فرنسا وقتذاك قبل استخدام الفرنك الفرنسى . وكانت هذه العملة تعرف أيضا باسم « تورنوا » Tournois نسبة إلى مدينة تورز . أنظر Grande Encyc. ,Art. France, Numismatique, vol. XVII, p. 1141 & Art. Tournois, vol. XXXI, p. 247. [المترجم] .

(٢) أنظر ، ماسبق ، ص ٣٢٢ من هذا الكتاب وما بعدها . [المترجم]

ويحيون حياة متحررة شائنة . » ويكتب راهب من رهبان القرن الثانى عشر قائلا : « إنهم معتادون على التجوال حول العالم ، يزورون جميع مدنه حتى يصيبهم الجنون من فرط تعلمهم . فهم فى باريس يدرسون الفنون الحرة ، وفى اورليانز يدرسون التراث الكلاسيكى القديم ، وفى سالرنو يتعلمون الطب ، كما يدرسون السحر فى طليطلة . ولكنهم لايجدون فى أى مكان دراسة تتعلق بآداب السلوك والأخلاق . » وعلى أية حال ، فقد كان شمال فرنسا هو مقرهم الرئيسى حيث المركز الخاص بالنهضة الأدبية الجديدة .

ويمكن القول بأن هؤلاء الطلبة المتجولين قد اتخذوا لأنفسهم إسم « الجولياردين » Goliardi ، إشارة إلى التلميح المبهم إلى جوليات Goliath الفلسطينى (١) ، ولهذا السبب عرف شعرهم بوجه عام بإسم الشعر الجولياردى .

---

(١) جوليات أو جليات أو جولياس هو أحد المحاربين الفلسطينيين المعروف بضخامته وقوته الخارقة . وقد تمكن داود النبى ، وهو بعد غلام صغير نحيل الجسم ضعيف البنية ، من منازلة هذا العملاق والتغلب عليه ، فى حين أن أحدا من كبار بنى اسرائيل لم يجرؤ على منازلته خوفا من قوته وبطشه . أنظر تفاصيل القصة فى العهد القديم ـ صموئيل ـ إصحاح ١٧ . هذا ، ويختلف المؤرخ سيدنى بينتر مع هاسكنز حول شخصية جوليات ، إذ يرجح أنه شخصية خرافية أسطورية لعبت دورا بارزا فى الشعر الجولياردى ولا ظل لها من الحقيقة التاريخية . ويتحدث بينتر عن الشعر الجولياردى قائلا انه من إنتاج عدد من طلاب العلم المتجولين الذين ينتمون إلى الدرجات الدينية الصغرى فى سلك الكهنوت ، ويرجح أنهم كانوا من طلاب الجامعة . ويضيف أن اشعارهم تمتلىء بهجة ومرحا وتتحدث عن الحب والشراب . وكانت هذه القصائد مكتوبة باللغة اللاتينية وتبدو فيها الروح الدنيوية الداعية إلى التمتع بالحياة ومباهجها وملذاتها . وهى ، بذلك ، تعبر عن صحوة حية لم تعمر طويلا ، بدا فيها الاهتمام واضحا بالأدب اللاتينى الذى ميز القرن الثانى عشر ويعتبر من أبرز خصائصه . أنظر Painter, A History of the Middle Ages, p. 447 f ; LaMonte, The World of the Middle Ages, p. 556 f. [المترجم]

ويعزى هذا الإنتاج الشعرى ، فى معظمه ، لأشخاص مجهولين ؛ ولو أن البحث الحديث (١) استطاع تمييز شخصيات كتاب معينين من مؤلفى هذه المجموعة الشعرية ، وبصفة خاصة هيوج Hugh كاهن اورليانز الذى عاش حوالى عام ١١٤٢ م والمعروف بالرئيس ، وكذلك شخص آخر يسمى اركبويت (٢) Archpoet . وكان هذا الشاعر لاذعا ماهرا شديد الحذق ، كما كان شائنا دنيئا إلى أبعد حد ، حتى لقد اشتهر لعدة أجيال « بأنه الشاعر المرتجل المدهش الذى لو كان قد حول قلبه إلى حب الله لاحتل مكانة كبيرة فى الأدب اللاهوتى ، ولأ ثبت أنه أنفع إنسان فى كنيسة الله . » وكان أركبويت موجودا ، فى الغالب ، فى ايطاليا فيما بين عامى ١١٦١ م و ١١٦٥ م حيث كان يحيا « حياته الخاصة » خلال فصلى الربيع والصيف . ولكن عندما يحين وقت الخريف يعود إلى حياة التسول طالبا قميصا أو عباءة من رئيسه الدينى وهو رئيس أساقفة كولونيا . ثم يطلب منه رئيسه أن ينظم له ، فى مدى أسبوع واحد ، ملحمة شعرية فى مدح الإمبراطور .

(١) لقد أمكن تمييز شخصية اثنين من هؤلاء الشعراء ، أولهما هيوج الاورلياني المعروف باسم الرئيس Primate وذلك بفضل الدراسات التى قام بها العالمان ل . دليسل L. Delisle و و . ماير W. Meyer ؛ وثانيهما هو الشاعر أركبويت المعروف بأبى الشعراء وذلك بفضل البحوث التى أجراها العالمان ب . شميدلر B. Schmeidler و م . مانيتيوس M. Manitius [المترجم] .

(٢) هو أحد رجال الدين بمدينة كولونيا بفرنسا حوالى عام ١١٦٠ م . هذا ، ولقد نسبت تلك المجموعة الشعرية الغنائية فى وقت من الأوقات الى شخص يدعى والتر ماب Walter Map الذى يحتمل أن يكون قد كتب جانبا منها . ولكن مما لا شك فيه أنه لم يكن مؤلف المجموعة كلها . أنظر من ذلك LaMonte, op. cit., p. 557. راجع أيضا هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٢٠ وح ٣ و ٢٢٤ . [المترجم] .

ويجيب [الشاعر] قائلا بأنه لايستطيع الكتابة بمعدة خاوية ، وإن نوع شعره يعتمد على نوع خمره ، وبنص قوله :

« أنا أقرض الشعر مثلما أحتسى النبيذ . » (١)

ولابد أن شاعرنا قد وجد فى بعض الأحيان النبيذ الجيد ، لأنه نظم قصيدة للمدرسة كلها تعتبر أروع قطعة أدبية شعرية له ، وهى تحمل إسم « إعتراف أحد الجولياردين » ، « Confession of a Goliard » ، وقد تضمنت وصفا لاينسى للمغريات المشتملة فى بافيا [بايطاليا] ، حيث يجد فيها مسرات الحانات وملذاتها ومباهجها . يقول الشاعر :

فى الحانة العامة أموت ،
هذا هو ماصممت عليه .
فليكن النبيذ قريبا من شفتى ،
عندما تنتهى الحياة .
وتجعل الملائكة يصيحون ،
بفصاحة ملؤها السرور ،
« إمنح هذا السكير يارب فى علاك
نعمة ومغفرة ! » (٢)

(١) وبنص قوله باللاتينية , « Tales versus facio quale vinum bibo » — cf. Haskins, op. cit., p. 83 والمقصود أنه يريد الثمن على الشعر الذى يقرضه [المترجم] .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة تحمل اسم « اعترافات جوليات » ، وهى تعبر — بدون شك — عن أخص مشاعر الجولياردين وأدق انفعالاتهم وأحاسيسهم . وأفضل ترجمة لها باللغة الإنجليزية توجد فى كتاب سيموندز Symonds, J. A., Wine, Women, and Song, Chatto and Windus, 1925. وهناك ترجمة أخرى للقصيدة المذكورة — بقلم الكاتبة هيلين وادل Helen Waddell فى كتابها عن الأغانى اللاتينية فى العصر الوسيط . [المترجم] .

ومع أن الشعر الجولياردى قد كتب باللغة اللاتينية ، إلا أنه تخلى عن نظام الوزن القديم ليستخدم القافية والحركات فى الشعر الجديد . ومع ذلك ، فإن أفضل الترجمات الحديثة له ، مثل ترجمة جون أدينجتون سيموندز John Addington Symonds التى أخذت عنها ، تفشل فى إعطاء الوزن والنغم والانسياب الموسيقى للقصيدة بلغتها الأصلية . فلقد كان مؤلفوها يعرفون أساطير اليونان والرومان القدماء ، وبخاصة كتابات أوفيد الذى نهج الشاعر نهجه بحرية وبدون قيود ، بعد أن تم نسخها فى كلونية مترجمة.(١) هذا ، والجانب الأكبر من الشعر الجولياردى كلاسيكى فى نظرته الوثنية الصريحة للحياة . فآلهته هم فينوس Venus [إلهة الحب والجمال] وباخوس [إله الخمر] ودشيوس Decius أيضا وهو إله النرد . وكانت مواضيعه العامة تدور حول الحب والخمر والربيع والحياة فى الطريق الطلق وتحت السماء الزرقاء . وكانت روحه المعبرة هى الاستمتاع الشديد فى هذه الحياة الدنيا، أى المتعة والبهجة والحياة من أجل الحياة. (٢) وهذا هو مايجده القارىء فى إنتاج شعراء اليونان والرومان القدماء ، أو فى تلك الأغنية الطنانة التى ترجع إلى عصر متأخر ، والتى مازال عالم الدراسة والبحث يعتز بها ويحافظ عليها ، وفيها يقول الشاعر :

« يطربنا وينشينا أننا الآن شباب . » (٣)

---

(١) نسبة إلى جماعة كلونى الديرية . [المترجم] .

(٢) أى الاستمتاع بالحياة وتمجيدها فى شتى صورها ومظاهرها [المترجم] .

(٣) وباللاتينية « Gaudeamus igitur iuvenes dum Sumus, » cf. Haskins, op. cit , p. 85.

وعلى العموم ، فقد كان الشعر الجولياردى من النوع غير الشخصى ، أى الذى لايختص بفرد ما ، ولم يمدنا سوى بتفاصيل قليلة عن أى مكان بالذات . ولكنه كان يعكس الجانب الأكثر مرحا والأشد جذالة وطربا من حياة طلاب العلم فى العصر الوسيط . كما يلقى الضوء على حياة اولئك الطلاب الذين لا يتميزون بسيرة حسنة أو سمعة طيبة . وإن هذا الطراز من الحياة الذى يعشقه أولئك المتشردون المستهترون ، بقواعده التى لاتعتبر قواعد على الإطلاق ، موصوف علنا أمام الناس من كل الفئات والأذواق . فهم أشخاص يقومون من نومهم متأخرين ، أو هم مغامرون طروبون يحبون اللهو والمتعة . وإن أى فرد من جماعة الجولياردين لايملك أكثر من سترة واحدة على ظهره ، ولذلك فهم يتنقلون من مدينة إلى أخرى مستعطفين الناس لإمدادهم بالمال . وهناك بضعة أبيات من الشعر تطابق ما جاء فى خطابات الطلبة بهذا الخصوص :

أنا صبى متجول أطلب العلم ،
خالفت العمل الشاق والحزن ،
وفى كثير من الأحيان يدفعنى
الفقر إلى الجنون .

والأدب والمعرفة
كم كنت أتمنى أن أظل أكتسبهما ،
لولا الحاجة للرزق
التى تجبرنى أن أتوقف عن طلب العلم .

فهذه الملابس البالية التى تكسونى ،
كم هى رقيقة وممزقة ،
وكم عانيت من البرد
بعد أن نسيانى الدفء .

وقلما أستطيع الذهاب إلى الكنيسة
وأرنم لله تسبيحا كما يجب ،
فيفوتنى القداس وصلوات المساء
مع أننى أحبها بحق .

آه . . أنت يا مفخرة وطنك
إنى استعطفك بحقك
أن تساعدنى أنا البائس المحتاج
وأكيدا سوف تكافئك السماء .

انتبه الآن
كما تنتبه إلى القديس مارتين . [1]
واكس عرى الحاج
ثم ادع له عند الفراق .

فلينقل الله روحك
إلى سلام أبدى ،
ولتكن سعادة القديسين من نصيبك
فى ملكوته الأعلى .

---

(١) كان القديس مارتين St. Martin (حوالى ٣٣٠ — ٣٩٧ م) أسقفا على مدينة تورز ، ويعتبر أبا الرهبنة فى غالة ومن أكثر القديسين فى اوروبا الغربية تبجيلا واحتراما ؛ ولد من ابوين وثنيين واعتنق المسيحية فى سن مبكرة ، وقد خدم فى شبابه فى الجيش الرومانى ، ويروى تلميذه ومؤرخ سيرته سولبيكيوس سفيروس Sulpicius Severus قصة اعتناقه المسيحية عند ما طلب إعفاءه من الجندية بعد ان اصبح من جنود المسيح . هذا ويقع عيد القديس مارتين فى الحادى عشر من نوفمبر من كل عام . انظر Taylor, The Classical Heritage of the Middle Ages, pp. 11 n. 4, 282 n. 4. انظر ايضا مقالة مارتين (القديس) فى دائرة المعارف البريطانية (طبعة سنة ١٩٦٤) ، ج ١٤ ، ص ٩٨٥ — ٩٨٦ . [المترجم]

ويحيي الإخوة بعضهم بعضا فى الحانات الجانبية بمثل هذه الأغنية التى تقول :

نحن فى تجوالنا
طروبين مسرفين .
تارا ، تنتارا ، تينو !

نأكل حتى تمتلىء البطون
ونشرب فى وقار .
تارا ، تنتارا ، تينو !

ونضحك حتى تتمزق منا الجنوب
ونلبس الأسمال على الجلود .
تارا ، تنتارا ، تينو !

نهزر إلى الأبد
ونجرع بطريقة جهنمية .
تارا ، تنتارا ، تينو !

وتستمر القصيدة على هذه الوتيرة إلى آخرها .

ونجد وصفا للسكارى المتجمعين معا ، فى قصيدة أخرى ، تقول أبياتها :

البعض يقامر والبعض يشرب ،
والبعض يعيش دون ان يفكر .
ومن بين اولئك الذين يسببون الصخب والضجيج ،
تجرد البعض من المعاطف والسترات .
والبعض ينعم بملابس من ناعم الريش ،
والبعض لا يملك شروى نقير .
فليس هناك من أحد يخشى غزو الموت ،
ولكن الجميع يتبارون فى الشراب .

ثم هم يشربون منتهكين حرمة الدين ، مرة من أجل جميع المساجين والأسرى ، وثلاث مرات من أجل الأحياء ، ومرة رابعة من أجل جميع المسيحيين ، وخامسة لأولئك الذين رحلوا عن هذا العالم وهم على الإيمان باقون ، وهكذا حتى الجرعة الثالثة عشرة التى تكون من أجل أولئك الذين يسافرون برا أو بحرا . ويعقب ذلك احتساء متواصلا للمرة الأخيرة من أجل كل من الملك والبابا . ويعبر مثل هذا الشعر تعبيرا صادقا عن عصر « الشراب واحتساء الخمر » .

ولما كان الشعر الجولياردى شعرا يتحدث عن الخمر والنساء ، فقد احتوى قدرا كبيرا من التهكم والهجاء . ولما كان هذا الشعر يخاطب أيضا جمهورا يألف الكتاب المقدس والطقوس الكنسية ، فقد كان مؤلفوه يعبرون بطريقة هزلية عن أى أمر من الأمور الجدية ، كالإنجيل وترانيم العذراء ، والمراسم الخاصة بالقداس ، كما هو الحال فى قصيدة تعرف باسم « قداس السكارى » « Drinkers' Mass » ، وأخرى بعنوان « كتاب صلوات المقامرين » « Office for Gamblers » . ثم أن إحدى القطع الشعرية الممتازة عبارة عن ذم وهجاء فى البابوية وتحمل إسم « الإنجيل يقابل وزنه من الفضة » « The Gospel according to Mark —s of silver » . وما هذه القصيدة إلا إحدى الهجمات المريرة على روما ، وهى تصور غطرسة وعناد وجشع طبقة كبار رجال الدين ممثلة فى شخصية الأسقف جولياس Golias the Bishop . وكانت وجهة النظر هذه ، بصفة عامة ، هى وجهة نظر الكهنة ذوى المراتب الدنيا ، وبخاصة العنصر المتجول غير المنظم الأكثر حرية وانطلاقا الذى ارتاد المدارس والطرقات ، وهو عنصر المشعوذين أو الجونجلير jongleurs الذين ينتمون إلى السلك الكهنوتى وكانت مثل هذه المواضيع مألوفة للتشريع الكنسى منذ القرن التاسع الميلادى .

وإن شعرا من هذا النوع يخالف تماما المفاهيم والأفكار التقليدية فى العصور الوسطى ، حتى أن بعض الكتاب أنكروا شخصيته الوسيطة . فيقول أحدهم « إنه ينتمى إلى العصور الوسطى من الناحية الزمنية فحسب » ، بينما يجد فيه الآخرون علاقة وثيقة بروح عصر النهضة أو حركة الإصلاح الدينى . وقد يكون أكثر ملاءمة لروح التاريخ أن نجعل دائرة أفكارنا عن القرون الوسطى أكثر اتساعا وشمولا حتى تتمشى مع حقائق الحياة فى تلك القرون . فلم يكن الجليارديون إنسانيين قبل عصر النهضة ، ولم يكونوا مصلحين قبل حركة الإصلاح الدينى ، وإنما كانوا — بكل بساطة — رجالا من العصور الوسطى الذين كتبوا لزمنهم فحسب . فإن كانت كتابات هؤلاء الشماليين ، وبخاصة طلاب العلم الفرنسيين ، تبدو وكأنها تنبىء باقتراب عصر النهضة فى ايطاليا ، فلربما أمكن القول بأن عصر النهضة قد بدأ مبكرا ، وأنه لم يكن إيطاليا خالصا كما هو مفروض أن يكون . وإذا كان قارضو الشعر الجولياردى أكثر علمانية ، بل دنيويين أكثر مما يجب أن نتوقع ما يكون عليه طلاب العلم ، فيجب أن يكون معلوما أننا سوف نتوقع شيئا مختلفا ومغايرا . فنى الشعر الغنائى ، كما هو الحال فى الملاحم والدراما ، نتعلم الآن الشىء الكثير عن التداخل بين العالمين الدنيوى والكنسى ، الذى لم يعد يفصل بينهما مثل تلك الفواصل والحواجز الجافة المحكمة التى ابتدعها الخيال فى فترة متأخرة عن هذا العصر . وسواء أكانت روح الشعراء الجولياردين دنيوية أم دينية ، فقد كانوا بلا شك إنسانيين . لقد عاشوا الحياة وأحسوا بها إحساسا قويا ، ثم كتبوا ماعرفوه وما أدركوه .

ويجىء بعد ذلك دور إنصاف الطلبة وإعطائهم حقهم بكلمة عن العنصر الأقل تطفلا ، ونعنى بذلك الطالب المجد . ويقول هاستنجز راشدال [١] : ليست

---

(١) Op. cit., vol. III, p. 441.

هناك سجلات تاريخية وحوليات تتحدث عن الطالب الفاضل » ، ولم يكن مثل هذا الطالب فى كل العصور ملفتا للأنظار أو ملحوظا بالقدر الذى كان عليه زملاؤه المندفعون المتهورون . ولذلك فإن طالب العلم المثالى الذى يستمع إلى العظات الدينية لم يكن له لون ظاهر مميز ، وإنما كان مطيعا محترما متحمسا لتلقى العلم ، مواظبا على المحاضرات ، جريئا فى المناقشات ، متبصرا فى دروسه حتى أثناء نزهاته المسائية على شاطىء النهر . والطالب المثالى فى دراسة الكتب فى مختلف الفنون هو ذلك الذى يتدرب على ماجاء بها من تعاليم ويمارسها . والطالب النموذجى فى الآداب قد وصف نفسه كشخص كرس حياته تماما للدراسة والعلم ، ولو أنه يعوزه المال إلى حد ما .

أما عن الطالب الذى يقرض الشعر الجيد ، فلم يوجد مثل هذا الشخص ! فلم يكن شعر الطالب « كله يتعلق بالخمر والعربدة والعشق والغزل » ، وغير ذلك من المسائل الدنيوية (١) ، ولكن الكثير منه كان كذلك . ويجب هنا ألا نبحث عن الجانب الأكثر وقارا وجدية فى الحياة العلمية . ويقول جان دى هوتفيل Jean de Hauteville عن طالب العلم المسكين المثابر بأنه يمثل جانبا كبيرا من الطلبة ، ولكنه لم يخلف لنا مجموعة كبيرة من الشعر . وتنعكس أعمال الطالب الجيد انعكاسا ممتازا أثناء دراسته . ويبدو جده واجتهاده أحسن ما يكون فى مذكراته وجدله ومناقشاته .

كذلك كانت الوثائق والمستندات المتعلقة بالجانب التعليمى فى الجامعة ، هى الأخرى ، مصدرا للكشف عن حياة الطالب . فقد لوحظ أن الاتحادات

---

(١) Op. cit., vol. III, p. 435, n. 4.

الجامعية للطلاب فى أيامنا هذه كانت أكثر خصبا فى تذكر صراعات الطلبة أكثر مما هى إنجازا العمل اليومى المنوطة به . فالصبى المجتهد فى يومنا هذا لايخالف هذه الخطوط الرئيسية مثلما كان يفعل زميله فى الماضى ، ولم ير أحد أنه من المناسب إنتاج مسرحية أو قصة سينمائية « تبين ملامح وسمات الطالب المجد » . ومع ذلك ، فإن كل شخص على معرفة بالجامعات المعاصرة يعلم تماما أن الطالب الجاد يمثل قطاعا كبيرا من الطلبة ، وقد وضح بصفة قاطعة أن الشهرة والصيت اللذين يتمتع بها ينعكس أثرهما عليه فى فترة تالية من حياته . وقد كان هذا هو الوضع القائم فى العصور الوسطى .

هذا ، وقد أصر طلبة القانون فى جامعة بولونيا على أن يحصلوا من أساتذتهم من العلم نظير المال الذى يدفعونه لهم . وكانت الامتحانات التى وصفها روبرت السوربونى تحتاج إعدادا جادا . ولم يكن الحصول على مهنة أو عمل هو وحده الدافع المحرك للدراسة فى جامعة العصور الوسطى ؛ بل كانت هناك حماسة شديدة لاقتناء المعرفة ومناقشة العديد من المسائل العقلية . وقد كانت الجامعات الكبرى ، على الأقل ، نابضة بالحياة الفكرية ، بالإضافة إلى « قدسية العلم والتعليم » التى دعت فى فترة مبكرة تلامذة أبيلارد للتوجه إلى البرية ، وأن يبنوا لأنفسهم أكواخا حتى يقتاتوا من علمه وكلامه . وكانت كتب العصر يكتبها — إلى حد كبير — أساتذتها ، وكان للطلبة حق تصفحها والنظر فيها أثناء إعدادها . وهكذا كانوا ينهلون العلم من منبعه . وفى ذلك الوقت ، كما هو الحال الآن ، كانت السمة الأخلاقية للجامعة تعتمد على قوة كيانها الفكرى وجديته .

وإذا أمعنا فى النظر فى مجموعة المصادر الأدبية المكتوبة الخاصة بالطالب على وجه الإجمال ، نجد أن الظاهرة البارزة والمخيبة للآمال فى نفس الوقت هى

حاجتها إلى كيان شخصى مستقل . فثمة الكتاب المدرسى « Manuale Scholarium » الذى أعد ليستخدمه جميع الطلبة الذين يزمعون الالتحاق بالجامعات . وقد أعدت الرسائل والخطابات ، بصفة عامة ، لتناسب رغبات أى طالب يحتاج إلى المال والملابس والكتب . وحتى القصائد التى يحق لنا أن نتوقع أن نرى فيها تعبيرا عن الأحاسيس الفردية ، كان لها نفس الطابع العام الذى يميز الجانب الأكبر من شعر العصور الوسطى . فقد كان معظمها يعبر عن صوت المجموع وليس عن صوت الأفراد .

وفى نفس الوقت يجب أن نتذكر أن هذه الخاصية التى تميز بها الإنتاج الأدبى الطلاب ، وإن كانت تسلب منهم شيئا ، إلا أنها تزيد من القيمة التاريخية لهذا الإنتاج . إذ يتناول المؤرخ النواحى العامة أكثر مما يعالج الجوانب الخاصة ؛ ثم يجب عليه أن يبنى معرفته عن طريق التجميع المضنى والمقارن للحقائق الفردية التى يبلغ من قلتها وعدم تجانسها أنها لا تسمح بإصدار تعميمات سليمة . وعلى أية حال ، ففيما يتعلق بسجلات الطلاب هذه التى تم التنقيب فيها من أجلهم ، نجد أنها بالشكل الذى وصلتنا فيه قد فقدت على أيدى الطلاب أنفسهم كل ما هو محلى أو خاص أو استثنائى . وأصبحت تمثل خبرة وتجربة قرون عديدة فى حياة الطالب ، وذلك فى ضوء طبيعة وكنه المعلومات التى وصلت إلينا ، وهى غير ما كان يأمل المؤرخ نفسه .

هذه هى الناحية الإنسانية العريضة التى تضفى على إنتاج طالب العصور الوسطى أهمية خاصة بالنسبة لعالم اليوم . فهى فى مادتها ، إن لم تكن فى شكلها وإطارها العام ، تماثل ما هو كائن فى كل من جامعتى هارفارد Harvard وييل Yale اليوم ، مثلما كانت بالنسبة لجامعتى أكسفورد وباريس فى العصور الوسطى .

فإن المناظرات والمناقشات والمجادلات باللغة اللاتينية ، ووحل بولونيا،والصيارفة عند الجسر الكبير فى فرنسا — كلها تنتمى بوضوح إلى العصور الوسطى ، ولا صلة لها بعصرنا هذا . ولكن المال والملبس والمسكن والمدرسين والكتب وحياة البهجة والمرح والزمالة الطيبة — كل هذه كانت ولا تزال موضع الاهتمام فى كل زمان ومكان .

ولقد قال أحد أساتذة التاريخ ، ذات مرة ، إن الصعوبة الكبرى فى تدريس التاريخ تكمن فى إقناع التلاميذ بأن أحداث الماضى لم تحدث كلهافى القمر.فالعصور الوسطى عصور سحيقة جدا ، وفى بعض النواحى تبدو بالنسبة لنا أكثر بعدا من العصور القديمة . ومن الصعب أن ندرك أن الرجال والنساء هم — بعد كل ماتقدم — نفس البشر ونفس الآدميين فى الماضى وفى الحاضر . ويجب علينا أن نتذكر دائما أن العوامل الرئيسية الجوهرية فى تطور الإنسان وتقدمه قد ظلت كما هى من عصر إلى آخر ، ويجب أن تظل هكذا طالما استمرت الطبيعة البشرية والبيئة والظروف الطبيعية باقية على ماهى عليه . فقد كان وجه الشبه بين طالب العصور الوسطى وخلفه طالب العصر الحديث ، فيما يتعلق بقصته مع العلم والحياة، أكثر مما نظن أو نفترض . وإذا كانت الظروف المحيطة به تختلف عن تلك التى تحيط بطالب اليوم ، إلا أن المشاكل كانت — إلى حد بعيد — واحدة . وإذا كانت سيرة طالب العصر الوسيط أسوأ من سيرة زميله فى العصر الحديث ، إلا أن طموحه كان نشطا للغاية ، ومناقشاته ومبارياته حامية شديدة بالغة العنف ، ورغبته فى التعلم جادة لهوفة متقدة إلى أقصى حد . وكانت المحصلة العلمية بالنسبة له ، كما هو الحال بالنسبة لنا ، تعنى عضويته فى مدينة الآداب التى لاتبنى بالأيدى، وإنما هى « مجموعة طلاب العلم القديمة الجامعة » .

بعض المراجع للفصل الثالث (١)

Allen, P.S., Modern Philology, V, pp. 423—476, VI, pp. 3—43 (1907 & 1909).

وهو يشتمل على المصادر الأدبية المكتوبة الخاصة بالشعر الجولياردى .

Allen, P.S., Medieval Latin Lyrics. Chicago, 1931.

Bahlmann, P. (ed.), Mitteilungen der Gesellschaft für deutsche Erziehungs-und Schulgeschichte, III (1893).

وقد قام ب. بالمان بنشر القوانين واللوائح المتعلقة بالطلبة Statuta vel Precepta Scolarium في الجزء الثالث من كتابه المذكور (ص ١٢٩ — ١٤٥) .

Bernard, E., Les Dominicains dans l'université de Paris. Paris, 1883.

Burke, R.B., Compendium on the Magnificence, Dignity, and Excellence of the University of Paris in the Year of Grace 1517(by, Robert Goulet). Philadelphia, 1928.

Fuchs, P., "Student Life in Paris During the Middle Ages," Living Age, CCCXXIX (1926), pp. 682—685.

Gabriel, A.L., Student Life in Ave Maria College, Mediaeval Paris History and Chartulary of the College. Notre Dame, Ind., 1955.

Ghellinck, J. de, L'essor de la littérature latine au XIIe siècle Brussels & Paris, 1946.

أنظر ، بصفة خاصة ، الجزء الثاني من الكتاب المذكور (ص ٢٧٠ — ٢٨٤) .

Glixelli, S., "Les contenances de table," Romania, XLVII (1921), pp. 1—40.

ونجد في الكتاب المذكور دراسة طيبة عن كتب الطالب وأدواته الدراسية .

Gratien, "Les Franciscaines à l'université de Paris : notes et documents," Etudes franciscaines, January, 1912.

Haskins, C.H., "Life of Mediaeval Students as seen in their Letters," American Historical Review, III (1897—98), pp. 203—229.

---

(١) حول المصادر الأدبية المكتوبة الخاصة بالشعر الجولياردى والشعراء الجولياردين ، أنظر Paetow, L.J., A Guide to the Study of Medieval History. (London, 1931), pp. 484 ff., 489—493. (المترجم) .

Haskins, C.H., "The University of Paris in the Sermons of the Thirteenth Century," American Historical Review, X (1904), pp. 1—27.

ويمكن ، أيضا ، الاطلاع على المقالتين سالفتى الذكر فى كتاب :
هاسكنز : دراسات فى ثقافة العصور الوسطى ، ص ١ — ٧١ (بالانجليزية) .

Haskins, C.H., "Manuals for Students," in his Studies in Mediaeval Culture, pp. 72—91.

Haskins, C.H., Studies in Mediaeval Culture. Oxford, 1929.

Hewett, W.T., "University Life in the Middle Ages," Harper's Magazine, XCVI (1898), pp. 945—955.

Hilka, A. & Schumann, O., Carmina Burana. Heidelberg, 1930.

وتشتمل هذه الطبعة على النصوص الأصلية للشعر الجولياردى مع التعليق عليها .

Holmes, U.T., Daily Living in the Twelfth Century : Based on the Observations of Alexander Neckam in London and Paris. Madison, Wis., 1952.

Kilbre, P., The Nations in Mediaeval Universities. Cambridge, Mass., 1948.

ويعتبر هذا الكتاب من أحسن ما كتب عن نظام « الأمم » فى جامعات العصور الوسطى .

Kilbre, P., "Scholarly Privileges : Their Roman Origins and Medieval Expressions," American Historical Review, LIX (1954), pp. 543—567.

Langosch, K., Hymnen und Vagantenlieder. Basel, 1954.

ونجد فيه معلومات لا بأس بها عن كل من هيوج واركبويت ، أنظر بصفة خاصة صفحات ٢٩٢ — ٣٤٠ .

Luchaire, A., Social France at the Time of Philip Augustus, translated by E.B. Krehbiel. New York, 1912.

ويهمنا ، بصفة خاصة ، الفصل الثالث من الكتاب المذكور الذى يتحدث فيه المؤلف عن حياة الطلبة فى العصور الوسطى .

Mandonnet, P., "De l'incorporation des Dominicains dans l'ancienne université de Paris," Revue Thomiste, IV (1896), p. 156 ff.

Manitius, M., Geschichte der lateinischen Literatur des Mittelalters, Vol. III. Munich, 1931.

أنظر ، بخاصة ، صفحات ٩٦٣ — ٩٨٤ من كتاب م. مانتيوس .

Milburn, J.B., "University Life in Mediaeval Oxford," Dublin Review, CXXIX (1901), 72—97.

يتناول ج.ب. ميلبورن فى مؤلفه بالعرض الرسائل العلمية Epistolae academicae التى قام هـ. انستى H. Anstey بنشرها فى جزءين (طبع اكسفورد ، سنة ١٩٠١) وهى تلقى الضوء على الحياة الجامعية فى القرن الخامس عشر .

Moireau, A., La journée d'un écolier au moyen âge. Paris, 1889.

Munro, D.C., "The Mediaeval Student," University of Pennsylvania, Translations and Reprints, Vol. II, No. 3; Philadelphia, 1899.

Monroe, P., Thomas Platter, 1499—1582, and the Educational Renaissance of the Sixteenth Century. New York, 1904.

Norton, A.O., Readings in the History of Education : Mediaeval Universities. Cambridge, 1909.

Paetow, L.J. (ed.), John of Garlande's Morale Scolarium. Berkeley Cal., 1927.

Pegues, F., "Royal Support of Students in the Thirteenth Century," Speculum, XXXI (1956), pp. 454—462.

Perrod, M., Maître Guillaume de Saint-Amour : l'université de Pari et les ordres mendiants au 13 siècle. Paris, 1895.

وقد نقد الكاتبان ماندونيه Mandonnet وفلدر Felder مؤلف م. بيرود نقداً عنيفاً .

Perrod, M., Etude sur la vie et sur les oeuvres de Guillaume de Saint Amour (1202—1272). Lous-le-Saunier, 1902.

ويبدو أن هذا الكتاب عبارة عن طبعة جديدة لكتاب م. بيرود المنشور فى باريس سنة ١٨٩٥ .

Raby, F.J.E., A History of Secular Latin Poetry in the Middle Ages. Vol. II. Oxford, 1934.

Rait, R.S., Life in the Mediaeval University. Cambridge, 1912.

ونجد فى هذا الكتاب عرضا طيبا لحياة الطلبة فى جامعات العصور الوسطى ، ويعتمد فيه المؤلف على الفصل الأخير من كتاب « جامعات العصور الوسطى » لراشدال .

Schmeller, J.A., Carmina Burana. Breslau, 1894.

يتضمن كتاب ج. ا. شملر أفضل مجموعة من الشعر الجولياردى ، وهى مجموعة ممتازة فريدة فى نوعها .

Seyblot, R.F. (tr.), The Manuale Scholarium. Cambridge, Mass., 1921.

وهو عبارة عن ترجمة مع التعليق عليها .

Seyblot, R.F., Renaissance Student Life, a Translation of Paedologia of Petrus Mossellanus. Urbana, 1927.

Shackford, M.H. (ed.), Legends and Satires from Mediaeval Literature. Boston, 1913.

ويشتمل هذا الكتاب على قصيدة الشاعر الفرنسي وليم رتبف W. Rutebeuf من القرن الثالث عشر يتهكم فيها على طالب في جامعة باريس ، والقصيدة مترجمة إلى الإنجليزية تحت عنوان « أغنية جامعة باريس » (ص ١٢٥ – ١٢٧) من الكتاب المذكور .

Süssmlich, H., Die lateinische Vagantenpoesie des 12. und 13. Jahrhunderts als Kulturerscheinung. Leipzig, 1917.

Symonds, J.A., Wine, Women, and Song. London, 1884.

ويتضمن كتاب ج.ا. سيموندز أفضل تراجم للشعر الجولياردى باللغة الإنجليزية .

The Septicentennial Celebration of the Founding of the Sorbonne College in the University of Paris. Chapel Hill, N.C. 1953.

Thompson, J.W., "Goliardi," Studies in Philology, XX (1923). pp. 83—98.

وقد قامت جامعة كارولينا الشمالية بنشر هذه الدراسات القيمة التي تتعلق بأصل كلمة « جولياردى » ومشتقاتها .

Waddell, H., The Wandering Scholars. London, 1934.

Waddell, H., Mediaeval Latin Lyrics. London, 1948.

يحتوى كتاب هـ. وادل على تراجم بالإنجليزية للشعر الجولياردى .

Webster, H., Historical Selections. Boston, 1929.

من المصادر الرئيسية التي أشارت إلى حياة الطلبة في العصور الوسطى (أنظر ص ٥٧٩ – ٦٠٤) .

Weingart, M. (ed.), Statuta vel Precepta Scolarium. Metten, 1894.

Whicher, F., The Gloiard Poets. Cambridge, Mass., 1949.

يتضمن هذا الكتاب ، هو الآخر ، تراجم انجليزية للشعر الجولياردى .

Wright, T., A Volume of Vocabularies, Vol. I. London, 1857.

يتضمن كتاب ت. رايت قاموس جون أوف جارلاند (ص ١٢٠ – ١٣٨) .

Wyngaert, A. van den, "Querelles du clergé séculier et des ordres mendiants à l'université de Paris au XIIIe siècle," la France franciscaine, V (1922), pp. 257—281, 369—397; VI (1923), pp. 47—70.

بيان اللوحات

الذى خدعه أحيانا أن يلتقيا بعد صلاة المساء ، وهنا يبدأ هزر تعود عليه طلبة المدارس حيث يتبارى فيه الطالبان . ولما كان التضارب باللكمات ممنوعا فى المدرسة ، فقد تعلم الفتيان كيف يتحدثون عن عداءهم وخصوماتهم ، وكيف يدونون شكاياتهم فى حوار باللغة اللاتينية . ويبدأ الحديث كالآتى : « لقد كنت خارج المدينة بعد أن حل الظلام ، ولعبت مع العلمانيين يوم الأحد ، وذهبت للسباحة يوم الإثنين ، وتغيبت عن صلاة الصباح واستغرقت فى النوم أثناء القداس ». ثم يشكو قائلا : « أستاذنا المبجل .. لقد لطخ هذا الفتى كتابى وهو يصيح ورائى أينما ذهبت وهو يسبنى ويلعننى . »

وبالإضافة إلى المجادلات الرسمية ، كان الطلبة يتناقشون فى الأحداث الجارية مثل معركة فى الشارع ، أو زفاف ابن عم ، أو الحرب المتوقع نشوبها مع دوق سكسونيا ، أو الوسيلة التى يمكن الوصول بها إلى إرفورت Erfurt فى ألمانيا حيث ينتوى أحدهم الذهاب هناك عندما يبلغ السادسة عشرة من العمر للدراسة فى الجامعة . وكانت التجربة القاسية التى يعانى منها الطالب فى يومه الدراسى هى سؤال الأستاذ له فى النحو اللاتينى الذى يصل إلى حد الأحاجى والألغاز ، وذلك عندما يأتى الدور على كل طالب لسؤاله « auditio circuli » . وكان على التلاميذ أن يتلوا على أستاذهم ماحفظوه من تكوينات وتصاريف . فيبدأ الكسالى فى الارتعاش عندما تحين ساعة الدرس . وكان الطلبة يتمنون ألا يحضر الأستاذ قائلين : « عنده ضيوف » ، و « لكن سيتركونه فى الوقت المناسب » ، و « قد يذهب إلى الحمامات » ، و « لكنه لم يمض على ذهابه إليها منذ آخر مرة أسبوع كامل » ثم يقولون : « ها هو قد حضر . . أذكر إسم القط فإذا به

محتويات الكتاب

القسم الثانى

المغتربين فى بولونيا — أصل كلمة « جامعة » وتطورها — القيود التى عاش الأستاذ الجامعى أسيرها — « الأمم » داخل المحيط الجامعى — نقابات الأساتذة — إجازة التدريس والدرجات الجامعية — بولونيا مدرسة للقانون المدنى — جامعات الجنوب الأخرى .

باريس والشمال :

المدارس الكاتدرائية فى باريس — بطرس ابيلارد ونشأة الجامعة — البدايات الأولى لجامعة باريس — المراسيم والبراءات الصادرة من السلطات الدينية والعلمانية لصالح جامعة باريس — حياة الطلبة فى باريس — بيوت الطلبة والمعاهد العلمية — الطوائف والأمم والصراعات بينها — باريس نموذج لجامعات الشمال — جامعتا أكسفورد وكامبريدج — الجامعات الألمانية — الجامعات الأوروبية الأخرى .

تراث العصور الوسطى :

مخلفات جامعات العصور الوسطى — ليس لها مبان خاصة بها ، ولم تترك بقايا وآثارا مادية كافية ترجع إلى تاريخ مبكر — الاحتفالات الأكاديمية — الزى الجامعى — التقاليد والنظم الجامعية — جامعة العصور الوسطى جامعة نذرت نفسها للعلم .

الفصل الثانى

أستاذ العصور الوسطى ٢٨٧-٣٤٠

الدراسات والكتب الدراسية :

الفنون السبعة الحرة — الكتب الدراسية فى الفترة المبكرة من التاريخ الوسيط — حركة إحياء التراث الكلاسيكى فى القرن الثانى عشر : صحوتها ثم خبوها — الاهتمام بالمنطق والقانون والبلاغة وغيرهما من الدراسات المستجدة — أرسطو ومؤلفاته — فن تدوين المكاتبات والرسائل وأهميته — لم تعرف جامعات العصر الوسيط المعامل، ولم يدرس فيها التاريخ والعلوم الاجتماعية — أهمية دراسة الآداب — صعوبة دراسة اللاهوت — دراسة الطب — الدراسات القانونية ومجموعة « قوانين جستنيان المدنية » — أهمية القانون الكنسى — مرسوم جراشيان ولواحقه — الكتب المدرسية والمراجع العامة — عدم الحاجة إلى المكتبات الجامعية .

التعليم والامتحانات :

أساتذة العصور الوسطى وميكانيكية العلم والتعليم — بطرس ابيلارد — جون أوف ساليسبورى — برنارد أوف كليرفو — أساتذة النحو والمنطق والعلوم الكلامية — طريقة التدريس وأسلوبه — قاعات الدراسة والمحاضرات — الامتحانات

النظام الجامعي والحريات :

المركز الاجتماعي لأساتذة العصر الوسيط — مفهوم العصر الوسيط عن الحقيقة وحرية الفكر — الاجتهاد العقلي وموقف الكنيسة منه — الفلسفة واللاهوت ، ومدى التدخل في حرية العلم والتعليم .

الفصل الثالث

طالب العصور الوسطى ٣٤١-٣٩٢

مصادر معلوماتنا عن طالب العصور الوسطى :

الصعوبات التي تكتنف معالجة موضوع حياة الطالب في العصور الوسطى — مصادر معلوماتنا عنه : سجلات المحاكم ، اللوائح الجامعية ، الحوليات ، عظات المبشرين ، قصائد الشعراء - أهمية هذه المصادر في الكشف عن حياة الصخب واللهو التي كان يحياها بعض الطلبة ، وحياة البؤس والشقاء التي كان يحياها البعض الآخر .

كتاب الطالب :

قاموس الطالب - دليل الطالب - كتاب فن المحادثة - تقويم هايدلبرج - بعض المختصرات الأولية للسلوك والآداب - كتيب في فن الحديث والمجاملات وكيفية قضاء الطالب يومه الدراسي - كتابا التأدب وآداب المائدة - كتاب الإتيكيت وآداب السلوك .

فهارس الكتاب

هذه الفهارس خاصة بالقسمين الأول والثانى من هذا المجلد .

أولا

فهرس الأعلام

(ث)

(ج)

ثانيــا

فهرس الأماكن والآثار

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

ثـالثا

بيـان بالمدارس والمعاهد والجامعات وغيرها من المراكز الفكرية الوارد ذكرها فى الكتاب

رابعا

النظم والحضارة والفكر والحياة

(ا)

(ح)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)